رواية

أدهم العبّودي

حارس العشق الإلهي

التاريخ السري لمولانا جلال الدين الرومي

الطبعة 15

المصري للنشر والتوزيع

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

حارسُ العِشق الإلهي

التّاريخ السرّي لمولانا جلال الدّين الرّومي

أدهم العبودي

حارسُ العِشق الإلهي

التّاريخ السرّي لمولانا جلال الدّين الرّومي

رواية

(قالـوا يـا أَبَانـا اسـتغفر لنـا ذنوبَنـا إنّـا كنّـا خاطئـين [97] قال سـوف أسـتغفر لكـم ربّي إنّـه هـو الغفـورُ الرّحيـمُ [98])

(سورة يوسف)

(الظّالم يَبيدُ، وينتهي الخَرابُ، ويَفنَى عن الأرضِ الدّائسون)

(سِفر إشعياء)

(4:16)

يا اللهُ، يا إنسان، أنا البينُ بين.

عشقٌ يَرى، وعشقٌ يُرى، وعشقٌ يَروِي، ولا يُروَى.

عشقٌ إذًا يروي سيرتَه:

(إنّك قد رأيت الصّورةَ ولكنّك غفلتَ عن المعنى)

مولانا «جلال الدّين الرّومي»

«تاركُ الدّنيا والتّصنيف – وفق تأريخِ العرب»

القسم الأول

المفترق

شاهين

خوي/ إيران –٦٤٥ هـ

ضريرٌ، يقولونَ ضريرًا، يقولونَ لا أرى، وإن كنتُ أرى ما لا يرون، أتوكأ على بصيرتي، أمسح فضاءات الأمكنةِ بخيالي، نعم خيالي لم يزلْ أبيض، من يُولد ضريرًا بلا عينين لا يعاني من تأمّلات الألوان، أو تشابكاتها المحيّرة، حتّى الأبيض لم أكن أعرفه، بل وُصف لي، فيما يُشبه راحة الذّهن وصفاء الرّوح، فصرتُ أشعر به، هذا الشّعورُ الرّقراق، المنحدرُ من سموات الله البعيدة. الأبيضُ لون قلبي، هذا ما قيل لي، وإن كنتُ كثيرًا ما شعُرت بلؤمي تجاه أمورٍ بعينها في الحياة.

مولاي «شمس»، حدس ذلك منذ ما يناهز الثلاث سنوات وقال لي:

- رغم طيبتك يا «شاهين»؛ تبدو لي ماكرًا بعضَ الأحيان.

وشدّ لحيتي الطّويلة مداعبًا، فضحكتُ، كما لو أنّ فراسته واستشرافه أخجلاني، كيف أدرك مولاي ما لا يُدرك إلّا بتواتر المواقف والعِشرة والاستكشاف عن كثب؟

إنّما، أظنّني ماكرًا ولو بصفة التفكّر، أؤمن أنّ الذي يتأمّل ويتفكّر هو أكثر البّشرِ مكرًا، تجاه بعض المسائل على الأقل، يكفي أنّي أتحسّس طريقي دومًا حتّى وإن طرقتها مرّات ومرّات، علّي أكتشفُ جديدًا، ألا يعُد هذا مكرًا؟ والله خيرُ الماكرين!

«شمس»؛ مولاي، قال لي يومًا:

- اُنظر يا «شاهين» إلى عظمة الله في صنعِ الإنسان، إنّه أشبه بعالمٍ متفرّدٍ في حدّ ذاتِه، مجموعة من العناصرِ المتشابكةِ تعمل للدّفع

بالبشريـةِ إلى الأمـام، لا يُمكـن فصـلُ بعضَهـا عـن بعضٍ، فـإن فعلنا تعطّـل كلّ عنـصرٍ على حدة، عـالمٌ متفرّدٌ منـذ يُبذر نطفـةً إلى أن يغتاله الشّـيب، الإنسـانُ كفيـلٌ بتحريـك الكـون إن أراد، إذ أنّ الله نفـخ فيه مـن رُوحـه وبعدهـا منحـه خيـارات مسـالك الطّـرق، القـدرُ دائـمًا ينتظـر بنهايـةِ كلّ طريقٍ، الإنسـان يحدّد مصـيرَه وفق اختياراتـه، لذا؛ إن عشـقت اعشـق إلهًـا، وإن مِتّ مُـت نبيًّا.

«شـمس»؛ إن رآه عابـرٌ محـض صدفـةٍ ظنّـه مجذوبًـا، إنّما هـو مُلهم الدّراويش وسـيّدهم، أعظم من سـكنه عِشـق الله، وأعظم من تحدّث عنـه، ظـلّ يؤمن أنّ الكون بأسرِه لم يُخلق إلّا كيما يستكشـفه الإنسـان، ببصيرتِـه قبـل عقلِـه، كلّ الأدوات مُتاحـة، إنّـما أُتيحـت لـلأرواح الباحثـة، ومهـما طـال البحـث وشـقّ، فنهايتـه وصـولٌ، وكلّ الطّرق لابـدّ سـتؤدّي إلى مصـبّ وحيـدٍ، هـذا إن آمنّـا بالطّريق قبـل المصير.

وقال لي:

- مع كلّ سطوع شمسٍ، يُولد نورٌ في بصيرة ابن «آدم».

بالأمـسِ البعيـد، في قريتـي المرابضـة عـلى حـدود مدينـة «قونية»، قبـل أن أسـلك دربَ التصـوّف على يد مـولاي «شـمس»، ويُلهمني الله حلاوة العِشـق، اعتـدت أن أسـأل الأولاد:

- لون الشّمس.. يا أولاد...!

كنـت أشـعرُ بوخـزٍ في جلـدي، وخـز حرارتهـا، كأنّ دبيبًـا ناعـمًا يـسري في مسـامي، كان الأولادُ يتنـدّرون بي:

- أحمر.. أخضر.. أزرق..

ويضحكون، سألني أحدُهم:

- وهل تعرف الألوانَ أصلًا أو معناها؟ كلّه مُتشابه.

حقيقةً، لا أعرف معنى الألوان، إنّما؛ أقول في سرّي: لونُ الشّمس يا أولاد لون الحلم، لونُ الشّمس لونُ صبيّة قلب عاشق، لونُ الشّمس لونُ العشق، لونُ الشّمس...

وهل كنتُ أعرف معنى العشقِ نفسه؟

هل العشقُ والشّمسُ مترادفان حقًّا؟

ثم أين الشّمسُ؟ لعلّ الشّمسَ بدعةٌ من بِدع الأولاد..!

عندما كان يلعب الأولادُ في مطلع كلّ صباح، يستأنس بهم قلبي، إنّما لم أكن أستطيع مشاركتهم اللّعب، فإذا أعدّوا سباقًا للجري، تابعتُهم بأذني، وإذا تباروا في العومِ داخل تفرّعات النّهر، وقفتُ على الضفّة لأشعر برذاذِ الماء.

سألوني كثيرًا - بفطرةٍ بريئة غير مشبوهة - عن شعوري بعدم إحساسي بلونِ الشّمس، هل لذلك أثرٌ في نفسي؟ ولم أكن أعرف مدى تراكم مسألة لا إحساسي بكلّ ما هو مرئي داخل رُوحي، هل يُمكن أن يُدرك الغيبُ بمجرّد الفرض! يُمكن فقط أن يتخيّلونه.

كثيرًا ما سألتُ نفسي: ماذا لو غابت الشّمسُ عن بلدتِنا الصّغيرة؟ ولم تطلع بعد ذلك! كنتُ أُجيب نفسي: وهل يفرق هذا معي؟ طالما لم أرها، فالشّمسُ مجرّد حكاية، هزليّة ربّما، خرافية، من حكايات الدّنيا المنسيةِ بتعاقب الزّمن.

لونُ الشّمسِ لون «كيرا» المسيحية، لونُ ضحكتها، لونُ عشقها.

كلّما راودتْ ذهني، قلت: «كيرا» سلامًا.

أجل كنت مضطرًّا للحبِّ الصّامت.

يحكـي الأولادُ: تجـري «كـيرا» متدلّلة بعيـدًا عن قرصة يـدّ «آزاد» لخدّهـا، دائـمًا ما تشـعر «كـيرا» بالخجـل، نبتَ مـن صدرهـا رمّانتان صغيرتـان وأدركـتْ أنّهـا لم تعُـد مجـرّد طفلـة، صـارتْ صبيّـة، ومـا أخطـر الصّبايـا على خيـال الأولاد، بل مـا أخطـر الأولاد على قلوب الصبايا!

يحكـي الأولادُ: قـال لهـا أبوهـا؛ إن لمسـك ولـد سـأقتلك. لكنّهـا قالـت لأمّهـا: وهـل لمسُ الأولاد حـرامٌ؟ فقالـت لهـا أمّهـا: كلّا يـا «كـيرا»، لمسُ الأولاد عسـلٌ، لكنّـه عسـلٌ مـرّ. وقالـت: سـتعرفين يومًـا معنـى لمسـةِ ولـدٍ. وقالـت: عليـكِ بالصـبر.

«كـيرا» أدركهـا الصّـبرُ قبل أن تعـرف معنـاه، إنّها تنتظـر أن يطرح جسـمُها منـذ زمنٍ.

وأقـول: أمّـا أنا أنتظر أن تعود الشّـمس لعينيّ كي أبـوح يا «كيرا»، لكنّ الشّـمسَ لا تعود إلّا في حكايات الخيال.

يسـتمرّ الأولادُ في ترسـيخ الحكاية: عندما قرصهَـا «آزاد» في خدّها أجفلـتْ، وارتعـشَ جسـمُها وسـاب، وأحسّـتْ لمَ حذّرهـا أبوهـا، فجـرتْ بعيـدًا واختبأتْ خلف شـجرةٍ وارفـةٍ في آخرِ القريـة. وقالتْ لنفسـها: لـن ألعـب مـع الأولادِ ثانيّة، فقـد يقتلني أبي.

إنّـما قالـت كذلـك: لكـن الولـد الوحيـد الـذي سـألعب معـه هو

«آزاد»، رغـم قرصاتِـه الماكـرة.

«آزاد» يحبّهـا، وكاشـفها صراحـةً بهـذا، لأنّ لـه عينـين تريـان، وتترجمـان المعـاني، هـي لا تعـرف غايـة الحـبّ، تعـرف أنّـه راحـة، واطمئنـان، ولعـب، الحـبُّ لعـبٌ في لعـبٍ، وفرحـةٌ.

حيـث كان الأولادُ يحاصرونهـا بألعابهـم الذّكورية، يظهـر «آزاد»، ويدافع عنهـا، ويناطحهم، «آزاد» قوي، لكـنّ عاطفتَه نحوها أقوى، كاد يفتـك بولـدٍ مـن قبـل، لأنّه حطّ يـدَه فوق كتـف «كيرا».

بالطبـع، كنـت أتلصّـص بـأذني مـن بعيـدٍ عـلى سريـان الحكايـات وتكاثرهـا، ألسـنةُ الأولاد – بفطرتِهـا – لا تكتفـي ولا تتحـرّج مـن تناقـلِ الحكايـات، تابعتُ قصّةَ حبّهـا، وكان قلبي وقتـذاك ينزفُ من فـرطِ العـذاب، فمكتـوبٌ هـذا الحـبّ عـلى البّـشر، البّـشر المكتملين فقـط، ومثـلي لا يُمكـن لـه أن يُبادِل الحـبَّ بحبٍّ، مثلي خُلـق ليتقصّى أثـر العذابـات بـين دروبِ هـذي الحياة.

كان الجمـوحُ الـذي يـراود الأولادَ في سـنّي جموحًا مُضحِـكًا؛ لكنّه مـع ذلـك جموحُ الفطـرةِ والبداهـة، مراقبـةُ الفتياتِ بالأعـين، الهمسُ الصّامـت، الاسـتمناءُ في المنـام بإحداهـنّ، أمّـا أنـا، فجموحي يكون إذا مـررتُ مصادفـةً وسـمعت صـوت «كـيرا»، أو سـمعت طرقات يدِهـا على بـابِ بيتنـا، فأهـرول ناحية البـاب – فقـط – لأعبّق خيالي برحيقِ جسـدها.

في «كـيرا» كنـت أشـمّ رائحةَ الشّـمس، أطلقـتُ عليهـا بيني وبين نفـسي لقـب: «بنـت النّهـار»، فـإذا أردتُ الإحسـاسَ بالنّهـار كان

علـيّ أن أكـون قُـرب «كـيرا»، قُـرب محيطها، ولو عـبر الخيـال، ثم إذا ابتعـدتْ «كـيرا» عـن دائرة إحسـاسي، يجـيء اللّيل.

فإذا جاء اللّيلُ؛ استحضر ذهني كلّ خيالاتي الخبيثة.

أمـرّرُ أناملي فـوق وجـه أمّـي، أحـاول استشـعارَ معنـى الملامـح، وكيـف يُمكـن أن يصنع خيالي صـورةً أقـرب للواقع، إنّـما كان خيالي كسـولًا، إذ كلّـما حاولت تقريب الأشـكال وبلورتها انحـرف الخيالُ، فرأيـت الله مسـتديرًا ولـه بطـنٌ كُـبرى، ثـمّ سرعـان مـا اسـتغفرت وبدّلـت شـكلَه، فرأيته كألّا حدود لـه، وبدا لي أشـبه بدخان ينتشر في فراغـات الخيـال، كنـتُ كلّما رأيتـه بأكثر من شـكلٍ اسـتغفرتُ، لكن قالـت لي أمّي:

- حـاول تـذوّق طعـم الله، سـماع صوتِـه في داخلـك، وسـيهب بصيرتَـك صـورةً وافيـة لـن تتبـدّل ولـن تفنـى.

كنـتُ أقضـم ثمـرات الفاكهة، وأظـلّ ألعق بلسـاني محـاولًا –دون جـدوى- تـذوّق طعـم الله في فمـي، أو ألصـق أذني بشـقوق الجدران أتنصّـت للصفـيرِ الخافتِ القـادمِ مـن أعماقها، ولم أسـمع صوت الله.

في النّهايـة، كانـت أكثرَ صورةٍ نورانيةٍ راسـخةٍ في ذهنـي هي صورةُ «كيرا»، فقلتُ:

- إذًا «كيرا» هي الله.

فسلامًا «كيرا»، أين كنتِ، وأين صرتِ.

جلال الدّين محمّد بلخي

بلخ –خراسان –٦١٥ هـ

(قال معشوقٌ لعاشقٍ: لقد طوّفت في الكثير من المدن، فأيّها أعجبك أكثر؟ قال العاشقُ: تلك التي فيها من اختَطَف قلبي).

(خراسان –أرضُ شروقِ الشّمس)

في اللّيلـة التـي فاضـت فيهـا رُوح أمّي، تشـاجرت مـع الله، بدوت سـاخطًا، شـعرتُ أنّ العـالم ضالٌّ وقبيـحٌ، وأنّه ليس مـن ثمّة معنى في تجميـل مشـاعرنا تجاه السّـماء، إنّ الله لابـدّ غفا أو تكاسـل وترك العالم يطيـش وينحـرف، كانت الفوضى تسـكن طبيعـة حركة الأشـياء من حـولي، فوضى مُرعبـة، أصلُها هجـرٌ وتخلٍّ.

صعـدت إلى سـطح البيت، ومـددت رأسي لـيراني، صحـت به:أما كفاك !

لكنّـه بـدا لم يسـمعني، تطاولـت أكثـر فأكثـر، صرخـت في يـأس مهـزومٍ: ضـاع كلّ شيء بسـبب قـدرك!

وإنّـما كانـت السّـماء راسـخة فوقـي بـلا مبـالاة، ولا كأنّ راويـة الحكايـات المُلهمـة قد رحلـت، ولا كأنّ لها ابنًا سـيحترق كمـدًا، ولا كأنّ الله خلـق هـذه المُـدن التـي أهرقهـا الطُغيـان والـذّل.

من شـدّة صراخي، بُـحّ صوتي، فانهـرت، دفنت رأسي بـين ركبتيّ، وانطلقـت في البُـكاءِ، هل هذا هو البُكاءُ الصّادقُ يـا الله؟ هل كلّ هذه الدّمـوع الحبيسـة كفيلـة بترجمة الأسـى والحسـرة اللذيـن يحاصرانني وينخران في قلبـي المضطرب الآن؟

هـل أنـت حقيقـيٌ، أم مجـرّد أسـطورة صنعها ابـن «آدم» ليلـوذ بها جزافًـا يـوم يشـعر أنّـه مجـرّد ورقة شـجر يابسـة في مهـبّ ريح؟

لكنّـي في لحظـة رأيـت أمّي تدنـو منّـي منحدرةً مـن فجـوةٍ نورانية قـدّت في السّـماء، كانت ترتـدي ثوبًا مصنوعًا من ورق الشّـجر، وعلى جبهتها مكتـوبٌ: إنّ الله قريبٌ.

كانـت تدنـو، وسـاقاها تغوصـان في بطـنِ فـرسٍ شـفّافة، الفـرسُ كانـت لا لـون لهـا، بـل مجـرّد ضـوءٍ باهـرٍ سـاطعٍ، ملامحُهـا كضبابٍ نـوراني، كانـت أمّـي تمتطيها وجسـدها بدا ملتحـمًا بها، تحدّثـت أمّي، همسـت، ولم يكـن صوتُهـا بشريًا:

- أنا الحقيقة، وليسَ من حقيقةٍ إلّا ما يكونُ بأمري.

***

العِشـقُ نـورُ كلّ الخيـالات، مثل نـورِه كقلبٍ فيه فيـضٌ لا ينضب، الفيـضُ يرمـي صاحبَـه ولا يُرمـى إليـه، فالعِشـق يرنـو ولا يُرنى له، أنـا السّـائر في مهـبّ احتياجٍ، شـوقي كشـوقِ أسـيرٍ لحريّـة، وحريّتي بـك وفيـك مشـاعٌ لمن ضلّـوا، كأنّما هُـدىً من بعـد تيهٍ، يُوقـد من نبع إيقـانٍ، لا مجبـور ولا معـذور، إيقاني يـا ربّي نواةٌ تصنـع للعالمين ملاذًا أخيرًا.

تُؤتـى المباهـجُ ذات ليـلٍ لا يخطـر على بـالِ عاشـقٍ، في اللّيـلِ لؤلؤةٌ تتدنّـى للنّاظريـن، ليـس كمثلِها لؤلـؤة، نجمة تهبـط من متنِ السّـماء في إبـاء وتدلّـل، كأنّما تناولني نفسَـها، أمـدّ لها يدًا ضبابيّـة، أكاد – من روعهـا – أتـدرّج طيفًـا في ارتقـاءٍ لم يكـن لبشـرٍ، وتعاقـرني الهواجس الحالمـة، يتخلّلنـي وهجهـا ويسـتحكم بفـؤادٍ قبـل العقـل، فـأراني مأسـورًا ومُرابطًـا عـلى الحـدّ بـين مسـافتين؛ مسـافة الحُلم، ومسـافة

النّـور، أصـدح باللّحن ولسـت بطيرٍ، أتخشّـع ولسـت بجبـلٍ، أتمايل ولسـت بشـجرٍ، وربّـما خفـق فيّ جناحان ولسـت بمـلاكٍ، جـزءٌ من رُوحـي ينازعنـي ويشـدّني إلى الأرض، جزءٌ مدسـوس عـليّ، غير أنّ الجـزءَ الأكبر – أظنّـه النّوراني- ظـلّ يُباشر رفرفته نحو السّـماء، أجل إن هـي إلّا سـماء الرّب، سـماء البُـشرى والنّغـم والمسـتقرّ الأخير.

الأصـوات متفرّقـة، لا يُمكـن أن تسـتوضح أذني صوتًـا بعينـه، لا نـبرة مميّـزة، ولا هاتـف واضـح، الأصـوات متداخلـة، عصيّـة عـلى التفسـير، لكـنّ طـرفَ عينـي يستمسـك بالسّـماء، والنّجمـة كأنّهـا قُـدّت لأجل غوايتـي، النّجمـة ترهج، وفي الأفـق هناك، يبـدو جُرحٌ غائـر، فصـدر السّـماء – ولـو بلـون اللّيـل - بـدا ينـزف دمًـا، أصعد برُوحـي، أكثـر فأكثر، تسـتبدلني السّـماء بنجمتها، فأجدني راشـقًا في العُمـق مـن الجُـرح، متلألئًا مثـل فكرة لا تمـوت، أستكشـف الجُرح، وأحـوّط عـلى الـدّم بيديـن عاجزتـين، أحجز سـادًّا منفذ الجُـرح، بلا جـدوى، يُلهمنـي الله من كشـفٍ آنٍ، فألملم سـحابات نافقـة وأطويها بـين راحتـيّ، كيـما أصنـع بهـا رتقًـا لجُـرح السّـماء، عـلى مهـل أرتّـق الجُـرح، وأحشـوه بالسّـحاب، على مهـل أحجب النّزيـف، على مهل تسـحبني بطـن السّـماء داخلهـا، فأنزلـق لأعـلى، ينغلـق الجُـرح عـلى أسرار لم يكشـفها غيـب، وينغلـق عـليّ، هـا أنا مغـادر إلى أعـلى طبقةٍ في السّـماء، مغـادر بوعـي النّزيـف، أودّع كلّ شيء أسـفل البـصر، أبي وأمّـي وأحبّتـي، أتـرك مدينتـي الأثـيرة «بلخ» بشـوارعها وسـهوبها وحدائقهـا وأنهارهـا وبشرها.

***

«بلـخ» مدينتـي؛ جنّـة الأرض وقاهـرة الأزمنـة والغُـزاة، أمّ المدن قاطبـة، يقطعهـا رافـد نهـر «آمودريـا» ليمـرّر عبرهـا نفحـات الإلـه القديـر، ويتضـوّع في محبّـة أراضيهـا الحُبـلى بالخـيرات منـذ الأزل، دونـما انقطـاع، يتفـرّع داخـل أرضهـا ليصنـع حدائقَ مـن الاخضرار والزّهـو، تفـوح روائحهـا لتنتشر عـلى آمـاد الهـوى، ترابُها الـوفيّ يهبنا أطيـب الغـلال والحبـوب والأسـمدة التـي تسـافر إلى «خـوارزم» و «خراسـان» و «جزيـرة العـرب»، وكنّـا في صهـد الصّيـف نغطـس في تـلال الحبـوب المصحونـة، كانـوا آباؤنـا يخزّنوهـا في صوامـعٍ مجـاورةٍ لطواحـين الهـواء، وفي كلّ موسـمٍ يبلّطـون هـذه الطّواحـين، المصنوعـة مـن الخشـب، بالطّين والقـشّ، ثـم يدهنونها بالقـار، حول كلّ طاحونـة شُـيّدت صومعـة لتجميـع ما تطحنـه الطوّاحين أسـفل رُحاهـا، تـأتي الرّيح، فتـدور ريّش الطواحـين، وتدور معهـا الرُّحى، ونسـمع صوت اندهـاس حبّات الغـلال عندما يلفّ حجـر الرّحايا، صـوت كصوت تكسّر حطبِ الشّـجر تحت الفـؤوسِ، وعنـد انتهاء موسـم طحن الغلال، تدور الطواحين لتسـحب ميـاه النّهر إلى داخل بـدن أرض «بلـخ»، لـتروي الزّراعـات المفـرودة بامتـداد البصر.

أرضُنـا «بلـخ» أرض خـير وثمـر وأشـجار وكـروم وحدائـق، موقعهـا مطمـعٌ، دُمـرت اثنين وعشرين مـرّة في تاريخهـا، إلى أن أجهز عليهـا «جنكيـز خـان»، قائد المغـول، وراح يهـدّم ويمحـو آثارها، لم يتركهـا إلّا مجـرّد أطـلالٍ يتأسّـى عليهـا الزّائرون.

وكنّـا نحفـظ القـرآن في جامع «بلـخ» الكبـير، يصلّي آباؤنـا الفجر

ونصـلّي معهـم، ثـمّ نجلـس في صحبـةِ الإمـام، ويصعـد بصوتِـه من قصـار السّـور سـورة سـورة، ونـردّد خلفَـه، يُسبل عينيـه ويتبتّـل، ويظـلّ يصحّـح وراءنـا بصوتِـه الرّخيـم، وإيقـاعُ صوتِـه يغزونـا، وتنتظـم أرواحنـا مـع صوتِه كانتظـامِ حبّاتِ مسبحةٍ، يتـمازج صوتُه مـع انسـجام الترتيـل رويـدًا، وينعقـد حولنـا مـزاجٌ روحـاني أخّـاذ، وكثـيرًا مـا كنـتُ مـن درسٍ لـدرسٍ أبكـي، إذ فجـأة تتسـاقط قِصار السّـور مـن ذاكـرتي، لكـنّ الإمـام دومًا يقـول لي:

- دع آيـات القـرآن تسـكُن قلبك قبل أن تسـكن عقلك، سـتردّدها دون ذاكـرةٍ ولا اجتهادٍ.

وقيـل أنّ مسـجد «بلـخ» الكبـير بنتـه امـرأةٌ، كان زوجُهـا أميرًا في «بلـخ» بعـد فتح العـرب بسـنواتٍ قلائـل، قيـل أنّ الخليفـة غضب مـرّة عـلى أهـل «بلـخ» لحـادثٍ أحدثـوه، فبعـث إليهم مـن يغرمهم مغرمًـا فادحًـا، فلـمّا بلـغ إلى «بلخ» أتـى نسـاؤها وصبيانُهـا إلى تلك المـرأة التـي بنـت المسـجد، وهـي زوج أميرهـم، وشـكوا حالهـم وما لحقهـم مـن هذا المغـرم، فبعثت إلى الأمـير الذي قَدم برسـم تغريمهم بثـوبٍ لهـا مرصـعٍ بالجوهـر قيمتـه أكثر ممّـا أمـر بتغريمـه، فقالت له: اذهـب بهـذا الثّـوب إلى الخليفة، فقـد أعطيته صدقة عـن أهل «بلخ» لضعـف حالهم. فذهـب به إلى الخليفـة وألقى الثّوب بـين يديه وقصّ عليـه القصـة، فخجل الخليفـة وقـال: أتكون المـرأة أكرم منـا؟ وأمره برفـع المغـرم عن أهـل «بلخ»، وبالعـودةِ إليها ليردّ لها ثوبها، وأسـقط عن أهـل «بلخ» خراج سـنة.

ولمّـا عـاد الأمـير إلى «بلـخ»، وأتـى بيـت المرأة، قـصّ عليهـا مقالة الخليفـة وردّ عليهـا الثّـوب، فقالـت له: أوقـع بصر الخليفـة على هذا الثّـوب؟ قـال: نعـم. قالـت: لا ألبـس ثوبًـا وقـع عليه بـصرُ غير ذي محـرم منـي. وأمـرت ببيعـه. فبُنـي منـه المسـجد والزّاويـة وربـاطٌ في مقابلتـه مبنـى «بالكـذان»، وفضـل مـن ثمـن الثّـوب مقـدار ثلثـه، فقيـل أنّهـا أمرت بدفنه تحت بعض سـواري المسـجد، ليكـون هنالك متيـسرًا إن احتيـج إليه.

عنـد دخول التتـار إلى «بلخ»، أُخـبر «جنكيز» بهـذه الحكاية، فأمر بهـدم سـواري المسـجد، فهدم منهـا نحو الثّلـث، ولم يجد شـيئًا، فترك الباقي عـلى حاله.

و «بلـخ» مدينتـي تتبـع إمبراطوريـة «الخـوارزم الخرسـانية»، ولعائلتـي أصهـارٌ في البيت الحاكم في «خوارزم»، لـذا؛ كانت مكانتُنا أثـيرةً لـدى «خـوارزم»، كثـيرًا مـا كنّـا نتـزاور، يمـدّون لنـا الموائـد ويـشرع أبي في التدريـس لأبنـاء الحاكـم وأقاربـه، طيلـة الفـترة التـي نقضيهـا في بيتِـه ضيوفًـا، إذ لُقّـب أبي بسـلطان العارفـين، أطلق عليه أهـل المدينـة تلـك الصّفة لما له مـن ضلـوعٍ في علوم الفقه وسـعة غير مسـبوقة في الاطّـلاع على المعـارف والقانونَ والدّين، كان أبي يسـتنفد كلّ مـا يقع تحت يده مـن صحائف وأوراق العلـوم والتصوّف والفقه واللّاهـوت، وكانـت له ذاكـرةٌ يُثني عليـه العُلماء والأئمة والشّـيوخ، بـل كان يجـادل أكثرهـم حكمة وعلـمًا وتفقّهًـا، والغريب أنّـه يُصيب في كثـيرٍ مـن الأحايـين، رأيـه سـديدٌ، وأفقه اسـتشرافي، لهـذا؛ كان له

توقـيرٌ أصلـه علمـه ودأبـه وتوسّـعه في غَـرف المعارف مـن أصولِها وبطونِها.

أمّـا طرقات «بلـخ» فتمتدّ باتّسـاع النّظر، تسرح نحـو الآفاق كأنّها صاعـدةٌ لحـواف السّـاء، فـلا ينتهـي معهـا نظـرٌ ولا يُؤتـى آخرُهـا، شـوارعها بهجـة العابـر وأمان السّـاكن، يـكاد السّـائر الغريـب يرى في كلّ شـارع من شـوارعها قصرًا منيفًـا، لكبار التّجـار وأثرياء البلد، مـن خلـف تلـك القصـور ترتفـع المـآذن العالية التـي كـدّ في صنعها وتصميمهـا أمهـرُ مهنـدسي «بلـخ» وبنّائيهـا، مـآذن مطعّمـة بالبلّور والفضّـة، تنتـشر منها الأضواء الرّاشـقة في صدر السّـاء طيلـة اللّيل، لتبـدو مثـل شـبكةٍ نورانيّـة تضـمّ «بلـخ» بـين أطرافها، وحـول هذه الشّـوارع والـدّروب تلتـفّ تفرّعـات «آمودريـا»، مـاؤه صـافٍ، سـطحه يعكـس حلول النّهـار وتألّق نجـوم اللّيل، كنّا صغـارًا عندما كنّا نغتسـل في ماء «آمودريا»، إذ أنّنا نشـعر بلسـعة الماء وكأنّها لسـعة فردوسـية، تدغـدغ جلودنـا، ينهرنـا الآباء عن النّـزول إلى مـاء النّهر، وإنّـا كان النّهـر حانيًـا، يمنحنـا الانتعـاش والبهجـة دون أن ينتظـر المقابـل، وكان مـن النّـادر أن يغـرق واحدٌ مـن أطفال البلـد في النّهر، وكانـت المقولـة الشّـائعة عـن النّهر أنّه أحـنّ على الصّغار مـن ذويهم.

نتسـمّر عـلى ضفّة النّهـر، ننتظر أن تقع الأسـاك النّافقة بـين أقدامنا فنتناولهـا في سـهولةٍ، وقـد نُلقيهـا للطّيـور الجائعـة الهائمـة في الجـوّ، نفـترس الوقـت ونحـن مسـتغرقين عـلى ضفّـة النّهـر، إذ سرعـان ما ينقـضي النّهـار وكأنّه مجـرّد غفـوةٍ طارئة.

تفرّعـات النّهـر صنعـت عـلى الضّفـاف التفافـات سـاحرة مـن شـجر، ظلّلـت «بلخ»مـن شِـمالها لجنوبهـا، في أوقـات الحـرّ نمـرح تحـت هذه الظّلال، ونتسـلّق تشـابكات غصـون الشّـجر ونختبئ من بعضنـا البعـض، ذات مـرّة سـقطت، كنـت أتسـلّق الشّـجرة وحولي تفـرّق الأولاد يتسـلّقون، داسـت قدمـي عـلى غصـنٍ ذابـل متهـرّئ فانقصـف الغصـن وهبـط بي إلى سُـدّة الأرض، التـوى كاحـلي ففُزع الأولاد مـن فـرط صراخي وتوجّعـي، التفّوا حولي، سـنّدني بعضهم، وحملنـي آخـرون إلى بيتنـا، بالطبـع لم يكتـفِ أبي بنهـري، بـل أكمـل الألم بـأن نـزل على جسـمي بغصنٍ جـافٍ لسـعًا، حتّى تورّمـتُ، كان ذلـك أمـام الأولاد، الذيـن جـروا بعيـدًا عن صيحـات أبي وسُـبابه، واختبئـوا خلـف جـدران بيـتٍ قريـب يراقبوننـي، وظللت أئـنّ من فداحـة الجروح التـي شرّخت ظهري وكتفيّ، غـير أنّ أبي أسرع بي إلى حكيـمٍ، طبّبنـي وجبّر كسـوري، وفي المسـاء التحفت على صـدر أبي، وشـعرت بـه ندمـان على مـا صنـع بجسـدي الصّغير، قـال لي:

- تعرف أنّي أخاف عليك يا «محمّد»!

- بلى أعرف يا أبي.

- الحرصُ واجبٌ يا بني، ماذا لو انقصفت رقبتك بدلًا من ساقك؟

- ماذا كنت ستفعل يا أبي؟

- الموتُ بعدك أهون يا ولدي.

شـمال غرب «بلـخ» تقع العاصمة «مـزار شريف»، كنّـا نرتحل مع آبائنـا في قوافـل التّجارة نحو الشّـمال، قوافل تحمل الخزف والأقمشـة

والسّـجاجيد الفاخـرة والغـلال والفاكهـة التـي نبيعها لبـلاد الشّرق بأسرهـا، أو القوافـل التي تحمل أثـرًا وجب صونُه وحمايتُـه، من تلك الآثار التي خرجت قافلة كُبرى لنقلها إلى العاصمة؛ كتاب «أوسـتا»، وكانت النّسـخة الوحيـدة المتبقيّة من كتـاب ديانة «الزرادشـت»، بل لعـلّ النّسـخة الوحيـدة التـي تـمّ الحفـاظ عليهـا في العاصمـة لم تكن كاملـة تمامًا، بـل كانت عبارة عن بقايـا صفحات من الكتـاب آنذاك، إذ أحرق المسـلمون – خوفًا من اسـتفحال الدّيانـات الوثنية – معظم صفحـات ونُسـخ هـذا الكتاب بعـد دخولهـم أراضي «أفغانسـتان»، كان كتـاب «أوسـتا» مكتوبًـا بـماء الذّهـب، وكبّـد صانعـوه جلـود قرابـة عـشرة آلاف بقـرة وقتهـا، غـير أنّ المسـلمين نظـروا إلى الدّيانة «الزرادشـتية» عـلى أنّهـا ديانـة وثنيـة منتشرة بشـكلٍ خطر، قـد تهدّد انتشـار الدّيـن في ربـوع العـالم، فأحرقوا كتابهـم، ثلاثة آلاف نسـخة، وربّـما أكثـر، قدر مـا أمكنهم، رغـم ذلك، ظـلّ المعبد «الزرادشـتي» مُقامًـا عـلى أرض «بلـخ» لم يُمسّ، يبلـغ ارتفاعه ما يزيـد عن ثلاثمائة مـترًا، مُزيّـن ومزركـش ومنقـوش بنقـوش خلّابـة، بل ظـلّ الحجّاج «الزرادشـت» القادمـون مـن «تزمـير» في «أوزبكسـتان» يفدون في موعـد الحـجّ من كلّ عـام، كنّا نتاجر معهـم، ونتملّى في أعين نسـائهم المشـعّة المكحّلـة، كان آباؤنـا يقولـون أنّ «الزرداشـتيين» أبنـاء الجنّ، لهم سـحر الجـنّ ودهاؤهـم، وجمالهم مـع ذلك.

مـن ذي قبـل؛ مسّـني سـحرُ إحداهـنّ، كنـتُ مـع أمّـي نتبضّع من سـوق الفاكهـة، وكان موسـمُ حـجٍّ، وكانـت «زرادشـتية» واقفـة

تفـاوض في سـعرٍ مـع بائع، اسـتدارت فقـط، ورمقتنـي بعينيها من خلـفِ خِمـار قرطـاس، وإنّـما أمعنـتْ النّظـر، انتفـضَ جسـمي، وبدا شـعرت أمّـي بلسـعتي، إذ أنّ كـفّ يـدي التـي كانـت تقبـض عليها في يدهـا ارتعشـت هـي الأخـرى، على الفـور، حدجتهـا أمّـي بنظرةٍ حازمـة، ثـم سـحبتني ومضت.

وظللت أيّامًا أرى عينيها تسرحان حولي على الحوائط والأسقف.

ورأيتهـا في أكثـر من حلم، وأكثـر من حادثة، رأيتها عاريـةً، ورأيتها باكيـةً، ورأيت رجالًا يحاوطونهـا ويتنازعون تمزيق ملابسـها، ورأيتها تحـت قدميّ تغسـلهما، وقال لي في حلمٍ: سـنتقابل في حلـمٍ آخر بعيد.

وقصصت على أمّي أحلامي بها، فقالت أمّي آنذاك:

- لقـد أغـواك سـحر عينيهـا يـا بُنـي، إنّهـنّ بنـات الجـنّ، وعبـدة أوثـان، يعبـدن «زرادشـت» و «بـوذا»، الحـذر منهـنّ واجـب.

قيـل أنّ «بـوذا» ملـك «الهنـد» بنـى عـلى أرض «بلـخ» معبـده على غرار معبد «الزرادشـت»، بناه في وسـط المدينة، أسماه «نوبهار»، زيّنه بالدّيبـاج والحريـر والجواهر النقيّـة الخالصة، ثم شـيّد حوله الأصنام، طـول المعبـد مائـة ذراع، وعرضه مائـة، وارتفاعـه مائتـا ذراع، كانت سُـدانته — قديـمًا - حكـرًا للبرامكـة؛ الذيـن حكمـوا المدينـة واحـدًا بعـد الآخـر، إلى أن فُتحـت «خراسـان» عـلى يـد «عثـمان بـن عفّان»، قيـل أيضًـا أنّ المعبد تمّ بنـاؤه محـاكاة للكعبة التي سـمعوا عن جلالها واحـترام وتوقـير العـرب لها، لكنّ المعبـد بعد زمن هُجـر، فكنّا نباشر ألعابنـا حـول أعمدة المعبـد وتماثيله، نشـخبط على أحجارهـا، ونزرع

حولها الـورود والأشـجار الصغـيرة، بـل كنّـا نصنـع مـآدب طعـام ونفـترش أرض المعبد ونسـتبيحه بفـوضى بواقي الأطعمـة، وفي يومٍ، رآنـا حـاجٌّ، كان يزور المعبـد مصادفةً، كان ضخمًا مثـل جبل، ووجهه أحمـر مثل شـعاع شـمس حارق، لحَـمَ حاجبيـه، وانفتح فمـه لآخره، ثـم خرج صوتـه أجـوفَ كصدى صـوتٍ، وصرخ:

- ماذا تفعلون؟ تدنّسون أرض «بوذا» أيّها الملاعين الصّغار!

ومـضى يضرب طعامنـا بقدميه في غضـبٍ مسـتفحلٍ، تفرّقنا حوله مفزوعـين، وصعدنا لمـا بعد المعبد، نختبـئ وراء كثبان تـلّ «حُمران».

وتـلّ «حُمـران»، دُفـن فيه الإمام «عـلي»، كرّم الله وجهـه، في أوقات صـلاة العِشـاء، نخـرج مـن بيوتنـا ونصعـد، نتـبرّك بمثـوى الإمام، ونصـلّي هنـاك، وإن كنّـا نصـلّي معظـم الصّلـوات في الجامـع الكبـير المزيّـن بالفسيفسـاء الزّرقـاء الـذي بنته الأمـيرة، تحديـدًا وقت صلاة «الجمعـاء»، يمتلـئ المسـجد بنـا، والتكبـيرات تصـدح في كلّ أرجاء مدينـة «بلخ»، يهتـزّ لها الوجدانُ، تبلغ كَبِد السّـماء، وتنفـذ إلى الأفئدة الضّالـة فتهدهدها، تسـتقيم الصّفوف، ويصرّ أبي أن يشـدّني من يدي لأجـاوره، يـصرّ أكثـر أن يتشـبّث بكـمّ جلبـابي، خشـية أن يجتاحنـي طوفـان المصلّـين فأقع تحـت الأقدام المهرولـة، أو أتوه بـين الصّفوف، تسـتغرقنا الصّـلاة، في الوقـت الذي تخرج فيـه أمّي إلى السّـوق لتبتاع الخـضروات واللّحـومِ ومـؤن البيت.

سـوق مدينتنـا يربـض وسـط الأسـوار والأبـواب العاليـة المطعّمة بالزخـارف، التـي شـيّدها «الإسـكندر المقـدوني الأول»، ابـن الملك

«أميتاس الأكبر»، وقد هبط إلى «بلخ» غازيًا، من بلاد «مقدونيا» في «اليونان»، وراعه أنّ مدينتنا تحمل كلّ عناصر الأبّهة والفردوس، بأنهارها؛ التي تتخلّل أرضها بامتداد الشّوارع، وأشجارها، وأبنيتها، وخيراتها، فأقام المُدن والمراكز التّجاريّة الكُبرى، بنيّة أن يُدام له المُلك على أرضها، وتكون «بلخ» جزءًا من مملكته الشّاسعة، وأسماها «إسكندريّة» نسبة إليه، وضرب حولها الأسوار والقلاع الحصينة والأبواب الضّخمة، ورمّم معابدها وحصونها القديمة، واستقرّ في قلعةٍ من قلاعها لأكثرِ من عشرِ سنوات، وقد حوّلها لمركز تجاري يفد إليه التّجار من كلّ حدبٍ وصوب، إضافة للقصور التي بدأت تنتشر في أرجاء «بلخ» إثر رواج حركة التّجارة والتصدير، وكانت أهم أسواق المدينة سوق النّسيج والأقمشة والسجّاد، إذ اشتُهرت «بلخ» بالأنسجة الممتازة عالية الجودة.

في نهار «الجمعاء» تخرج أمّي إلى السّوق، تستكمل شراءمستلزمات وجبة الغداء الكُبرى، إذ أنّ وجبة الغداء الرئيسية في مدينتنا في يوم «الجمعاء»، حيث تضمن النّساء أنّ رجالهنّ سيعودون ليشاركوهنّ بقيّة اليوم بالكامل، يجلسون معهنّ أرضًا، ويتناولون الطّعام، حيث معظمهم يقضي بقيّة الأسبوع يتاجر في البلاد المجاورة، أو ينشغل في محلّه منذ طلعة الصّباح.

في أحد أيّام «الجمعاء»، غاب أبي في سفرٍ، ولم يكن قد غاب يومًا كهذا من ذي قبل، خرج يحاضر في مدرسةٍ في «مرو»، وانقضت

«الجمعـاء» الأولى ولم يأتِنـا منه خبرٌ، ثمّ جاءت «الجمعـاء» الثّانية، ففُزعـت أمّـي، وبـدا توجّسـت الخطـر، وكنّـا جالسـين حـول موقد الفخّـار الـذي يطهـو الطّعـام واللّحـم، سرحـت أمّـي عنّـا، وكانت تتنصّـت لصـوتِ الرّيح ومطرٌ حـول البيتِ يـزخّ، كانت خيـوطُ الماء تتدفّـق مـن بطن السـقيفة، ونهضت وجلسـت، وخرجـت ودخلت، وكانـت في أشـدّ حالات قلقها ورعبها، وهمسـت كأنّها تكلّم نفسـها:

- المطـر خطـر عـلى قبـورِ المدينـة، المطـر كـما يجلـب الخـير يطلـب المـوت أيضًـا.

لكنّي سألتها في لوعةٍ:

- هل سنموت يا أمّي؟

- ليس للموتِ موعدٌ يا بُنيّ.

- وهل مات أبي؟

فبـدا انقبـض قلبهـا، وحدجتنـي بنظـرةٍ معاتبـةٍ، وهمهمـت وهـي تفـركـ كفيّها:

- كيـف يمـوتُ وهـو بعيـدٌ عنّـا؟ كيـف يقـومُ عنـد الآخـرة مـن دونـنـا؟

ولكـنّ أبي عـاد في «الجمعـاء» الثّالثة، وجد أمّي قـد أعدّت صنوف الطّعام الشـهيّة، أفـراخ حمام أو إوز، ولحم ضأن، وسـمك «الكارب» صلد الحراشـيف الـذي كنّا نصطاده أحيانًا أنـا وأبي من النّهر.

ولم نكن نخرج إلى النّهر أنا وأبي إلّا حين نتشوّق إلى سمك

«الكارب» ونشتهيه، كان يحدث ذلك مرّة كلّ بضعةِ أشهر في الغالب، وكان معظم رجال المدينة يرابضون على ضفاف الأقنية ويدخلون إلى المستنقعات المائية لصيد هذه السّمكة، لكن أبي كان يحلو له أن يجلس على ضفّة النّهر الكبير، كان يجازف في ضياعٍ مزيدٍ من الوقت مقابل لذّة انتظار الصّيد، يقول لي:

- هذا النّوع من السّمك يلجأ للمياه الراكدة بطيئة الجريان، فلا تقلق، سنجدها تحت أقدامنا.

يبلغ طول هذه السّمكة حوالي ثلاثة أقدام، ووزنها ثلاثون رطلًا، ولها جسم عضليّ مسطّح، لذا؛ كنّا نعاني في حملها من النّهر إلى البيت، نضع الأسماك فوق عربّة جرّ خشبيّة واطئة، وندفعها طالعين التبّة المؤدّية للطّريق، وفي الغالب كنّا نصطاد ما بين ثلاث أو خمس سمكات في كلّ مرّة، وكثيرًا ما كان يحسدنا الآخرون، لكنّ بعضهم يقولون إنّ أبي مُبارَكٌ وفيه سرّ من أسرار الله.

كان أبي يقول دومًا:

- الطيّب ما يُسِّرَ للإنسان دونما حيلة، لا يستطيع رجل أن يصيد أكثر من سمكتين في الطلعة الواحدة من الأقنية والمستنقعات.

كانت أمّي تردّ عليه:

- إنّما تكدّ وتُجهَد لأجل الطّيبات يا سلطان العارفين، وكلّه بفضل الله.

فيبتسم ابتسامته الواسعة ويربّت على رأس أمّي، ثمّ يلثّمها على جبينها.

«مؤمنـة خاتـون»؛ أمّي، بنـت خوارزم شـاه «علاء الدّيـن محمّد»، تُعـرف في مدينتنـا بـأمّ الأولاد، إذ أنّهـا كانت تعتبر جميـع أولاد المدينة أبناءهـا، يأتوننـا في كلّ الأوقـات، حتّـى أوقـات الظّهـيرة التي يكون فيهـا أبي نائـمًا، أو جالسًـا في مكتبتِـه يتصفّـح ويسـتزيد، يتحلّقـون حولهـا، تحكـي لهم عن أمجـاد «بلخ»، وكيـف أنّها أمّ المُـدن، وأعظمها عـلى مـرّ التّاريخ، وكـمّ من غازٍ حـطّ عليهـا، وإنّما اسـتطاعت بجَهد ومعافـرة أبنائهـا أن تنجو عبر الأزمنة، اسـتعمارًا بعد اسـتعمار، وغزوًا بعـد غزو، تحكي لهـم عن عرائس البحـر ولآلِيء المُحيطـات ومراكب الشّـمس وبيـوت القمر ومدافـن الجـنّ، ينجـذب الأولاد لحكاياتها، يردّدونهـا فيـما بينهـم، ويومًـا بعـد يـوم تسـتوطن الحكايـات أفئـدة الأولاد، فينضجـون بحكايـات أمّـي، يعرفـون آثار المدينة عـبر أمّي، تقـول لهـم إنّ المعابـد والقصـور والمسـاجد والأنهـار والأشـجار هبة مـن الله، اختـصّ بها «بلـخ»، ثـم تسـتدير إليّ تقول:

- وهذا «محمّد» سيكون هبة الله الأكبر للمدينة.

بالطبـع كان يضحـك الأولاد ويتغامـزون، فهـي تؤمـن بي أكثـر ممّا تؤمـن بـشيء آخر على وجـه الأرض، بل تؤمـن أنّ «المسيخ الدجّال» سـيُولد في «بلـخ»، ومنهـا سـينتشر في ربـوع الأرض مُفسِـدًا، لكنّها تؤمـن أكثـر أنّـه سـيُقتل في «بلخ»، عـلى يدي.

كانـت؛ وهـي تحمّمنـي في مهبِـط المـاء المربّـع، المبلّـط مـن الدّاخل بالإسـمنت، ويدهـا تشـطّف ظهـري وكتفـيّ، تقـول:

- سـأجهّزك يـا ولـدي لمبـارزة «المسيخ الدجّـال»، سـتقضي عليه

بالحكمـة قبـل السّـيف، وبالحجّة قبـل الدّم، سـيؤازره جيشٌ عظيم، وسـيناوئه جيشٌ أعظـم، هو جيشـك يـا ابن «بهـاء الدّين»، سـترى النّـاس يلتفّـون حولـك، ويؤمنـون بـك، سـتحرّكهم بـإرادة إلهيـة، سـينهزم أمامـك «المسيخ» ولكـن بعـد إيمان راسـخٍ.

أقول لها:

– قال لي أبي أنّ «المسيح» هو من سيهزم «المسيخ»..!

– «المسـيح» رمـز للسّـلام يـا ولـدي لا النبـوّة، افهـم، مـن يُمكنه الجـزم بأنّـه سـيهبط مـن السّـماء مـرّة أخرى؟

وكثـيرًا مـا كانـت تتسـلّل في هـدأة اللّيـل، تصعـد إلى سـطح بيتنا، تُمـارس اسـتغفارها ودعاءهـا، تتلفّح بالسّـكينة والاطمئنـان، وتدور مُطلقـةً البخـور الأفغاني في كلّ أركان السّـطح، تبدو كمن يسـتشرف الغـد بقلبٍ وجـلٍ، أصعد معهـا أحيانًا وأراقبها وهـي تتمتم، وكانت لهـا طقـوسٌ في الدّعـاء والابتهـال، تـرشّ أرض السّـطح بـماءٍ من نهر «آمودريـا»، إنّـما قبـل ذلـك، تطمـس في وعـاء الماء نتفـة ثـوبٍ بالٍ، تطرّزهـا بآيـات من القـرآن، وكانـت تقول لي:

– غير مسـموح بقـراءة هذه الآيـات يا «محمّد»، كـي لا يضيع أثرُها المُرام.

تغمُـر أرض السّـطح بالمـاء، ثـم تقـفّ عـلى سـور السّـطح، وترفع رأسـها للسّـماء، ثـم تبـدأ بالدمدمة.

في يوم، رأيتها مفزوعة، كان وجهها محمّرًا، صاحت بي:

– لقد حلّ موعد حربك يا بُنيّ.

سألتها:

– أيّ حربٍ يا أمّي؟

فأجابت:

– الحرب مع نفسك يا بُنيّ.

ثم أضافت:

– لقد رأيت «المسيخ الدّجال» يا «محمّد»، هو قادم، أغمضت عينيّ لوهلة، ورأيته قادمًا من بين سرابات الأفق، خارجًا بعينه الوهّاجة شرًّا، منبذرًا من حشاش «بلخ»، من طينها وترابها، في يده اليُسرى سيف، وفي اليُمنى رأس رجل، حاولت أن أدقّق في ملامح الرّجل، فلم أستوضحها، إنّي خائفة يا ولدي، إذ أنّك المُقاتل الذي سيهزمه.

قلت لها:

– وكيف أيقنتِ يا أمّي أنّ «المسيخ» سيخرج من أرضنا؟

فقالت:

– ألم تسمع حديث أبيك يا ولدي! عَنْ «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: («الدَّجَّالُ» يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا «خُرَاسَانُ»، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ). فهل يكذب رسول الله يا ولدي؟

نكّست رأسي، وأخذت أتابع تأمّلي في ملامح وجه أمّي الجزع،

تُـرى هـل يُمكن أن يُكشـف لهـا ما سـتره الغيب؟

أمّا «المسيخ الدجّال» فكيف لي بمنازلته وهزيمته؟!

يا خوفي أن تكون رأسي تلك التي تتأرجح في يده اليُمنى!

محمّد بن ملك داد التبريزي

تبريز/ إيران - ٥٩٤ هـ

(أنا في ارتقاءٍ مستمرٍ، فانظر إليّ كإنسانٍ متجدّد نضر، وأنت مثلي في هذا، فإذا أحسست بالرّكود وخمول الذّهن فعليك أن تسأل لماذا؟).

تتقدّمني أسرابُ الطّيور التي تحلّق في السّماء وتقودني، أركض خلفها ظنًّا أنّي سأكشف عن موطنها الذي تستقرّ فيه، أصنع لي في كلّ صباحٍ خيالًا وليدًا، وأدع أذني تتتبّع حفيف أوراق الشّجر التي تتساقط عند الخريف، أحبو وراءها على الأرض مُنصتًا، أؤمن أنّ صوت الله ينبع من بطن الأرض، وسأسمعه في يومٍ قريبٍ، أؤمن أنّ عناصر الطبيعة تتضافر لتمنح قلبي في الغدِ عشقًا أعظم من تصوّري.

أقول لأبي:

- أين الله؟

فيقول:

- كيف لابن العاشرة أن يسأل عن الله؟ تعلّم كيف تصلّي في البداية، وقتها ستعرف أنّ الله مُقيم في السّماء.

فأردّ عليه:

- بل مُقيم في قلوب العاشقين.

فيصفّق بكفيّه في حيرة، ويقول:

- ما «تبريز» إلّا أرض المجانين.

❋ ❋ ❋

«تبريز»؛ مدينتي الأولى، أصل عشقي وأصل جنوني، يُقال أنّها قاهرة السّخونة، وطاردة الحُمّى، «تب» تعني «حرارة»، و «ريز» تعني «الطّاردة»، فمن مأثورات تاريخنا أنّ الأميرة «زبيدة بنت

جعفر بن المنصور»، زوجة الخليفة «هارون الرّشيد»، عكفت على إنشاء المدينة عام ٧٩١م، إذ داهمتها حُمّى كادت أن تودي بحياتها، لولا أنّ مُخلصًا من بلاط الخليفة وحاشيته أشار عليه أن ترتحل للأرض الشّافية؛ أرضنا، حيث لازمت الفِراش فترة طويلة من الزّمن، تأكلها الحُمّى، وينال المرض من دواخلِ جسدِها، حتّى كادت تُهلك دون الشّفاء، اتّهمه «هارون الرّشيد» بالجنون، وجاب الأرض شمالها وجنوبها بحثًا عن دواءٍ للعلّة التي تسكن بدن زوجته، دون جدوى، سخّر لها رُسلًا يستكشفون مضارب الأرض، ويجسّون أرجاءها، يسألون ويستعلمون، يجوبون حلقات الأولياء وتكايا الدّراويش، خرجت من القوافل ألف ويزيد، زارها من الأطبّة والمداوين والمكشوف عنهم والمكشوف لهم والسّحرة والغجر وصانعي الأعشاب ألف وأكثر، صلّى لها وصلّى معه كلّ جنوده ورجال البلاط، الجواري والغلمان، حتّى الخصيان الذين لا يُستجاب لهم دعاءٌ ولا تُقبل لهم صلاة، دون طائل. في النّهاية لم يجد بُدًا إلّا أن يُذعن لمشورة رجلِه، لعلّ في أرضنا شفاء بالفعل، ولعلّ نبوءة المُخلص تتحقّق، إذ ليس ثمّة شيء على الله بعيدًا. أعدّ الخليفة قافلة من مائة بعير وناقة، يركبونها مائة عبدٍ وجاريةٍ، لخدمة الأميرة، وسافرت القافلة في دروب وصحاري ووديان، كادت تُهلك غير ذي مرّة، وقابلتها عواصف، وقطع عليها الطّريق لصوص، وهوجمت من البدو والرّحل، حتّى حطّت القافلة في أرض «تبريز»، يُقال أنّها لم تكن مسمّاة آنذاك، مجرّد أرضٍ للشّفاء، يقصدها الزّاهدون والرّحل

للاستشفاء والتبّهل والتورّع، والتبرّك أكثر، من ثمّ يغادرونها كلٌّ إلى حيث ابتغى، كان مناخنا مناخًا استثنائيًا، ونسيمنا آتيًا من منافذ السّماء البِكر، بعد ثلاثة أيّام غادرت الحُمّى جسم الأميرة، بينما قيل أنّ الله أنشأ الكون من أرضنا، بل إنّه عاش فيها قبل أن يصنع السّماء، لذا؛ أقامت الأميرة المدينة وأسمتها «تبريز».

بالطبع ما أُورد في التّاريخ – الذي نعرفه – كان يخالف تلك الأسطورة المزعومة تمامًا، إذ وردت «تبريز» بعينها في نقوش الملك «سرجون الثاني»؛ ملك «آشور» عام ٧١٤ قبل الميلاد، حيث أشار إلى حصن «تارويي -تارمكيس» الميديّ، وقال:

- هذا حصنٌ عظيم البُنيان ذو أراضٍ خصبة وحضارة مزدهرة.

تُشيرُ النقوش أيضًا إلى أنَّ الآشوريّين دكّوا هذا الحصن دكًّا، وعاقروا حدوده وأطرافه بضع سنوات ونيف، وتمكّنوا من فتحه في نهاية المطاف، أمَّا «تبريز» فقد اُختيرت لتكون عاصمةً لعددٍ من الممالك التي قامت في البلاد الإيرانيَّة مُنذ عصر القائد الفارسي «آتورپات»؛ الذي خدم في جيش «الإسكندر الأكبر»، واستمرَّت كذلك طيلة قرون طويلة بعد انقضاء العصور القديمة.

أمّا نحن – أبناء «تبريز» – فلدينا اعتقاد جارف وأصيل بأنّ «جنّة عدن»؛ المذكورة في كتاب الله الكريم وفي توراته، إنّما «تبريز» جزءٌ من أرضها وواحة من واحاتها، تحتضنها الهضبة «الأناضولية» الكُبرى، التي تتفرّع منها الهضبة «الإيرانية»، وعليها تسبح «تبريز» بخضارها ومعالمها الجغرافية، يحدّها سهوب ووديان وجبال وقرى

وآثـار وأنهـار وبحور، يحرسـها من الشّـمال جبال «يكجـين» و «عون بن علي»، ويرمون سـهوبهم وسـفوحهم لتفـرش أرض المدينة، ويقطع أرضَهـا نهـران، نهـر «تلخة» دائـم الجريان، ونسـميه «النّهـر الكريه»، ذلـك أنَّ مياهـه قلويَّـة غير صالحـة للـريّ أو الشّرب ولا جـدوى منها بالنسـبة لنـا، ولعلّ سـبب ملوحـة مياهـه ومرارتهـا يرجـع إلى جريانه عـبر أراضٍ مُنهكة شـديدة التعديـن، ممّا يُشبّع مياهه بمزيـجٍ من تلك المعـادن، وينبـع نهر «تلخـة» مـن السّـفوح الجنوبيَّة لجبل «سـبلان»، ويعـبر السّـهول المجاورة لسـفح جبـل «قوشـة»، ويمرّ عـبر «تبريز» مـن الشّـمال الشرقـي، قبـل أن يتصـل بنهـر «مهـران» في شـمال شرق وسـطها، ويجـري حتّـى يصـبّ في بحـيرة «أروميـة»، ونهـر «مهران» هـو ثاني النّهريـن اللذين يمرّان داخـلِ تلابيبِ مدينة «تبريز»، واسـمه «النّهـر الجـاف»، ذلـك لشـحّ تدفق الميـاه فيه عـن نهر «تلخـة»، كونه نهـرًا موسـميًّا يجـفّ خـلال فصـول الصّيـف شـديدة القيـظ، ويتدفّق خلال مواسـم الشّـتاء كثيفة الأمطـار والثلوج، ينبع نهـر «مهران» من جبل «سـنهد»، ويشـطر «تبريز» إلى قسـمين، شـمالي وجنوبي، شُيّدت عـلى ضفافـه الجسـور كحلقة وصـل بين شـمال المدينـة وجنوبهـا، منه نـشرب ونسـتهلك الماء، وبسـببه – كذلـك – تباغتنا الـزّلازل عامًا من بعـد عام.

يجـيء الزّلزال بغتـة، ليصبّ علينا غضبَـه، لكن – في عـادة – يتجهّز لـه بعضُ أبنـاء المدينة، إذ أنّهـم يزعمون أنّه يضرب في ميقـاتٍ محدّد من كلّ عـامٍ، ولو أنّه كثـيرًا ما خالف مواقيته بلا إنـذار، وضرب في ميقاتٍ

ليس بحسبان رجل، فلم أكن أعرف لمَ يتجهّز الرّجال وينتظرون الزّلزال طالما أنّه مراوغ ولا يستقرّ على موعد!

على أيّة حال بدأت الرؤى تستحوذ على أحلامي منذ أكبر زلزال ضرب «تبريز»، وأُطلق عليه «الزّلزال الكاسح»، لأنّه كاد أن يُهلك أرض «تبريز»، كنت وقتها في العاشرة، وكنّا في حقل من «الزّعفران»، و «الزّعفران» أهمّ منتج زراعي يخرج من أرض «تبريز»، حيث الشّمس دوّامة السّطوع على أرضها، كان الآباء وقتها – وقت الزّلزال الكاسح - يحصدون «الزّعفران»، وكنّا معهم، إذ نزرعه في أواخر الصّيف، ونتركه مدّة شهر لينبت أثناء الخريف.

عندما خرج آباؤنا في الصّباح لحصد «الزّعفران»، لم يكن الزّلزال الكاسح قد كشّر عن أنيابه، ففي بهجة الطّقس المشمس الصافي، وأزهار «الزّعفران» متفتّحة بأكملها، متأهّبة، أخذنا نقتلع مياسيم الأزهار في حذرٍ وحرصٍ، وندسّها في أجولة دافئة كيما تجفّ وتصبح صالحة للتصدير.

أذكر ذلك اليوم البعيد، إذ بدا الأمر كأنّ مغناطيسًا شدّ الأرض من طرفيها، فتقوّست، ثم انتفخ باطن الأرض ما بين الطرفين وتمدّد وبرز وراح يتفسّخ.

اهتزّت الأرض بنا، وماجت، وكنّا نترنّح، فصار بعضنا يهرول يمنة، وبعضنا يسرة، وتخبّطنا، كانت هزّات الأرض تتّسع كأنّها دائرة، فترتجّ بنا، كأنّ أرض «تبريز» حجرٌ أُلقي في ماءٍ راكدٍ، ثم تدافع الماء حول الحجر، هكذا شعُرنا، وبدا أنّها القيامة.

أرض «تبريـز» كانـت ترتفع بنـا إلى فوق، فـوق محيـط كلّ الأراضي المجـاورة، وكنّـا نتسـاقط نحـو الهاويـة، نحـو الشّـقوق التـي صنعهـا الزّلـزال في حصـيرة أرض «تبريـز»، وكانت التفسّـخات تجـري كأفاعٍ تتلـوّى، تقصـف البيوت والأبنيـة، وتنفرج لها حشـايا زروع الأراضي، فضـلًا عـن الحمـم التـي بـدأت تخـرج مـن أحشـاء الأرض، وراحت تُنفـث بُخـارًا ودُخانًـا، فيسـبح أعلانـا على مـدّ البصر.

في تلك اللّيلة لم ينم أحد، الخسائر كانت فادحة.

لعـلّي الوحيـد الذي اسـتبدّ بـه النّـوم، لكنّـي في النّـوم اختُطفت، لا أعـرف مـا الذي جـرى، إنّـما راودتنـي رؤيا عـن جيش عظيـم يقتحم أرض «تبريـز»، ويجـبّ الـرؤوس عـن النّـاس، بسـيوفٍ مـن جحيم، يحرق المدينـة، ويحطّم مبانيها وقصورها ومسـاجدها ومعابدها، جيش جـرّار، لم يـره بشرٌ مـن قبلذاك.

* * *

وفي ليلـةٍ أخـرى رأيتنـي أرتجـف من شـدّة الـبرد، متدثّرًا بغطـاءٍ من صـوف، وبتفكـيري في عوالمـي الموازيـة، ورأيتنـي أتسـلّل مـن تحـت الغِطـاء، وكانـت أصابـع قدمـيّ تتلافيـان صقيـع الأرضيّـة، وقرّرت أن أسـتدفئ بقـراءة صفحـاتٍ من كتابٍ مسـطور عـلى إحـدى أوراقِه اسـمي؛ غـير أنّ عنـوان الكتـاب كان ممحوًّا.

وأناملي ترتعـش تناولت أوراق الكتـاب الحائرة، وفردتهـا أمام عينيّ أطالعها.

ورأيتنـي مأسـورًا بكلـماتي، مسـتلذًّا بهـا، وكنـتُ وأنـا أقـرأ أبتسـم، وأُكمـل القراءة، فتوقّفتُ؛ حسـنًا.. هنـا، في هذا الموضع، عـليّ أن أضع كلمـة ناقصـة، أمممـم، وهنا، حـرف زائـد، و.. و...

بحثـت بعينيّ عن قنّينـة الماء، وكانـت فارغة..! اُضطـررت أن أقطع المسـافة البـاردة مـن الغرفـة للنّافـذة في آخـر الطُّرقـة كيما أجلـب قنّينة أخـرى، ثـم عـدت وتقرفصت مـكاني أسـتكمل كتابي.

وبـدأت أرشـف مـن القنّينة، لكـنّ شـفتيّ توقّفتـا عندما صـار لون الماء أسـود...!

الماء لونه كالحبر....!

أيقن أنّها هلوسات كاتب يبحث عن معنى.

رشفتُ على حذر، الطعم طعم ماء، إنّما اللّون..!

هل أكترث؟

لم يتغـيّر لـون الماء، غـير أنّي، ومع كلّ رشـفة، كانت الحـروف تتطاير وتتلاشـى أمام عينيّ.

استغرقني جنون اللّحظة، فلم أحاول أن أفهم.

فظللت أرشـف، رشـفة فأخـرى، والحـروف داخـل أوراق الكتاب تتناقـص، مـع كلّ رشـفة، تفرّ كفرار سـحابة مـن دُخان.

لكنّـي في الحلم ضحكتُ ضحكـة رقيعة، غايـة في الرّقاعة والمجون، عندمـا انتهيت مـن شرب كوب المـاء/ الحبر.

وقد صارت الأوراق خاوية بيضاء...!

آه.. تمامًا كذاكرتي الملعونة.

***

وفي حلـمٍ آخـر رأيـت مـلاكًا، جناحـاه يفرشـان المـدى بالضّـوء، وحولـه مجموعة مـن الملائكة الصّغار، كانوا يرتّلـون في صوت متناغم: «والـذي صعـد والـذي لم، نبـيٌّ يقوم نبيٌّ يـؤم، بعثٌ لخلـقٍ لم تُـدَم، إذ يُنـادَى أن اسـتقم، دار العِشـق أم دار السّـقم، عـمّ الهوان بئـس الرّحم، والأرض أوّل مـن رحَم».

ناديـت عـلى المـلاك، فاسـتدار لي، وكان النّـور يشـعّ مـن هالتِـه إلى المُحيـط، قـال بصـوتٍ رخيـم وهـو يصـوّب إصبعـه نحـوي:

– قالـوا أنّـك دفنت الـسّر في قـرار النّهر، وأنّك شـققت بطـن اللّيل فاختفيـت بداخلهـا منـذ ذاك الحين، غـير أنّ نهرهـم قـراره عميق، لن يبلغـه يومًـا بشر، كذلـك اللّيل، بطنـه مظلمة مجهولة مخيفـة، فمن يجرؤ عـلى المجازفـة بالرّحيل إلى هنـاك غيرُك؟ قالـوا أنّ هذا مـا كان في بداية سـنوات الـبرد التـي لم تـزر الشّـمس خلالهـا أرضهم قـط، وفيـما البرد جاثـمًا لم يزل، والشّـمس هاربة لم تزل، أنت الذي سـتغامر وتسـتشرف مجاهل رُوحك، وترحل خلف هواجسـك، فتسـتعيد نفسـك من عتمة العدم وتسـتعيد السّر والشّـمس.

وجدتنـي، في براثـن الحُلـم، وفي براثـن اللّيـل، أخلع دنيـاي، وأُفرج عـن رُوحـي، فتنفلـت، بي تنطلق الـرُّوح، وبهـا آنس.

***

في الحلـمِ؛ رُوحـي كانت تعرف طريقَهـا داخل النّهـر، حتّى في عتمة اللّيـل وعتمـة المصـير، أتركها، فترقـص في أحضـان الميـاه، أختبئ من الـبردِ داخل عبـاءة سـوداء من صـوف، ترتّقني بظـلام اللّيل.

أستنشـق الهـواءَ البـاردَ الـذي ترفرف معـه أذيـالُ العباءة بانسـجام، وأفـرد أعصـابي فتـذوب في صمـت النّهر.

بلغـت جزيـرة؛ نمت في أحضانهـا ليالي وليـالي، ثمّة يقين مـا بداخلي أنّ الـسّر سـيخرج لي في أيّـة لحظة، متزيّنـا، متأهّبًا للفضّ.

كانـت حصيرة مـن أعشـاب تتوسّـط الجزيرة هـي مضجعـي، أفرد جسـدي عليهـا، وأرمـي عينيّ إلى السّـماء، فتأتيني موسـيقى طلسـمية ناعمـة، تنطلـق، فيهـدأ العالم، عالمـي، ويصبح المشـهد عذبًا، متجـرّدًا، تنحـدر الموسـيقى من السّـماء، فأرخـي جفنـيّ، وأروح معها.

ترررراااااا.....................

والأشـياءُ كانـت -كلّ الأشـياءِ- مجـرّد بقايا عـالمٍ غائـم، تتأرجح في الهـواء معـي، ويصـير حُلمـي مفتـاحَ الوصـولِ إلى الـسّر، كـم أود لـو أذوب! كـم أود ألّا أسـتفيق مـن هـذه الغيبوبـة المسـكرة! أنغـام تثـير الخبال.

لم يكـن في الحُلـمِ زمـنٌ، إذ ليلـة وراء ليلة على الجزيـرة، يجتاحني أكثر فأكثـر الإحسـاس بدنو المعرفة، إحسـاس بقرب سـبر اللّغز.

تفاصيـل الجزيرة تتـواءم معي ليلـة وراء ليلة أيضًا، وجوه الأشـجار التـي دائمًا تحمل ابتسـامة لي، تباب الرّمل التي دائمًا تنبسـط حين أسـتند

عليهـا، ثمرات «التّفاح» التي تتقشّر وتناولني نفسـها، صفير كائنات النّهـر الخفية التي تؤانـس وجودي هنا.

ليلةٌ وراء ليلة؛ إلى أن كان البيان.

رأيـت الطّريق ممتدّة، طريقًا من نور باهر يصعد إلى السّـماء، شـهقت، أنفـاسي ظلّت مخطوفة وأنا أسـير داخـل الطريق متّسـع الأعين، وحتّى بلغت آخرها.

كانـت تنتهـي إلى قبّـة معلّقـة في كبد السّـماء، ربّـما بدت لي نجمـة، إذ يشـعّ مـن وراء شـقوق بابها الموصد ضيـاءٌ غـشي عينيّ.

برفـق دفعـت البـاب بيـدي، ودلفـت، كانـت طريـقٌ أخـرى داخل المـكان تصطـفّ عـلى جانبيهـا آلاف الملائكـة، وتتنـاثـر بداخلهـا بقايا أوراق محترقـة، ويسـبح في الهـواء رمـادٌ جعلنـي أُغلـق عينـيّ مـرّات عديـدة، ثـم يظهـر رجلٌ، مـن بـين أجنحـة الملائكة، تتكشـف ملامحه شـيئًا فشـيئًا، وجهه صبوح بهـيّ، وعلى كتفيـه عباءة مـن مرمر، هتفت الملائكـة وهـي تركـع تحـت قدميه:

- مولانا.

ولم يكـن هنـاك داعٍ من الاسـتغراق في الدّهشـة، اقتربتُ منـه، ولكنّه يـزوم ويدفعنـي، بعـدٍ أن يرمقنـي بغضب، ويمـضي إلى آخـر الطّريق، وهـو يتمتم:

- أنا سـيّد الجـلال، سـتعثر طريقانا على ملتقـى، إنّما اسـتعدّ، ووضّأ رُوحك.

وهنـاك؛ في آخـر الطريـق، كان واقفًـا، تعتـلي رأسـه شـمس النّهـار، وتحيطـه بهالة من نورٍ سـاطعٍ، هذا الذي يشـبهني، هل يشـبهني؟ كلا، إنّـه أنـا، بعـد مائة عـامٍ ربّما، أنا نفـسي، الـذي يرتفع مع الشّـمس ببطء عـن الأرض، ثـم أتضخّـم، أتضخّـم، وأحـرق كلّ شيء، حتّى نفسي.

خاطبني الملاك يقول وهو يجذبني من غياهب الدّهشة:

- يا «شمس»..!

أدركته وقلت:

- اسمي «محمّد».

فردّ يقول:

- بل «شمس»، وهذا اختاره لك القدير.

وأشـار بإصبـعٍ مـن ضيـاءٍ قرمـزي إلى يمينِه، فـدُرت بعينـيّ ورأيت جلالته جالسًـا عـلى العرش، له عرضُ سـماواتٍ وعُمـق أراضٍ، بدا لي متكشّـفًا كطاقـة من ضيـاءٍ وانبثقت، لم أميّز حـدوده، بل ميّـزت كُنهه، وبـدت عينـاه شمسـين متألّقتين، لم يفتـح فمه ليخاطبنـي، بل خاطبني بشـعاعٍ من نـور، حفّ عينيّ ثمّ لفّهـما، وأيقنت أنّي مشـمولٌ في كنفٍ لم يَـرِد علٰى بـال رجلٍ مـن ذي قبل، قـال لي الله:

- كُن كما أردتك أن تكون، أنت «شمس»، وشمسي لا تغيب.

وحـاصرني المـلاكُ بجناحيـه، وفي الحلم كنتُ شمسًـا، وكنـت نورًا، وكنت أسـبَق النّاسِ بعشـقٍ يشـعر بك يا الله، ولا يُشـعر به، عشقٌ إلهي شـاهدته وجهًا لوجه، يكتبون عنه، بإحساسـهم البـشري، ولا يكتبون

عنه بوحيٍ من الرّب نفسه.

* * *

استيقظتُ ولم أزل حائرًا، كما لو جيء بي من مدارٍ لمدار، ومن بعثٍ لبعث، محمولًا على صدر الأثيرِ، شعرتُ أنّي قبضت بين خلجات رُوحي على الحدود الفاصلة بين عوالم الأمس، وعوالم الغد، كأنّي استطعت تحريك مجرى الزّمن حسب هواي، بل تشطّفت رُوحي من بقايا أثر نسل «آدم» عليها، شعرتُ أنّي مختارٌ، لأمرٍ سوف يقضي به الله، وسيصبح مفعولًا.

في ألق وحيرة وغبطة أفضت لأبي بما راودني في الحلم، فاستهزأ بي، وقال:

- الله ليست لعبة يلعب معه الصّغار يا «محمّد»، لعلّك تهذي!

- اسمي «شمس».

- احفظ القرآن قبل أن تخرّف.

- سأحفظه منذ اليوم.

- ماذا تريد؟

- أن تصدّقني...!

- يا ولدي، ما حدث هذا الأمر من قبل، فلا تجعلهم يهزؤون بنا.

- لقد قرأت قصّة يا أبي عن دجاجةٍ، رقدت تحتضن عددًا من البيض، فلمّا فقست، لم تنتبه لأيّ فرقٍ بين أفراخها، وفي يومٍ من أيّام الصّيف، اصطحبت أفراخها لتعلّمهم السّباحة، لكنّ أحدَ الأفراخ

ســارع دون أذن أمّه ورمى بنفسِه في الماء، فشرعت الدّجاجة المذعورة بالاســتغاثة واقتربت مــن الماء، فــإذا بالفرخ الصغير يســبح بمهارة غير معروفــة في الدّجــاج، ذلــك أنــه لم يكن من صنــف الدّجاج أصــلًا، بل كان مــن البطّ!

– تخــرج مــن موضــوعٍ لموضوع ومــن حكايــةٍ لحكاية، مالي أنــا ومال حكايات الأطفــال هذه؟

– لأنّ ذلــك هو حــالي بينكم يــا أبي، أنا أبدو مثلكم ظاهــرًا، لكنّي في الحقيقة مُبايــن ومختلف عنكم.

بالطبــع لم يصدّقنــي أحــدٌ، حتّــى الأئمــة ومفــسّرو الأحــلام الذيــن استرســل معهــم أبي في الحديــث عــن الــرؤى التــي راودتني، ســخروا منّــي، وشــاع الأمــر في المدينــة، حــدّ أنّهــم باتــوا ينادوننــي: «شــمس المجنــون».

كلّما مررت بجماعة استبدّ بهم الضحك، وأشاروا إليّ هُزوًا قائلين:

– المجنون..!

تضرّعت إلى الله أن يهديني إلى سبيل، عاقرهم التهكّم نحوي بشــكل أقعــدني في غرفــةٍ في البيــت، لم أعد أخرج، ولم أعد أبــاشر الحياة كالبشر، كنــت أنــصرف إلى أحلامــي ورؤاي، وفي رؤيــا، حــضرني الله وقال لي: شــمسي أكبر من أرضي.

وفي غبشــةِ الفجــر، خرجــت، دون أن يشــعر بي أحــدٌ، لم أحمــل عــلى كتفــي غــير صرّة قــماش فيهــا ثوبــان مــن الصّــوف، ونعل، آثــرت أن

أخـرج عـبر دربٍ غـير مطروقٍ، فـإذا اسـتيقظ أبي، لعلّه يعـزو الأمر إلى أنّي خُسـفت بي الأرض، وسُـخطتُ، بسـبب شـططي مع الله.

أجل؛ كان عليّ – ككلّ مجنونٍ – أن أرتحل.

أجل؛ أرضك واسعة يا معشوقي السّماوي.

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٥ هـ

في هذا النّهارِ، قتلوا مولاي.

قال الرّاوي:

في المشـهد؛ كالعادة، حصـيرةٌ أزليةٌ تحوّم جانحةً فـوق رؤوس النّاسِ بالأعـلى، في المشـهد أفـقٌ وسـماءٌ وغيـم، تثـب مـن مجاهـل أحشـائِهم البيـوتُ كأجنّـةٍ لم تـزل معلّقة بمشـيماتها في الأرحـام، تنسـلخ البيوتُ بانحـدار النّظـر ملفوظـة إلى قيعـان الشّـوارع، لكنّهـا مضبّبـة، يغلّـف وجوهَهـا السّـحابُ الرّمـادي، الأدق؛ يشـوّهها.

في السّـماء هنـاك، التي عند الأفق، لم تكن شـمسٌ، بـل كان ثمّة وهجٌ واهـن كأنّما تشـعر بالخـزي، لونٌ أقرب للـونِ الحسرة؛ أجل هـذا اللّون الباهت.

المشـهد ينحسر، شـيئًا فشـيئًا ينحسر، يتضاءل داخل الأعـين، لتبدو وجـوه البيـوت كأنّهـا ملامـح رجـلٍ عجـوزٍ محدّبـة، أهلكهـا الزّمـن، إذ لم يـترك فوقهـا غـير التجاعيـد المتفسّـخة، وغبـار التّواريـخ المزمنة، والخيبات المتتاليـة، واليأس، والرّضوخ، والذّل والهـوان، لم يترك الزّمن فـوق وجـوه البيـوتِ غـير مشـارف النّهاية الحتميـة، نقصـد – طبعًا- مثـل تلك النّهايات التـي يُمكن أن تفجّر جميع الأحـداث غير المنتَظرة.

فـإذا اقـترب النّظر أكثر، جـاز لنا أن نتأمّل المشـهد، بغـير حميمية ولا انحيـاز ولا تعاطـف بالطّبـع، فالرؤيـة المجـرّدة تدع مسـاحات التفكّر شـاغرة لأكثـر من مجـاز وأكثـر من تأويـل، ثـم أثناء تراجـع العين

رويـدًا، قـد نـرى رجلًا شِـبه عـارٍ، أو ثوبـه تهالك من شـدّة الضرب والجـرّ، مربوطًا في شـجرة في منتصف طريق العابريـن، حوله بشرٌ، مع وضـدّ، بين بين، والصّمت سـيّد المشـهد، هـذا لا يُمكن لنـا أن نتحقّق مـن تفاصيـل الأحـداث، فالـرّواة في أزمنـة القهـر يلتزمـون بالصّمت القسري أيضًا؛ لـو تعرفون.

في المشـهد، إذًا، رجـلٌ شِـبه عـار، وشـجرةٌ يابسـة، وطريـقٌ مزدحمةٌ بالمتفرّجين.

دعونـا من تفنيد المشـهد وتحليلـه، ولنقـترب أكثر بأعيننـا على صدر الرّجـل العـاري، لحظة، لنحـدّد طبيعة المأسـاة قبل أن نـشرُع في مواكبة الأحـداث بمثـل هـذا الشّـكل الفوضـوي، المأسـاة أنّ الجميـع –بـلا استثناء– يتفرّجـون، بعـد قليـلٍ، همهمات تنتـشر، وحنق، واسـتنكار، مـع ذلـك، لا أحـد تطـوّع لـيروي لنا ملابسـات هذا المشـهد، المأسـاة أنّ المشـهد في حـدّ ذاتـه يبـدو عبثيًـا، دون ضابـط ولا رابط، المأسـاة أنّ الـرّاوي نفسـه بـدا أُصيب بخـرس فجائي.

هـل يُمكـن أن تتداخل الحكايـات، بين قديـمٍ وجديد، بينـما الرّاوي يظـلّ جانحًا في الأفق، لا يرسـو؟

لا بـأس؛ فلنتمّـم حكايتنـا مـن حيـث زاويـة النّظـر، أو مـن حيـث يُمكـن لنـا أن نواليكـم بمسـتجدّات الأمـور، الظّاهـر منهـا والباطن، العـين تقترب عـلى صدر الرّجل، الرّجل – كما قلنا – شِـبه عـار، وأمام الحقيقـة يُبـاح العـري كإباحـة التعذيـر في ظـلّ الطـارئ مِـن الظّروف القهرية.

الرّجل يئن، بدا مستسلمًا، لكنّ عينيه دامعتان.

كان يتمتم:

- رأيت الله، حدّثني عنكم، عندما كنت طفلًا رأيت الله، وتصاحبنا، ورأيت ملائكة، رأيت أسرار العالمَين؛ العلوي والسّفلي، ظننت أنّكم رأيتم ما رأيت، ولكنّي سرعان ما أدركت أنّكم لم تروا.

لكنّ جمعًا من الرّجال كانوا يحاوطونه، أحدُهم دنا منه، وبعينيه تسكُن نظرة حاقدة مشحونة، صاح:

- لقد فدح مجونك وخبلك يا «شمس»، جموحك ليس من الإسلام في شيء، أنت درويش فاسق، يملؤك رِجسٌ وكُفر وزندقة.

لا بأس من بعض التّساؤلات الحائرة، كيف كسب «شمس» كلّ هؤلاء الأعداء؟ لا بأس كذلك إن حاولنا -بشكل ما- وضع تصوّرات عن ماهية الدّوافع، توقّعات، وإن كانت عبثية حتّى، جزافية، لكن لنرجئ أمر الدّوافع، المهمّ في هذه اللّحظة أن نتابع، بدقّة، جنوح الحقائق نحو مصادفات قدرية باعثة على الدّهشة والتدبّر، منها -مثلًا- حقيقة أنّ الرّجال بدأت أعدادُهم تزداد، بدؤوا يحوّطون «شمس» في تحفّز، جماعات، كجراد ينجذب للّون الأخضر، في حين أنّ «شمس» كان يسرح - بلا هدى - في مناحي الفراغ، رأسه تدور حوله، وفمه يزوم، مع الأخذ بطبيعة أنّه قد يرى المخبوء من معالم الأشياء، بل إنّ بصيرته تسعى نحو استشعار أعمق تفاصيل الحياة، لعلّه شعر بسخونة أنفاس الرّجال، الذين أخذوا في الاقتراب أكثر فأكثر، وباتت أجسامهم لصيقة بجسمه.

بـدأت الألسـنة تنفـكّ، تهمـس في خفوت شـديد، حـدّ أنّ الـرّاوي المتلصّـص الأخـرس فقَـدَ بعـض التعليقـات أثنـاء إنصاته المتـواري، تعليقـات كان يُمكـن أن يكـون لهـا دورٌ أصيـلٌ وحيـويٌّ في تقـصّي الدّوافـع:

- ما كان لك أن تجنح يا «شمس»!

- إنّ الله أوجب عليك العاقبة.

- بيدِك أهلَكت نفسك يا «شمس».

كانـوا يخاطبونـه، فلـم يـردّ، اكتفـى بـزمّ شـفتيه، ثـم عبـس وجهه، وانعقـد حاجبـاه، واسـتكملت رأسـه دورانهـا بـلا مبـالاة.

- تُب، عُد إلى صحيح الدّين، يجوز أن نعفو عنك.

أشاح بوجهه، فتجرّأ واحد ودكّه في صدره.

- انطق!

خرج عن صمته، صاح في الجميع:

- أين «جلال»؟ رفيقي.

هجـم البعض عليـه، التصـق بالشّـجرة أكثر فأكثـر، وبـدا مفزوعًا، توجّـس مـن تحرّكاتهـم الفائـرة، وإن ظلّ يـردّد نفـس العبارة:

- أين «جلال»؟ رفيقي، هل قتلتموه أيضًا؟

ردّد واحدٌ:

- لو أنّ لنا أن نفهم سرّ عشقكما أنت و «الرّومي»؟

فقال «شمس»:

- وإنّما هو مصيرٌ من قبل لقاءٍ، أبدٌ من قبل البدء، وخلودٌ ليس له أزل.

اقتحم الجمع درويش، وبدا مهتاجًا، صاح فيهم:

- ماذا تفعلون؟ مولاي «شمس»، أنتم حمقى.

هتف أحدهم وهو يزيحه بيده:

- ابتعد يا مخبول، مولاك عصى الله.

- أنتم من تعصونه بقتلكم درويشًا عاشقًا.

- هذا زنديق ماجن، أساء للإسلام.

- بل فاض في عشِقه وأنار عقولكم يا جهلة.

غير أنّ أحدُهم دفعه بقدمه، فبدت على ملامح الدرويش آيات التأسي، لكنّه ارتمى تحت قدميّ «شمس»، وانطلق يصرخ وينتحب، ثم انحنى، تناول من خِرقة بالية كانت تحت قدمي «شمس» كتابًا، رفعه أمام وجوههم، وهتف:

- اقرؤوا قواعد عِشقه، لعلّكم تُدركون!

فصاح «شمس»:

- احرقه، ما عاد ينفعهم.

لكنّهم تكالبوا عليه، وبسيوفهم مضوا يمزّقون جسده، ولم يسلم درويشه، نال طعنات لا بأس بها، في هذا النّهار، اكتسى الأفق بلون الدّم، ورغم خمول «شمس» ودرويشه، إلّا أنّ الرّجال ظلّوا يطعنوهما

بغير اكتفاء ولا اتّزان، كأنّ شهوةً شاطحةً تقود أيديهم.

قلنا قبل ذلك أنّ المشهد – في سرعة جنون ردِّ فعلٍ عاصف – قد ينفجر.

ها هو المشهدُ انفجر؛ فهل من راوٍ؟

جلال الدّين محمّد بلخي

بلخ/ خراسان -٦١٦ هـ

(قلتُ: لن أموتَ قبل أن أعرفك قال: من

يعرفني لا يموت).

النّهـر يجـري ونهـرول خلفـه، أعيننـا ضاربـة فيـما وراء سـطح الماء، نهـرول وتـدوس أقدامنـا عـلى الطّـين، نراعـي ألّا نحـطّ على شـواهد القبـور التـي تمتـدّ عـلى جـزءٍ طويلٍ مـن الضفّـة، تتحـرّك أقدمنـا مثل حلـزون، ونبسـمل ونقـرأ الفاتحـة في سرّنـا ونلقـي التحيّـة والسّـلام، والرّيـح تصفّـر داخل آذاننا كلّـما نركض، كلّ هذا كـي ندنو من «قوس قزح» البعيد المُرتسـم أمـام أعيننا زاهيًـا، وكلّما اقتربنـا ازداد بُعدًا، خيّل لي أنّي يُمكننـي أن ألمسـه بيـدي، بـل يُمكننـي أنّ أغيّر لـون جِلدي عبر ألوانـه، سـمعت أبي مـن قبـل يقـول أنّ الـذي يؤمـن بالـشيء ينالـه، وأنّـك إن آمنت أنّك فراشـة سـتطير، وإن آمنت أنّك سـمكة ستسـبح وتغـوص، ولـو آمنت أنّك مارد سـتخرج من حشـايا النّهـر أثناء ظلمة اللّيـل لتبلـغ قامتك سـدّة السّـماء، وسـمعته يقـول أنّ الذي يمـرّر يدَه عـبر «قـوس قـزح» ستسـكنه الألـوان، وسيسـتطيع التحكّـم في ألوان جسـمه، لـو شـاء كان أخـضر، ولو شـاء يصبـح أحمـر، ولو شـاء لمنح النّهـار لـون الجمـوح، واللّيـل لون الحلـمِ، لـذا؛ لم أتوقّف عـن الجري ظنّـي سـألحق بـه، أطاله قبـل أن يندثـر بمغيب الشّـمس.

كنـت أركـض، ويركض الأولاد مـن خلفي، كنت أسـبقهم بحماسٍ ولّـده الشّـغف والإيـمان والطّمـوح، وانكفـأت عـلى وجهـي وقمت، وتعثّـرت في الطّين واسـتكملت، و «قوس قزح» يبتعـد، لا يصغُر ولا يكـبُر، فقـط يبتعد، بـدا ثابتًا كنقـشٍ على لوحةِ السّـماء، ظللنـا نجري، ونجـري، حتّـى انـصرم النّهـار، وهَـوَت الشّـمس وراء كاهـل الجبـلِ البعيـد مُرهقة مـن طيلة نوبـةِ حراسـتها لأرضنا عـبر النّهار.

بعد هذا النّهار، لم أر «قوس قزح» ثانية، وأمست جميع الألوان

في عينـيّ بدرجـةِ الضبـاب، إذ طـارت إلينـا أنبـاء اجتيـاح «ترمذ»، واضطررنـا للرّحيل.

لقـد تنبـأت أمّـي وقالـت أنّ «المسـيخ الدجّال» قـادمٌ تلفظه أحشـاء مدينتنـا، لم تسـتشرف أنّ «المسـيخ» في حدّ ذاتـه تمثّل لآلافٍ مـن الجُندِ، حيث كان جيش «التتار» قد اقتحم مدينة «ترمذ» شـمال مدينتنا، قتلوا قرابـة عـشرة آلاف رجل، وانتهكوا مسـاجد المدينـة، وآثارهـا، دخلوا البيـوت، وأخـذوا يغتصبون النّسـاء أمـام أعين رجالهنّ، ثـم يربطوهنّ في حبـال جماعات جماعات، لينضممنّ لسـبايا جيـش «جنكيز خان»، بلـغ بهم الحـدّ اغتصاب الأولاد الفتيـان، كنّا نعـرف أنّ «التتار» جيشٌ ليـس بـه رحمـةٌ ولا رفـق، وإنّـما لم نكـن نعـرف أنّ الأمر قد يصـل لهذا الحـدّ الفـادح مـن المجـون، وأنّ «ترمـذ» تعرضّت لمجـزرة لم تكن من ذي قبل.

يـومُ المجـزرةِ يومٌ مشـهود؛ سـيدّونه تاريخ العـالم فيما بعد، وسـيظلّ شرخًـا داميًا في جبهـة الوطن.

الشّـيطانُ بنفسِـه يعبث في مصائرِ النّاس، صباحُ عادي، ككلِّ صباح، الجميـع يبدؤون يومهم بقـراءة القـرآن ورشّ الأرض وإحراق البخور، الجميـع يذهبـون إلى المسـاجد والكنائـس والمعابـد، يُبـاشرون طقوس يومهـم ككلّ يـومٍ دونما حـذرٍ من الغد.

ثمّ ولا كأنّها القيامة.

كانـت الشّـمسُ متثائبةً كما لو أنّهـا عقِبَ نومٍ عميق، ثم بـدأ كلّ شيء يتـوالى بترتيـب مأسـاوي، دخل المغـول أرضَ «ترمـذ»، ودنـوا العُمق

المدينـة، بخيولهـم وقوّاتهـم ومنجنيقهـم ورماحهـم، وبدأت تتسـاقط الأجسـاد، ويسـقط الإدراك، والمغـول يُطيحـون في الجميـع بـدمٍّ بارد، عددُهـم لم يكـن مَحـلّ إحصاء، فالعدد نسـبي جوار هيبة الـدّم، عددهم لم يمنـع «إبليـس» مِن اللّهو ذلـك النّهار، كان يتراقص فـوق الرؤوس، وداخـل الجثث.

يـوم المذبحـة بالطبـع كان مشـهودًا، في بلادنـا الآمنة لم تحـدث مجزرةٌ بهذا الشّـكل قبـل ذلـك التّاريخ.

انتهتِ المذبحة، ولم يَنتهِ الأسـى، إذ اسـتكمل جيـش التتار زحفه تجاه «بلخ» مـن بعد ذلك.

رابـط جيـش «جنكيـز خـان» أيّامًـا عـلى حـدود «بلـخ»، ناوشَـنَا، فامتلأنـا بالفـزع والخـوف من خطـرٍ داهـم لن يترفّـق بنا ولن يشـفق، خطـر يُمكـن أن يسـحق التّاريـخ نفسـه والحضـارة، أشـعلوا النّيران، وأحاطونـا بسـياجٍ مـن زيـتٍ مشـتعل، وضربـوا المدينـة بالمنجنيـق كمنـاورة، ثـم هـدؤوا، وقضـوا ليلتـين دون هجـومٍ أو ضرب، أقامـوا الخيـام عـلى الحـدود، وانتـشروا بـين غابـات الشّـجر، وكنّـا نسـمع صهيـل الخيـول ونفير الأبواق، وظلّت رؤوسـنا ترسـم آلاف المشـاهد المُحتملـة، ولم يكـن التفـاؤل جزءًا من أيّ مشـهدٍ، وكنّـا نقابل بعضَهم في الأسـواق، بسـيوفهم وأحصنتهم، يطوّفون بيننـا، ووجوههم تُنذرنا بما هو قادم، ويهبطون بالسـياط على أجسـامنا، فنُسرع نُهرول ولا يبقى رجلٌ في السّـوق، اسـتباحوا شوارعنا ومعابدنا، ومسـاجدنا وكنائسنا، كانـوا يتركـون الخيول تنفلـت لتتبـوّل في سـاحات دُور العِبـادة، وبلغ

الأمـر أنّهـم اغتصبـوا امـرأة إمام المسـجد الكبـير، ربّما لجسّ نبضنا، ولكنّنـا كنّـا عجـزة، أُجبرنـا عـلى الصّمـت الحسـير، وماتت المـرأة من شـدّة النزيـف أمـام أعيننـا، ورأينـا الإمـام يبـدو كمجنـونٍ أطـاح بـه الخـرفُ، لـفّ دروب المدينـة من أولها لآخرها يسـتغيث بالسّـماء، مزّق ملابسـه، وبدا غـادر إلى عالم التّيه، ظلّ يـصرخ في كلّ أرجاء المدينة وهو سـائرٌ عـلى قدمين حافيتـين، ثغره لم يكـن ينفـرج إلّا عن هـذه العبارة:

- قتلوها، قتلوها يا جبناء.

رأسُـه صارت مشـدودة شـطر السّـماء على الدّوام، كأنّ خيوطًا خفيةً تسـحبها لأعـلى، نظراتـه الشّـاخصة تحمل مـن الأسـى قـدْرَ البلاهة، ومسـبحة بين أصابعه ترقد، يصفّ لأسـفل حبّاتِها بأناملـه دون تركيز، يجري إلى الأضرحةِ المقامة بامتداد المدينة، يتحسّسـها، يقعد بالسّـاعات جوارهـا، يـروح ويجـيء بأناملـه عـلى السّـترات التـي تغطيها مـن كلِّ الجوانـب، يلملـم أعوادَ السّمسـم اليابسـة مِن فـوق التّراب ويُشـعلها يُدخنهـا وإن كان كثيرًا ما يسـعل فيحمـرّ وجهه.

قلت: هل هذا الذي علّمنا طلاوة القرآن؟

يجلـس عـلى كلّ المقاعد الخشـبية أمـام كلّ البيوت، تلـك التي خلت مـن رجالهـا، كانـت تمتماتـه تطـنُّ داخـل رؤوسـنا بـما يُشـبه الصّـدى، يراقبنـه النّسـاء بأعينهن مِن خلال الأسـطح والنوافـذ، ويتحسّرن على حالـه، وعلى رجالهنّ؛ رجـال المدينة، الذين أصبحـوا في عداد المجهولة مصائرهـم، ويبكـين، يُدرِكـن أنّ بطـشَ التتـار لا حدّ له.

وفي هـذا النّهار، بدا نفيرٌ في رأسِـه يعلو فيلتَهِـم ما اختزله في عقله من

تركيز، بلوثـة وسـأم راح يتلفّـت حوله، ثم رفع رأسَـه نحـو الشّرفات وتبسـم، كأنّـما يـود لو يحكـي شـيئًا، لأيّ أحد، والنسـاء ينظـرن بلوعةٍ إليه.

وفجأة؛ تحسّسـتْ يدَه أسـفل جلبابه الرثّ الممزّق الغارق في الشّـحم والقـذارة، وانتشـلت مَنجلًا بتؤدةٍ، ثـم رفع عينيه ورمـق لفائف الغمام التـي تتمـدّد على فـراش السّـماء فوقـه، وثمّةَ لعاب يسـيل مـن جانب فمِه، ولسـانُه يتـدلّى مـن النّاحية الأخرى، كانت يدُه تتحسّـس أسـفل جلبابـه في لوثـة، ونحن نتحسّـس التّقرحـاتِ التي تركتها سـياط جُند التتار فوق أجسـادنا، كأنّهـا حيّاتٌ تتلوّى صاعدةً لأعـلى نحو الرّقاب.

رفـع سـاعِدَه لأعـلى فلمع نصـل المنجل إذْ سـقط عليه بصيـصٌ مِن ضـوء الشّـمس، حدَّجَـه السّـائرون فزعًـا مبتعديـن، فمـضى يقهقه في يـأسٍ، ويداعـب بالمنجـل شَـعْرَ ذقنِه المتشـعث، بأنـاة، ثم رفـع كاحله وتربّـع عـلى مقعـدٍ، وطفق يُناغي نفسَـه كما الأطفـال، ويُدنـدن بتهكّم مجاذيـبَ لحنًـا لا يُفهم.

شـهقتْ بعض النّسـاء حين انكشـفت سـوأتُه وهو يُريح سـاقيه على مقعـدٍ، فأوغل في نوبة القهقهة كممسـوسٍ حتّى سـقط أرضًـا أو كاد، فانفلـت مِن يده المنجـل وتدحرج، لكنّه التقطـه بسرعة وجعل يحتضنه كأنّـه رضيعُـه، أَخرجَ لسـانَه يغيـظ طيفًا لا يـراه غيرُه، ربّـما طيف أحد المغـول، لم يكـن أحـدٌ يعـرف تحديـدًا، كالطفـل كان، ولكـن ألعابه في الحقيقـة بـدت محيّرة، أين بـات مكانه من هـذا العالم القبيـح؟ اتّخذ ركنًا منزويًـا في ظـلّ كلّ الآخريـن، وأخذ يُعايـن من خلاله عـوالمَ بعيدةً لا

تراها عين، لعلّه أمسى العاقلَ الوحيد في مدينةِ المنكوبين.

قعَدَ لبرهـةٍ يُداعـب لحيتَه في إسـهاب وكانـت عيناه تجـوّلان في كلّ الأنحـاء، ثـم سَـحبَ طـرفَ جلبابِـه لأعـلى وتفحّص فيما بـين فخذيه لوهلـة، مـضى يتمتم تـلاوةً ما، ربّـما لا يفهمها سـواه، وملامحه تسـبح داخـل حدود وجهه بلا مسـتقر أو تعبير، بعدَهـا، أغمض عينيه، ولعلّ دمعـةً ما انفلتت رغم الابتسـامة، دمعة انبجسـت مـن دون درايـة، إنّما فقـط أغمض عينيـه، وفي لحظةٍ شـبْهِ طائشـة، لحظة غير معلومـة البدء وغير ملموسـة التّفاصيل في نسـبية الزمـن – ولعلّها لحظةٌ غاشـمة هو وحده عاشـها أكثـر من مرّة بتفاصيلهـا وأبعادها وتأويلاتهـا وتراكماتها في عقلـه- أتـى بالمحـش على ذَكَـرِه، وفي سرعـة، ودونما تفكـير، جبّه.

ألقـى بعضـوه المبتـور إلى الأرض لتتفجّـر الدمـاءُ مـن قاعدتـه أعلى الخصيتـين غزيـرةً هائجـةً كنافـورةٍ لا سـيطرة عليهـا، وكان مغرقًـا في ضحـكٍ بليـد لا يُبـالي بما أتتـه يداه، سـواء عمـدًا أو سـهوًا، كما لـو أنّه يُعاقـب نفسَـه عـلى إتيـانٍ قهـري ودم استُبيح لم يكـن له ذنـبٌ فيه.

في لوعةٍ أطبق عليه أبي، صرخ:

– هل جُننت يا شيخ؟ هل جُننت؟ ماذا فعلت؟ بالله ماذا فعلت؟

اتّسـعت عيـون النسـوة، تقهقـرن في سرعـةٍ خاطفـة وكاد بعضهـنّ يسـقط عـلى ظهـره وكأنّ دمـاءَه طفرت عـلى أعينهـنّ، بـدت الصّدمة كأنّهـا لجّـة من نـار وجّـت في وجوهِهنّ دفعـةً واحـدة، كانـت أبدانُهنّ تقشـعرّ وهُـنّ يَجُبنَ بأعينِهـنّ كلّ تفاصيل المشـهد، لماذا قُـدّرَ عليهنّ أن يعايـنّ هذا المشـهدَ بهـذه الفجاجـة؟ لم يكن هناك سـوى بحّـةٍ مرتعدة

أطلقهـا، والنّـاس يلتّفـون حولـه في عدم فهـم وفي دهشـة، ولكن لون الـدّم الأحمـر كان قـد أغـرق بالفعـل كلّ حـدود البـصر، انهمـر فـوق الـزّروع الخـضراء وفـوق قمم الأشـجار وكسـا المدى، تشرّبت السـماءُ اللّـونَ فضـاع شـكل النّهار والشّـمس وشـكل الوجـوه ذاتها.

طوّقتـه بجسـدي ورحـت أنهنـه، هـذا فعـل القهـر، فعـل القهـر يـا مـولاي، لم نعُـد رجـالًا.

وأخذتِ النسـاءُ المكلومات بعدَها – والأسـى يسـتقر في أرواحهنّ – يُشرِفـن كعادتهـنّ عـلى العـالم الفسـيح مـن خـلال شرف ضيّقـة وهمّ ثقيـل، أدركـن أنّ ما جرى له قـد يجرى على كلّ الرجال، فاستمسـكتْ بهنّ الحـسرة أكثر.

وظلّ اللّون الأحمر يترقرق في قلب السّماء لزمن.

بعدهـا؛ اقتحـم التتـار حصنًـا مـن حصـون المدينـة الشّـمالية، واسـتعمروه، ثم أرسـل كبيرهم «جنكيز خان» رسـولًا يطلب اجتماعًا مـع حاكـم المدينـة وكبيرهـا.

قـصّ لنـا الأمـير الحاكـم أنّـه دخـل عـلى «جنكيـز خـان» بصحبـة حارسـين، وقف أمامـه طويلًا دون أن ينظر لـه، وكان يأكل ثمرة تفّاح، ويتجشّـأ، ثمّ يشـدّ سـبيّة من سـبايا «ترمذ» فيداعبها أمام عـين أميرنا.

قال الأمير:

– لم يسـتحِ «جنكيـز خـان»، ظللت واقفًـا أمامه مثل عبـدٍ ذليل قرابة السّـاعتين، وانـصرف بـه الأمر أن يطأ ابنـة «ترمذ» أمامـي، مزّق

ملابسـها، ومـرّر أظافـره المسـنونة عـلى نهديهـا فجرحهـما، رأيتهـا تنتحـب، وهي تحاول مسـح الدّمـاء بأناملهـا الرّقيقة، ورأيتـه يباشرها بغـيرِ اتّـزان، مباشرة ثـورٍ هائـج، أو مارد مـن مـردة ألف ليلـة وليلة، بالطبـع مـلأني الغضـب، وكدت أنقـضّ عليـه، لـولا أنّ حارسًـا على يمينـي، وآخـر على يسـاري، فلـمّا انتهى «جنكيـز خان»، لـوّح بإصبعه نحـوي دون أن ينظـر لي وتمتـم:

- أنت حاكم «بلخ»؟

أجبته بأنّي هو الحاكم بهزّة من رأسي، فضحك وقال:

- هه، متى ستسلّمنا مدينتك؟

ثم استدار لي يصيح متحرّزًا:

- أم لك بُغية أخرى؟

أُسـقِط في يـدي، إن قبلـت بعـت «بلـخ» هوانًـا وبخسًـا، وإن أبيت نـزل عـلى رقبتي وخـسرت نفـسي، فتلجّم لسـاني، حينذاك رفع رأسـه ورمقنـي بنظرة آمرة، ارتجفـت، أدركت أنّي هالـكٌ لا محالة، وأصدقكم القـول أنّ هـذا الرّجـل همجـيّ أشـدّ ما تكـون الهمجيّـة، مخبـولٌ، وفي الحالـين هـو يملـك زمـام الأمـر كلّـه، فـإن أراد اجتـاح «بلـخ» مثلما اجتـاح «ترمـذ»، وأحرقها، بـل خشـيت أن يُفعل بأطفالنا ونسـائنا ما جـرى على أهـل «ترمـذ»، لكنّـه - بعد وقـتٍ - بـادرني قائلًا:

- حسنًا يا هذا، أبشر، قد أمنحكم الأمان.

كدت أهبط على يده أقبّلها، الذّل لا يَشعُر به من كان نصلُ السّيف

فـوق عنقه، إذ عتق رقبتي قبـل أن يعتق مدينتي، الأمان مـرّة واحدة، فليكن، إنّما..

أضاف «جنكيز خان»:

- لا بأس، ارحل.

وها أنا لســت أفسّر لمَ استدعاني ولمَ تركني حرًّا طليقًا ولمَ سـيمنحنا الأمان؟

في هذا اليوم، قال أبي لأمّي:

- حسبه يُضمر أمرًا..! هذا الرّجل ماكرٌ.

ردّت أمّي:

- أخشى أنّه يُضمر الشرّ الأفدح ممّا حاق بمدينة «ترمذ».

- ضاعت «بلخ»..!

قالت أمّي:

- لكنّنا لم نضع بعد..!

استفسر أبي بعينيه، فأضافت أمّي:

- لنا مستقرٌّ على أرضٍ أخرى.

- وهل نفرّط في مدينتنا؟

- بل أمر الله نافذٌ، لنا ابنٌ نخاف عليه الهوان أو الموت.

- ولكن....

حاوطته أمّي بعينيها وقالت باستجداء:

- «نيسابور» أرض علمٍ وأمان.. قريبة.. فلنرحل لأجل ابننا.

وفي سديم اللّيل خرجنا، نحمل على أكتافنا ما استطعنا أن نحمله من متاع، كانت مشاعل المدينة تتراقص فوق أسوارها، وكان كثيرون قد قرّروا الرّحيل، وكنّا نغادر -خلسة- في اللّيل عبر باب السّور الجنوبي للمدينة.

ولم نكن قد بلغنا «نيسابور» بعد، حينما ترامت إلينا أنباء مريرة عن دخول «جنكيز خان» إلى «بلخ»، اجتمع بحاكمها وبعلية القوم والقادة يطلب منهم، بعد أن منحهم الأمان، أن يعاونوه بعتادهم وجيشهم وأموالهم في غزو «مرو»، العجيب أنّ الخوف استحكم بحاكم «بلخ»، فأذعن لطلب «جنكيز خان» مرغمًا، وأعدّ رجالًا ومالًا لمعاونة جيش التتار على اجتياح «مرو»؛ المدينة المسلمة المسالِمة، لم يتساءل أحدٌ كيف سيقتلون إخوة لهم قدر ما تصوّروا بشاعة الانتهاكات التي طالت مدينة «ترمذ»، لم يستشرفوا أنّ «جنكيز خان» أراح قوّاته ووفّرها لمعارك أخرى، بل وعبر استخدام «بلخ» لضرب «مرو»، مسلمون يفتكون بمسلمين..!

«مرو» كانت هاجعة، لم تُنذَر ولم تحتسب الغدر، جيش التتار مرهوب وتخشاه جميع مُدن «خوارزم»، ولكن جيش «بلخ» المسلم تورّط، ورطة لن ينجو منها أحدٌ، على رأس جيش التتار خرج ابن «جنكيز خان»، جيش قوامه مئات الألوف من البشر، رغم ذلك؛ أرسل حاكم «بلخ» مبعوثًا سريًّا إلى حاكم «مرو» متسربلًا بالظّلام،

وقـد بلغ مأربـه، كان ذلك قبل وصـول جيش التتار بيومـين، لكن ابن «جنكيـز خـان» بوغـت بوجـود جيشٍ يزيـد عـن مائتي ألـف رجلٍ، كان جيـش «مـرو» رابضًـا عـلى أبوابهـا في انتظـار التتار، اسـتطاع ابن «جنكيـز خـان» أن يؤمّن جيشـه ليومين آخريـن عند حـدود «مرو»، دون أن يترك ثغرة للنّفاذ إليه، وبدا أنّه سـيتراجع تحسّـبًا، لكنّه اسـتطاع بمكـرٍ مغـولي أن يستكشـف ويمحّـص، جنّـد جاسوسًـا وربّـما اثنين، وتناقـل جيش «بلخ»المسـلم بعض الإشـاعات والأنبـاء الكاذبة، منها أنّ جيش التتار سينسـحب حتّى إشـعار آخر، ومنها أنّ المغول أمسـكوا بالرّسـول الخائن، وظلّ حاكم «بلخ» قلقًا، إنّما - في النّهاية - سـقط في الشّرك، واستشـفّ الجاسـوس عن فعلتِـه، فأبلغ ابن «جنكيـز خان»، الـذي - في دهـاءٍ أكـبر- طمـأن حاكـم «بلـخ»، وأشـعره بمسـئولية الجانبـين عـن المعركة، وأنّهـما جانبان متـآزران ومن الجنـون أن يضحّى برجلـه، فأقـرّ حاكـم «بلـخ» بالواقعـة، بوعـد أن يتـمّ الغفـران، وفي الصّبـاح ذبحـه ابن «جنكيـز خان» -ورسـولَه- عـلى أبـواب «مرو»، مـا أوغل الرّعـب والرّهبة أكثـر في قلوب رجـال «مرو».

أثنـاء ذلك، لم نكـن قد قطعنا أبعد مـن بضعةِ أميالٍ جنـوب «بلخ»، كانت الحرارة قاسـية، وكانـت الأسراب النّافقة من طيورٍ تسـقط علينا مـن السّـماء، وأوار الحـرب لم يسـتقرّ، وبضـعُ رجالٍ متفرّقـين يقابلوننا يوالوننا بالأخبـار، ومن ثمّ يسـتكملون فرارهم.

اسـتغلّ ابـن «جنكيز خان» اللّغـط والتفكّك اللّذيـن دارا في صفوف جيش مسـلمي «مرو» لصالحِـه، وفي غفلةٍ هجم عليهـم عند حلول

المسـاء، اقتتلوا، وانهمـرت الرّماحُ والسّـهامُ مـن كلّ اتّجاه على جيش «مـرو»، الغريب أنّ مسـلمي «بلخ» ضلعوا في ذبح مسـلمي «مرو»، والأغـرب أنّهـم لم يَسـلَموا، فسرعـان مـا انـصرف إليهـم جُنـد التتـار يذبحونهـم بدورهـم، إذ انتهى دورهم في المعركة عند هـذا الحدّ، انطلق التتـار يذبحـون بـلا رادعٍ ولا اكتفـاء، فقُتـل معظـم جيـش «بلـخ»، وجيـش «مـرو» الرّابض بأبـواب المدينـة، ونُهبت الدّواب والأسـلحة والغنائـم مـن الجيـش، ولم يكن جيـش التتار يعـرف الهزيمـة، وإن ثابر جيـش «مرو» واستبسـل.

تخيَّلـوا رجالًا يواجهـون غازيًا وهم يؤمنون أنّ هـذا الغازي لا يُقهر؛ كيف يكـون احترازهم عن الأمر؟ وكيف تكـون احتياطاتهم؟

نالت الهزيمـةُ الدّاميةُ من جيش «مرو»، وفُتحت الطّريق سـالكة إلى مدينـة «مرو» ذات الأسـوار الضّخمة العظيمة؛ وكان بها من السّـكان ما يزيد على سـبعمائة ألفِ مسـلمٍ من الرّجال والنّسـاء والأطفال.

انتـصر التتـار وحـاصروا «مـرو»، وقـد دبَّ الفـزع في قلـوب أهلها بعـد أن فنيَ جيشـهم أمام أعينهـم، لم يفتحوا الأبواب للتتـار مدَّة أربعة أيّـام متتاليـة، وفي اليـوم الخامس أرسـل قائد جيش التتـار ابن «جنكيز خـان» رسـالة إلى قائـد مدينـة «مرو» يقـول فيهـا: لا تُهلـك نفسـك وأهـل البلـد، واخـرج إلينا نجعلـك أمير هـذه البلـدة، ونرحل عنك.

صدَّق أمير البلاد ما أرسـله زعيم التتار، لعلّه أوهم نفسـه بالتصديق وأراد أن ينجو بالمدينة، فخرج إلى قائد التتار، اسـتقبله قائد التتار

استقبالًا حميمًا مُداهنًا، بل احترمه وقرَّبه منه، ثم قال له في خبث:

- أخـرِج لي أصحابـك ومقرَّبيـك ورؤسـاء القـوم حتّى ننظـر فيمَنْ يصلـح لخدمتنـا، فنُعطيـه العطايـا، ونقطـع لـه الإقطاعيـات، ويكون معنا .

خُـدع الأمـير، قـسرًا أو بإرادتـه، لم يكـن أحـدٌ ليعـرف، إنّـما اجتمع بمعاونيـه ووزرائـه وجنوده، وفوجئـوا جميعهم بأنّ ابـن «جنكيز خان» يقتحـم عليهم الاجتماع، بتدبـير من الأمير، كان تدبيرًا وقائيًا لم تُحسـب نتائجـه، ضربت البلبلة متـن الاجتـماع، وكاد ينفضّ ويتفـرّق الجميع، لـو لا أنّ ابـن «جنكيز خان» أحاطهم بحرّاسـه، غلّلوهم وتمكّنوا منهم، صفّدوهم في سلاسـل وجنازيـر، وقيّدوهم بالحبال.

وقـف ابـن «جنكيـز خـان» في طلعة هـذا النّهار وسـط قلـب مدينة «مـرو» مزهـوًا، تهامـس النّـاس، أدركـوا أنّهـم أُهلِكوا، وجنـود التتار اسـتحوذوا عـلى المدينـة، ثمّ بدأ ابـن «جنكيز خـان» يطـرد الرّجال من المدينـة، عـدا كِبار التّجـار النّافذين أصحاب المال، وأصحـاب الحِرف، وعـدا النّسـاء اللـواتي انضممـنّ لسبايا المعركـة، خـرج الرّجـال هذا النّهـار مـن أبـواب مدينـة «مرو» وقـد اقتُلعـت عزّتهم، لكـن – وقبل أن يتجـاوزا أبـواب « مـرو»- حشرهم جيـش التتـار، وقبضوا عليهم جماعـات، وأعادوهم لقلـب المدينة.

في قلـب المدينـة، جلـس ابـن «جنكيز خـان» على كرسي مـن ذهب، كانـت عينـاه تروحـان وتجيئان وتسرحـان على نـاس المدينـة، أدرك أنّه

ظافرٌ حقيقي، فأمر جنوده – ليؤكّد ظفره – هاتفًا:

– سلسلوا أمير المدينة ووزراءها وكبار قادتها.

صفّهم أمام أعين النّاس، ثمّ هبطت السّيوف على رؤوسهم تشجّها، وعلى رقابهم تنحرها، ثمّ أرسل بالصنّاع وأصحاب الحِرف إلى «منغوليا»، في قافلة خرجت مساء ذلك اليوم.

في صباح اليوم التّالي، هتكوا حرمة الموتى، نبش جيش التتار قبر السّلطان «سنجر» بحثًا عن الذّهب والمال، هشّموا جدران الضّريح، ولم يجدوا شيئًا، فأصرّ ابن «جنكيز» أن يواقع سبيّة داخل الضّريح، اعترض واحدٌ من جنودِه، لكنّه في لمح البّصر اقتلع رأسَه بالسّيف، وأجبر السبيّة على خلع ملابسها، وضاجعها، أثناء هذا؛ ظلّ يقهقه في جنونٍ.

ثم اقتحموا البيوت واستنزفوها، أخرجوا الأموال والنفائس، ولمّا انتهى جيش التتار، أمر ابن «جنكيز خان» أن يُقتل كلّ أهل المدينة، أن تُباد عن بكرة أبيها.

قال متذرّعًا:

– إن المدينة عَصت علينا وقاومت، ومَنْ قاوم فهذا مصيره.

منذ هذا التّاريخ؛ لم يعُد يُذكر اسم «مرو»، حيث ذُبح سبعمائة ألف رجلٍ وامرأة وطفل، أُبيدت مدينة، ولم تقم عبر التّاريخ ثانية.

كنّا نستأنف الطّريق إلى «نيسابور»، وكان ينتظرنا جحيمٌ آخر.

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة -٥٩٧ هـ

(خلاصةُ جميع وصايا الأنبياء: ابحث عن مرآة لنفسك، وما المرآة إلاّ الله).

يـا الله، يـا حامـل رؤيـاي، ويا مُنتهـى كلّ عبـثٍ دنيوي، عـامٌ يمضي وراء عـام، وعشـقُك في خلاياي يجـري بجريان الـدّم، ويغذّيني، كيف أصـبر مختزنًا كلّ هذا الشّـوق؟ نراك عبر أنفسـنا، فإن كنّـا خطأة آثمين، فسنخشـاك، ومـا أبعـدك عن ذلـك يا رحـوم، وإنّـما أنت أصـلُ الحبّ والمغفـرة، أصـلُ الرّحمة والعِشـق، وكلّنـا مرحومين بك، ولـك يا الله.

طريقـي إلى الحقيقة صنعها فؤادي، غاب عقلي وترك فؤادي مُرشـدًا، فاهتديت، سـنعرفك يا الله إن أدركنا قدرة أنفسـنا على اسـتنباط مجاهل الغيـب، عرشُـك قلبـي، وإذ رأيتـك، لم يعُد جسـدي صالحًا للعِشـق، إني استُهلِكت بالتّـمام، وباتـت رُوحـي محلّقة إليـك، فلا تخـذل رُوحًا عاشـقة يا الله.

كُن معي أينما حللت، وأينما حطّت رحلتي.

خرجـت من داري قاصدًا مسـتقرًّا آمنًا، إنّ المجنـون لم يعُد له موضعٌ في قلـوب هـؤلاء، ظلّـت تُخالجنـي الـرؤى، واسـتقرّيت ببدايـة طوافي في بلـدة مجـاورةٍ لمدينتي، اشـتغلت نجّـارًا للّحـود، في حانـوتٍ بجوار إسـطبل خيول، تأتينـي روائح الخيل عـلى هوىً في نفـسي، وكنت دومًا ما أرى الصّباح وسـيمًا حـين يطرق باب عينيّ ويسـتأذنني في الدّخول، إذ أنّي أنيـس النّـور، إنّـما ما بدا منه أثنـاء الرؤى التي لم تغـب، بدا مبهمًا، وهـو يعـبر عتبة روحـي، وينبئني بأنّـه ما جـاء إلا ليُنهي عبـث حياتي، لم أفهـم، وحضرتنـي رؤيـا كأنّـما أخاطـب نعـشي، ولم أكن وجـلًا ولا مسـتغربًا، بل كنـت أخاطبه كأنّـه صديقي:

- أشكرك نعشي، كونك كنت مشفقًا على جسدي المثخن بالدّهشة، ورأسي المهورة بالألغاز، وأنت تمضي بي فوق الأيادي تحملك دعوات الأحبّة، الذين يعرفونني، والذين بصراحة لا يهمهم أن يعرفوا عنّي غير الرّحيل.

ساعة جئت أيها الصّباح لم أتكهن أنّني بيدي أعدّ نعشي، أليس كذلك ؟

رأيتني في الحُلم ميّتًا ومسجّى أرقد في بطنِ صندوقٍ..!

لكنّي ظللت مع كلّ صباحٍ أهذّب النعوش لأصحابها، وأفرغ في إتمامها، على أحسن ما يكونٌ، زهدي في الحياة، ولعلّ النّاس الذين يرهبون مشهد اللّحود المسنودة على جدار الحانوت، رافعة وجوهها لأعلى تنتظر نداء السّماء، لا يدركون أنّ الحانوتي مثله مثلهم، لا ينقص من آدميته كونه معاونًا لـ «عزرائيل»، فيما يمارس مثلهم تمامًا كلّ قسوة ما يدور، إنّما كلّ ما هنالك أنه يتكسّب من إخفاء خطايا الموتى عن عيونهم، وأن يودعهم مثواهم المحتّم مزيّنين جاهزين لعاقبة المصير.

لعلّهم وهم يعبرون أمام الحانوت، بل بعضهم يفضل مرور الشّارع إلى الناحية الأخرى، وتتّسع أعينهم بهلع، وهم يرمقونني، وأنا أصنع اللّحود الخشبية وأزيّن جوانبها بآيات القرآن، لا يعي أحد فيهم، نظرتي هذه التي تدعوه لأن يبتسم في وجهي، إذ إنّي أفتقد هذه الابتسامة منهم.

وفي اللّيـل؛ تجتاحنـي الـرؤى، كلّهـا عبارة عن مشـاهد مـوتي، بأكثر من صـورةٍ.

ورأيت «عزرائيل».

❋ ❋ ❋

رهبـة الظّـلام المحيطـة، وأصوات الخلـق الهـادرة التي أسـمعها من الخـارج، وهـو واقـف أمـام بـصري يملمـل جناحيـه السّـوداويين في ضجـر، أشـياء، لم تكـن لتمنعنـي من إنشـاد الشّـعر.

- اخلص.

- لا داعي للعجلة يا سيّد الموت.

❋ ❋ ❋

أفقـت من هذه الرؤيا وجسـدي مغمـورٌ بالعرق، مـن ذي قبل رأيت الله، ورأيت ملائكـة، واليوم أرى «عزرائيل»!

لم يكن الإسـطبل الذي أسـكن بجوارِه بعيدًا، لكن مـا أغربها الخيول هـذا المسـاء! بـدت تحمحم قريبًـا منّي، حمحمـة حزينة، لم أكـن أنام من قبـل إلّا عـلى أصواتهـا التي تؤانسـني، اللّيلـة، أصوات الخيـول تأتيني كأنّهـا مـن حلمٍ بعيـد، نمت على مجيئه وعشـته كثيرًا من قبـل في خيالي، لعلّني أيضًا عشـته بشيء من الغمـوض في واقعي، وشيء من القسـوة، أصواتهـا حلم، وأصواتهـم حلم، الأصوات هذه كلّهـا، عندما تتداخل في بعضهـا البعض، تشـوّش على صـوت الخيول المحبّـب، ولا يعود لي قـدرة على تمييزها، فأُصاب بالخبـل، وأدرك، أن حمحمة الخيول، القريبة

الواضحـة، تبتعـد الآن، وتروح، شـيئًا فشـيئًا، تـروح، أدرك أنّي حتمًا سـأروح ،كما هـي تمامًـا تروح.

وجـب أن أتبـع صـوت الخيـول إذًا مهـما بـدا الأمـر جانحًـا، لكنّـي أرجـأت الأمـر.

* * *

في اللّيلـة التّاليـة، أُغرِقـت في الحلـمِ، ورأيتنـي في صحـراء، ورأيتني فاقـد هويتـي، وكان حـولي جمـعٌ مـن الرّجـال، وكان لكلّ رجـلٍ فيهم في الصّحـراء فكـرة مغايـرة عـن النجاة، بـدا اختُطفنـا، أو تـمّ تنويمنا، أو ربّـما استفقنا، لم يكـن أحـدٌ يعلـم عـلى وجـه التحديـد، لـذا، أُطلق الخيـال، فتباينـت التأويلات، بين مُضحـكٍ، وأكثر إضحـاكًا، لكنّي في الحلـمِ قلت:

- لعلّ ما عشناه في الأصل من حياةٍ مجرّد حلمٍ لطيف..!

- ليس ألطف منك.

فضحكـوا، وظللـت وحـدي في الحلـمِ أتأمّـل في ضياعنـا، محـاولًا وضـع تصـوّرات عـن سـبيلٍ للنجـاة.

تحلّقنـا النّـار، افتعال الأمـل أجدى، وثرثرنـا كثيرًا، بل خدرنا نسـيم الصّحـراء غـير المعهـود، فبُحنـا بالـذي لا يُمكـن البوح به عـلى أرض الواقـع، وراحـت نـزوات كلّ رجـل تُكتشـف مـن تلقاء نفسـها، ففي الوقـت الـذي كنّا نتصيّد طـيرًا نافقًا، أو زاحفًا جنح، مـن أجل أن نتمّم وسـائل الحيـاة في مثل هـذه الصّحراء القاحلـة، كان أحدُنـا — مثلًا—

يُعـاشر آخـر خلـف تبّـة رمـل، كنّـا نسـمع الأصـوات، وقـدر مـا استسـلم بعضُنـا لفكرة الفقـد، فعاقر الواقـع المُعاش، قـدر ما حاولت أن أتمـرّد، لإيجـاد حـلّ منطقي.

قُلت:

- فلنتحرّك إذًا.. لعلّنا نجد مخرجًا..!

- تحرّكنا كثيرًا.

- العجب أنّنا لم نتعارف إلّا في هذه الصّحراء..!

- الأعجب أنّنا استيقظنا في الصّحراء..!

- لكن لا يُمكنني تذكّر آخر حدث مرّ بي..!

- كلّنا كذلك.

- إن تلك إلّا حياة أخرى.

- أو موت حقيقي.

استوقفني تعليقه، موت حقيقـي..! ربّما، من يعرف كُنـه الموت على وجـه الدقّـة؟ من مـات وعاد يحكي لنا؟ عـليّ أن أصـدّق أنّنا موتى لئلا أُجنّ..!

الجنون أزمة المصادفة...! عادة الجنون..!

رفعـت رأسي إلى السّـماء، عبسـت ملامحـي، همهمـت، وبشـكل غير إرادي كانـت أصابعـي تتّجـه إلى أعـلى، وأنـا أزوم، فقـال لي أحدهـم:

- هل ستتشاجر مع الرّب؟

- لعلّ شجارنا يُنهي المسألة..!

وبـدا أنّي حقيقـة أودّ التّشـاجر مـع الـرّب، الإنسـان الـذي لا يفهـم عاجـز، وميـزة الإنسـان الأصيلـة هـو شـعوره العميـق بالكراهيّة تجاه العجز.

تركت مجلسـهم، وحثثت الخطى صوب ربوة قريبة، تسـلّقتها، وكان واحـدٌ يضاجـع آخـر أسـفلها، فلـم ألتفـت، تأمّلـت السّـماء المظلمة، كانـت النّجـوم لا تومـض، وكان الأمـل واهنًـا وبـدا لا يُـرى في غمرة التسـاؤلات، الصّحـراء علامة اسـتفهام، والسّـماء مجـرّد نقطة سرمدية في فضـاء الذّهن.

وفي الحلمِ؛ كنّا جميعًا نجهل أسماءنا.

بـلا جدوى كنّا نحاول اسـتنطاق الذّاكرة، وفكّرنـا أنّه ينبغي أن نُعيد تدوير هوياتنا، بما يتناسـب وعُزلـة المكان، ومعطيات الوضـع الرّاهن، فأُطلـق عـلى أحدنـا مسـمّى «رمـل»، وآخـر «فضـاء»، وآخر «سـماء»، وأطلقـوا عليّ اسـم «شـمس»، لما في نفسي مـن حدّة ومن تمـرّد وعنف، وبالطبـع مـا كنّـا أدركنـا هـذه المسـميّات، لـولا أنّ الـذي نفانـا في هذا المـكان تـرك في أذهاننـا ومضات عـن معاني بعض الأشـياء..

أقلّه مفردات الصّحراء التي وجب أن نتقبّلها كموطن إجباري.

فجأة هتف «سماء»:

- «شـمس»..! أيـن النّسـاء يا «شـمس»؟ جسـمي تأكله الشّـهوة إليهنّ.

- في ذاكرتي خيالات عن نساء قُدامى.. إنّما استعضنا ببعضنا عن

النّساء.

قال «فضاء»:

- من عجب أن تكون هذه سنّة الصّحراء...!

فقلت:

- بل من عجب أن تصبح هذه عادة مستحبّة...!

وتمدّد الزّمن في الحلمِ، آمنا أنّ الإنسان يصنع مأواه، فبعد أيّام توالت، لم يكن ثمّة مفرّ من تشكيل المكان وفق إحساسنا بأنّنا علقنا هنا، ولا نجاة من الصّحراء، انصرف بعضُنا يبحث عن أخشاب متفرّقة في الأنحاء خلّفتها بعض القوافل، وذهب بعضٌ آخر يبحث عن بئر ماء، وآخر عن مخابئ وجحور الزّواحف، وهكذا، أنشأنا كوخًا، وزرعنا أشجارًا تقريبًا من بذورٍ منتهية الفعالية، وشيئًا فشيئًا بدت تستطيب الحياة.

لولا أنّي وجدت صحيفة مطويّة بين حشاش الرّمل ذات يوم، صحيفة قديمة، بالية، لكنّي بوعي غريب رحت أقرأ ما خطّ فيها:

«المُبتدى»

(علَى عهدِك يا أولَ الإنسِ، وعلَى عهدِي أكون).

(قبل الإنسان، كان تقديسٌ وكان نور).

(المَجدُ للإنسانٍ سيّدُ الأرض، أرض أولى وأرض آخرة، ثائبٌ يومَ يَدين، إيّاك نجيء إيّاك نستبين، رحماك بنا ربًا رحماك بنا مَكين، يومَ نُفِخنَا ويومَ أُنزِلنا ويومَ لم يكنْ لنَا إيّاك إذ يَحين، ولا كنّا قيامًا ولا كنّا

قعودًا ولا كنّا إلاّك مستبصرين، فانظرنا).

بعدها؛ لم أفهم كيف كان يُمكن أن تتكشّف الأشياء؟ وإلام ترمي هذه الصحيفة؟ هل يُمكن أن يكون معناها مجرّد لمحة من غيب أم شذرة من ماض؟

ثم بدا كأنّي نُدهت، لا أعرف ما فيّ..! لكن استمسكت بذهني الهواجس، ورُحت أمضي خلف تصوّرات بدت للجميع جزافية، عن أرض وسماء وبشر وحياة وموت، مضيت خلف تهيؤاتي المزعومة بعزم غير مفهوم، بل ملتبس عليه، وإن اكتشفت أنّه مغلوط، إنّما شيء ما ظلّ ينازعني، ورحت - في صحوة أمل غير مسبوقة - أطارد ظلال الأشياء، وأستقصي، بل وكان ظلّي نفسه يسرح بعيدًا عنّي، فأتتبّعه، وكثيرًا ما فقدته، ومن خلف ربوة، بدت تلوح امرأة، لم أستوضح ملامحها، لكنّه خيال امرأة، هرولت إليها، وصعدت الرّبوة، امرأة، كانت تستنزف طاقتي في التخيّل، امرأة، من ورائها أصعد الرّبوة، ثم اختفت.

فألقيت بنفسي من فوق الرّبوة.

وسمعتهم بروحي يتساءلون:

- أين ذهب هذا المجنون؟

- رأيته يُلقي بنفسه من على الرّبوة..!

- لكنّه اختفى..!

- أو سقط من على هذا الكوكب...!

- تلك آخرة التّطاول على الرّب.

- وعاقبة الشّجار مع السّماء.

ولكنّي سريعًا ما عُدت، ولمّا عُدت، عُدت بلا ظلّ، لم أشأ أن أروي لهم أنّي سقطت فعلًا من فوق الكوكب، ووجدتني أدور بدوران الأرض، وكِدت أضيع في غياهب الفضاء لولا أنّي وهبت ظلّي قربانًا كيما أنجو، لم أشأ أن أخبرهم أنّي قابلت الرّب ورأيته وتشاجرت معه، ولم يعاتبني، بل لم يمنحني حتّى أيّة إجابات، فقط تركني أنجو، أنجو من السّماء، واستحوذَ على ظلّي.

لم يروا ظلّي، فاندهشوا، لم أقل لهم قط، طيلة حياتنا في هذه الصّحراء في الحلمِ، أنّنا هُنا بُعثنا من جديد، وحتّى اكتمال المشيئة.

* * *

بعد الرؤى الصّاخبة، ارتحلت ثانيةً، ضربت في الوديان بعد ذلك عن غير هدى، في السّفوح والمدائن والصحاري، صاحبت حشراتِ اللّيل وزواحف الصّحاري، يتحلّقون معي النّار وينقضي اللّيل في سمرٍ وحكايات، ولم تزل صورة «عزرائيل» في رأسي، وددت لو أرى الله في رؤيا قريبةٍ أخرى، لم أكن أكاد أصل إلى محطٍّ لرحلتي حتّى أغادره في اليّوم التّالي، ثمّة شيء يُجبلني على الترحال، تكشّفت لي طاقات ما تخيّلتها، كنت أحلّ ليلًا على السّفوح والوديان لأصحو في صباح تالٍ مستكملًا رحلتي، وفي كلّ ليلة بدت تتكشّف لي غياهب الحياة أكثر، قابلت رجالًا سود، ورجالًا بيض، قابلت عمالقةً وأقزامًا، أختبئ من عاصفةٍ في كنفِ مغارة لم تطرقها قدمٌ، أو أهجع

جـوار مسرب من مسـارب المياه، كانت حياتي متبدّلـة بتبدّل مواضع الاسـتقرار، وكنـتُ أُمسـك كـفّ الرّجل من هـؤلاء فأقرأهـا، أو أضع يدي على رأسـه فأسـتشرف غيبه، وكثـيرًا ما كنت أفسّر أحـلام النّاس، بالطبـع تكسّـبت من وراء هـذا واعتبرته حرفـة، كي أسـتطيع أن أؤمّن طعامـي، كنت أتّخذ المسـتقرّ كيفـما اتّفق، أوسّـد رأسي بلبنة طـوب، أو بعض الحشـائش، ارتحلـت بين بلدان النّـار، وبلدان الثلـج، ولم أكتفِ، كانت رحلتي إليه، لأجل أن أسـتبين حقائق عِشـقه، وكي أفسّر رؤاى.

وأثناء سـيري، ضربتني عاصفةٌ، أطاحت بي فسـقطت متدحرجًا من أعـلى تلٍّ إلى سـفحٍ فـوق الحصى والرّمل والحشـائش، تكسّر جسـدي، كان ذلـك عند بلـدةٍ قريبة من تخومِ «أوزبكسـتان».

في اليـوم التّالي، بـدا كلّ شيء فوضويًا، السّـماء تكـشّر، كلّ شيء يُنذر بموجـة كهذه مـن البرد، وبكثـيرٍ من عـدم الأمان.

كانـت السّـماء ملبّـدة بالغيـم، وريـحٌ أخذت تراود حشـايا الشّـجر، ومتـون الـزّروع المترامية.

ظلّت العواصف لأيّام وأيّام، قبعت بأحشـاء الشّـوارع، مرّة في عمق جدارٍ تهـدّم، ومرّة في حظيرةٍ منحني صاحبها ليلـةً للرّاحة دون أجرة.

- الدّراويش أحباب الله، ادع لي فقط يا مولانا.

قالهـا، وسـحب مـن ورائـه البّـاب، وعنـد حلـول الفجـر، لم تكـن رُوحـي قد اسـتكانت في هذه الحظيرة، فقلت حضن الشّـوارع أرحب.

ومضى أمسٌ، وبعده أمس.

لكـنّ الأمـس الأخـيرِ لم يمـض تمامًـا، ثمّـة بقايـا منـه كانـت لم تزل تجـوب الأمكنـة مـن دون هـدى، كلاب ائتلفت مـع الصّقيـع، لا نباح لهـا، وقطـط مـشرّدة لم تعُـد تموء.

ثمّة بقايا من الأمس لم تزل متناثرة بداخل رُوحي.

- أيّها الأمس؛ كنت ثقيلًا مررت بكلّ بطء.

رُحـت أعاتبـه، شـعرتُ أنّي كـما بقايا من الأمـس، أبـدو كذلك مثل بقايـا من طفـلٍ كان، تقوقعت آنـذاك، وكان وجهي مغطّـى بياقة ثوبٍ متهـرئ ملأته الثّقوب، اختبـأت بداخله من البرد، تسـتّرت بجدارٍ من ظلام، وبـدوت كأنّي رقعـة من ثـوب الظّلام عينه.

مـا بـين برهـة ومثلهـا، يظهـر أنفي مـن أسـفل ياقـة الثّوب محمـرًّا، بعدهـا تتحرّك أهـدابي معلنة النّظر إلى أعلى، إلى حيث يجلس معشـوقي الأكـبر، إلى رؤوس البيـوت التـي تتراص في غير انتظـام لتصنع خريطة عشـوائية لشـوارع تحتضـن بقايـا المسـاء المنـصرم في عشـوائية أيضًـا، وأسـتعيد وجـوه قاطنيهـا الذيـن يمـدّون أياديهـم لي في النّهـار بالـزّاد فأشـكرهم بابتسـامة ودودة، أقرأ لهـم أكفّهم وأفسّر بعـض أحلامهم.

أضـمّ عـلى وجهـي الياقـة مـرّة أخـرى لأسـتدفئ قليـلًا، وهكـذا، بـدوت لا أمـلّ النّظـر نحـو الأعلى هنـاك، نحـو الله، وأناملي بـلا إرادة تتحسّـس بطنًـا جوفـاء لم يزرهـا طعامٌ منـذ طلعة هـذا النّهـار، واللّيل يُخفـي في طيّاتـه كلّ التفاصيـل.

فيما قليل، يستعدّ جسمي لنهوضٍ يشوبه الخمول، أبدأ في التحرّك

بنفس العشوائية التي تتحرّك بها الكائنات البقايا من الأمس، وساقاي تفترضان الاستقرار عند أول مكمن لأيّ وقودٍ للمعدة الخائرة، أتلفّت حولي بلا هدف، أمسح بعينيّ نواصي الطّرقات والأزقّة، تحدوني خروشة أوراق شجر خريفية مبعثرة تتراقص فوق بساط الأرض، أحاول أن أتبع حفيفها القادم من دربٍ جانبي، آملًا وجود بغيتي من نزر يسير داخله، أطوي تراب الدّرب المغطّى بنتف الثّلج بقدمين حافيتين وأظلّ أُنصت للحفيف الآتي، فتلمع عيناي لمعةً فرِحة، ذلك عند أن يفاجئني تلٌّ من قمامةٍ طازجة، لم ينل منه جفاف الصّقيع الذي يعم كلّ المفردات، دنوت في سرعة، أثناء هرولتي حطّت قدمي اليمنى على شظيةٍ من زجاج متكسّر، أحسست بعض الشيء بألمٍ طفيف حين تسلّل عمودٌ باردٌ داخل لحم ساقي، غير أنّي لم أكترث، لم أتعوّد أن أكترث لمثل تلك المصادفات الطّارئة، أكملت في سرعة اقترابي من التلّ العامر بالأمل، ومن ورائي تتقاطر نقاط من دمٍ اختلط فيه اللّون الأحمر باللّون الأصفر، فبدا شاحبًا، لم أكن أعرف إن كانت الشّظية قد استقرت بداخل قدمي أم انتُثرَت بعيدًا من حركة السّاق المهرولة فوق التّراب! مع ذلك لم يعد يستولي عليّ إلاّ ذلك الإحساس بأنّي أخيرًا سوف أذود عن جوفي ولو بكسراتٍ من خبزٍ حتّى وإن سكنه عشب، أقلّه كي أستكمل رحلتي، لم تكن المسافة بتلك الدرجة من البعد، لكنّها بدت بعيدة، التلّ القابع في زاوية من الدّرب -والآتية رائحته شهيّة- لا يود أن يخلص ويدنو، ماله يعاندني! بل مالي لا أقوى على الإسراع أكثر قبل أن يظفر به

ضالّ غيري!

وجـدت نفسي أخـيرًا وجهًا لوجه أمـام التلّ وقلبي متهدّج، تلاشـى الشّـعور بالبرد وتلاشـى الشّـعور بـكلّ شيء محيط في لحظـة أن جعلت أتأمّـل كـوم القمامـة والأفـكار السّـعيدة تملُـك عـليّ أنفـاسي، انحنيت ومضيـت - بحـذر طبيعي - أنبش داخـل متن القمامة عن غـذاء ويدي تنتفـض مـن فرط الـبرد، هنا لابـد أنّي سـأجد ما قـد يقيـم أودي لأيّام أخريـات قادمـات في الخـلاء، فظللت أنبـش في رويّة.

راحـت يـدي تتداخل في عمق التلّ، خدشـني حـدّ صفيحة عوجاء، ولم أحفـل، ظلّـت يدي بنفس مرونتها ونفس الحافـز، وهي تقلّب بطن القمامـة علّها تستقر على كسرة خبـز أو ثمرةٍ لم تـؤكل لآخرها.

يـدي تقلّب، وعيناي تجوسـان في تركيز شـديد كلّ مـا تتحصّل عليه يـداي، ولم يكن اليأس قد انسـلّ داخل أعماقي للدرجة المحبطة بشـكل تـام، غـير أنّ يـديّ أصابهما بعـض التراخـي في البحث، كانت الأشـياء التـي وقعـت عليهـا يداي مجـرّد بـواقٍ عفِنـة لا تنتهـي ولـو لقليل من خبـز، زفرت في مرارة وكنت أخشـى مـن الفكرة التـي جالت بذهني؛ أنّ بحثـي لـن يفـضي إلاّ للمكوث خـالي الجوف من الـزّاد، إذًا سـأظلّ جوعانًـا لحلول الصّباح، فاشـتدّت أصابعي في ولوجهـا داخل القمامة، ففكـرة أن يؤول بحثي إلى فشـل أوقـدت لهفتي أكثر، فأخـذت -لاهثًا ومـن غير كلل- أسـعى بأصابعي محتمـلًا أيّ غـذاء، وكان لفحة باردة مـن هـواء قد راحـت تعبث بياقـة الثّوب المتهـرئ، ولم أعبأ بهـا أيضًا.

تتشـابه المعـالم تحت جنح الظّـلام، لم أنتبـه للجرو الهزيـل الذي يلوح

مـن خلف التلّ وكأنّه بقعة أشـد حلكة من سـواد عتمـة تُخفي بداخلها كلّ التفاصيـل، جـرو كان يبحـث عن غذائـه في جهة أخرى مـن التّل، بـدا عليـه اليأس وهو يجرّ قدميه من ورائه ويسـتدير ليُكمـل بحثه عن طعـام في هـذا الجانـب، توقّـف قليـلًا وقـد لمحنـي؛ شريكـه في المأدبة، انتصـب ذيلـه، كاد ينبـح لـو لا أنّ الهـزال لم يسـعفه، فاكتفـى بـأن كشّر عـن أنيـابٍ يجـري اللّعاب مـن بينهـا في خيط واهٍ، وتسـمّر عـلى مقربة متحفّزًا.

- إلام تنظر؟ هذه ليست قمامة، إنّها وجبة عشائي.

(ووجبة عشائي أيضًا).

أوشـك الجـرو أن ينطقها، بانـت في محيط عينيـه اللتين ازدادتـا تحفّزًا وعنـادًا، وكان ذيلـه يهتزّ متأهّبًـا لأيّ ردّ فعل.

بادلنـي النّظـر قليـلًا، ثـم مضيت أسـتأنف البحث غـير آبهٍ بـه، بقي الجـرو متحجّـرًا في تأهّبـه كما لـو أنّه على يقين بـأنّ ليلة الغـذاء ليلته من دون ريـب، سـامحًا لي أن أقـوم نيابة عنـه بجهد البحث.

كان الكـوم قـد بـدأ في التبعثر من متنه عـلى مسـطّح الأرض، ويداي بـلا ملـل تفحصـان مـا بالدّاخـل، والعبـوس راح يسـتولي عـلى وجه الجـرو، وبـدا أنّ فكـرة الإخفـاق تسـتوطن نفسـينا معًـا أكثـر فأكثـر، والـبرد يُحتمـل؛ إنّـما ليس لـكلّ هـذا الوقت.

فجـأة توقّفت يدي، انفرجت أسـاريري شـيئًا ما، شـعر الجرو فتقدّم خطـوة للأمام، خرجت يـدي برغيفِ خبـزٍ كاملٍ لم يُمسّ، بدا ناشـفًا،

ورغـم ذلـك بـدا طازجًـا بشـكلٍ مـا، وكأنّـما خـارج لتوه مـن قلبِ فـرن، التفـتُّ للجـرو قائلًا:

- لا بأس أن نقتسمه سويًا..

لكـن الجـرو في سرعـة وثب، تعـرّى من هزالـه ومن ضعفـه وقبض بـين أسـنانه عـلى نصـف الرّغيـف، أمّـا يـدي فلم تكـن لتنهـزم عقب كلّ ذلـك التّعـب، قبضـت هي الأخرى عـلى النصف الآخـر في إلحاح وصلابة، تهشّـم الرّغيف وتساقط متناثرًا على الأرض، فمضينا نلملمه في حـذر وكلٌّ منّـا يحـاول أن ينال ما اسـتطاع مـن كسراته.

بعد كسرة وثانية، رفعت رأسي للسّـماء، ابتسـمت لمعشـوقي ابتسامة حمـد طفيفـة، نظـرت للجـرو الـذي أتى عـلى كلّ القطـع المبعثـرة على الأرض مـن الرّغيـف ووقـف مسـتجديًا قطعـة كانت تمسـكها يدي، ناولتهـا لـه وربّـت عـلى رأسـه، تدثّـرت بياقـة الثّـوب مـن الـبرد مرّة أخـرى، وافترشـت جانبًا مـن الطّريق بجـوار تلّ القمامة، انـدسّ الجرو في دفئـي، فابتلعَنـا لـون ظـلام اللّيـل، وحتّى هـلّ الصّباح.

في الصّبـاح خرجـت من البلدة، كانت السّـماء لم تزل مدجّجة بالغيم، لكـنّ العواصف طارت شـمالًا، وبين بلدة وأخرى يتبـدّل الطّقس، بين بلـدة وأخرى اكتسـب صداقات، وأنِسـت مـع الحيوانـات التي ترتحل بدورهـا من مـكان لآخـر وفق منابـع الغـذاء والأمان، طالـت لحيتي، وتهـرّأ ثـوبي عن آخـره، ولكنّ رجـال الخير وهبـوني ثوبًا آخر.

استغرقتني الدّروب، واستغرقني العِشق، والنّور بقلبي لم يكن

لينطفـئ، بل كان يترعـرع ويتبلـور، في الوقت الذي كانت الوحشـة مـن ماديـة العالم تترعـرع أيضًا.

أثنـاء ذلـك؛ رغم مرور السـنوات، وشـقاءات الرّحلـة، لم يكن وجه سـيّد الجـلال، رجـل الرؤيـا الأولى، يفـارق خيالي، ظـلّ حيًّـا بداخلي، تسـتدعيه الذّاكرة بـلا حيلةٍ، قال طريقانا سـيلتقيان، وكأنّـما بتّ أرتحل بـين القرى والمُـدن لمجـرّد أن يلتقي طريقانـا، وأقابله وجهًـا لوجه.

أجل أبحث عنه؛ ولو برُوحٍ عاشقةٍ.

وكنـت قـد أرهقنـي الترحـال؛ ذلك عندمـا انتهـت بي الـدّروب إلى « حلب » .

* * *

في «حلـب»، أرشـدوني إلى إمـام الأئمـة، شـيخٌ يُبـارك الأحبّـة والزّاهديـن والدراويـش، اسـمه «ركـن الديـن السـجاسي»، قلت لا بـأس، لعلّه يزيدني علـمًا وتقرّبًـا، أو يرعاني لبعض الوقت ويسـبغ عليّ عنايتـه، كنـتُ في حاجـةٍ لملاذ.

وفي تلـك السّـاعة التي تتشـاجر فيهـا بقايا من ألـوان نهـار متزاوجة بـين أحمـر وبرتقالي باهتة، في سـاحة السّـماء، ونسـيجٌ شـبكيٌّ مـن لون اللّيـل يزحـف ببطء ليطردها ويأخـذ مكانها، كان لون البخـور الأزرق يلـفّ بيتَ الشّـيخ الإمـام، بيتٌ يتصـدّر المشـهدَ أمام الأعـين، والمدى أمـام بـصري رُصّع بأنـوارٍ كأنّها تقفز مـن جوف البيـت وتتناثر حوله، الأصـوات تقتحم حـدودَ السّـمع مشـوشرةً ومتداخلة، لكنّهـا عالية، ويبـدو أنّ توافقًـا ما يحكم سـيطرتَه عليها.

قعقعـةُ الخشـبِ في ركيـة النّـار كتمـزّق عضـلات رجل، الجالسـون خـارج بيـت الشّـيخ - يدخنون النرجيلـة - يلتّفون برؤوسـهم نحوي وتنفتـح أفواههم، ثم يبتسـمون إذ يدركـون أنّي مجرّد درويـشٍ عابر، لا مكانَ هنـا إلاّ لطالبـي البَرَكة والعلـم أمثالي.

نـدفٌ مشـتعلةٌ -كذبابٍ يحـترق- تتطاير مـن قلب الرّكيـة وتَفنى في الهـواء، أرفـع بصري إلى فـوق، جهة البـاب الضّخم، وتمامًـا فوق بروز البـاب العلـوي من الخـارج، توجد حنطةٌ لتمسـاحٍ ضئيل الحجـم، إنّما تجويفا عينيه كانا غائرَيْن غورًا أضرم في كلّ جسـديَ رعشـة، لا أعرف! أحسسـت كأنّ بـه حياةً ويتأمّلني مـن مكانه في الأعلى بتحفّـزٍ ورفض.

دلفـتُ، رحت أتفقّد معـالمَ البيت المُغـرق في الجلال، الجـدرانُ ممتلئةٌ بحبّـاتٍ معقودةٍ ببعضها من الـدّوم الجاف القديم وكأنّهـا أفئدةٌ ضامرةٌ يابسـة، صور لمشـايخَ وأوليـاءَ وأئمة مِن نواحـي البلاد، كلّهـم يُطِلّون منهـا في تواضـع، أبـواب الغـرف مطعّمة بتشـكيلات «الأرابيسـك» والزّجـاج الملـوّن، وكان دقّ الطّبـولِ يـأتي مـن عمـق البيـت منتظـمًا أخّـاذًا، يـدوّي داخـل جمجمـة الـرأس كهديـرِ شـلال، سـقف المنـزل تتـدلّى منـه «تعريشـة»من أليـاف نخـلٍ تبدو كنسـيج من أقمشـة بالية محترقـة داكنـة اللّون، وأمام العـين يتراقص البخورُ الكثيـف الطّالع من أطبـاقٍ نحاسـية تتأرجح بمنتصـف الحوائط في سلاسـلَ تشـبِه حبّات المسـابح، كان الجـو دافعًـا للتّشـظّي، والسّـتار المـؤدي لحضرة الإمـام ينفـرج ببـطء، أول مـا وقعـتْ عينُـه عليّ بـدا أدركنـي، فابتسـم، وكان يدخّـن نرجيلة بـدوره.

مشـدوهًا وقفت قبالتَه، شِـبهَ متحجّرٍ، مُغرقًا في نظرةٍ شـاخصة إليه، لم يكُـن طويـلًا ولا ضخـمًا كـما أُشـيع في وصفِـه لي، بـل بـدا متوهّجًـا بأمـارات العِشـق الإلهي.

كان ثابتًـا بجلستِه الوقـور، عـلى وجهـه ابتسـامةِ مـلاك، وفي عينيـه نظـرة متفرّسـة، عينـاه تألّقتـا بمزيـج مـن لونـين أخـضر وأزرق، هذا التألّـق العفـوي الذي لابُدّ وأن يدفعك للتّسـاؤل عـن ماهية لون عينيه تحديـدًا؟ هل هُمَـا زرقـاوان؟ أم خـضراوان؟ وقد يأخذك التّسـاؤل إلى الغـوص بعـض الـشيء في بحر الثّقة الـذي يتموّج في عمـق عينيه، كان كلّ شيء فيـه تقريبًـا مضبوطًـا لأن يـأسر فـؤادي، ثقة متناهيـة، رصانة غـير متكلّفـة، وكاريزما ربّانية، وكأنّ رسـامًا بفرشـاةٍ شـديدةِ الدّقة قد أتقـن خلـطَ كلّ هـذه التفاصيل، شَـعر الـرأس الفاحم المنسـدل قُربَ المنكبـين، الوجـه المُشرّب بحمـرةٍ خفيفـة إنّـما يشـع مـع ذلـك بياضًا كبسـتانٍ مِـن فُـل، لحيتـه المهذّبـة بعنايـةٍ ودقـة كأنّهـا حُفَّـت بموسـى سـحري، كلّ هـذا مع حضورٍ طـاغٍ، مثل غمامة مسـحورة تلف العين.

ثـم هـبّ ناهضًـا، ولم يـزل يرمينـي بنظـرة مبتسـمة، لـوّح لأحدهم فمـضى أمامـه، تبعتهـما، أزاح بابًـا بيـدِه، وكان جمـعٌ يجلـس في انتظاره.

- السّلام على أحبابي.

فأقبلـوا يلثّمـون يـده، قلـت في نفسي: بعـضٌ من فيض المحبّـة خالدٌ لا يفنى.

جلس متربّعًا، أشار لأحدهم كي يستكمل حكاية لم يُنهِها في

جلسة سابقة، فقال الرّجل:

– بعدئـذٍ، ورغـم الرّحلـة ومـا تخلّلها من شـجون ومن بـأس، رغم مشـقّة السّـفر والسّـعي يـا مولانا، أيقنـت أنّي لسـت ببـاغ، أيّ بغي في رجـل هجـر ملكوتِـه لأجـل ملكـوت الله! لسـت ببـاغٍ يا مولانـا وإن تباينـت الخطوب، وإن أُشـيع ما أُشـيع عنّي، أنت أدرى يـا مولانا، هل يُمكـن أن يُغفـر الذّنب لمجرّد السـعي؟

قال:

– الله وشئونه يا رجل، ليس أدرى منه بالغفران.

– ولكنّي جئتك كيما أتطهّر!

– تطهّـر بـه، تطهّر إليـه، ليس لعبدٍ أن يعـرف إن غُفر لـه أم لا، تطهّر في محرابـه، هـو أولى بالتطهّر، يقول الإمام «علي» كـرّم الله وجهه: «داؤك منـك ومـا تُبـصر، دواؤك فيك وما تشـعر، تحسـب أنّك جـرمٌ صغيرٌ، وفيـك انطوى العـالم الأكبر».

– أغثني من الحيرة يا مولانا.

– سـبحان الـذي بعـث النّور يضـوّي للأبد، سـبحان مـن بعث ابن «آدم» بعـد غيبـة في مجاهـل الخـرف، سـبحان مـن نجّـاه، يـا رجل ألا يُمكـن أن تصطـفّ الكائنـات إجـلالًا لمعنى الحقيقـة الكامـن في رُوح الـرّب؟ أنـت ضربـت الرّحلة لأجلـه، فهل سـيتركك؟

اكتفى الرّجل بشرودٍ أسيان.

بعد قليلٍ، أخرج الإمام مسبحة، ثمّ تطوّحت رأسَه وأخذ يدمدم

مسبّحًا:

- أنت الحقيقة يا الله وما نحن إلّا نزق الغواية، مستهلّ رحلة الأكوان حول أزمانها، أنت منتهى بصيرة الكاشف والمكشوف، ومحطّ البحث عن مستقرّ، أنت نحن ونحن جزء، الحقيقة محجوبٌ جلالها عند حدود العدم حيث دام ذكرُك وفاضت رحمتك.

كنت قد آمنت مع انهيار الرؤى على أحلامي إنّما بعثني الله وحيًا للتّائهين لا ينقطع، وإن انقطعت الرّسالة.

إنّما؛ بعد لقائي بهذا الإمام، بدا التّيه واصلًا لمنتهى الحقيقة، هل كانت الرؤى صادقة؟ هل حقًّا عافرت لاستبيان الحقيقة؟ هل نجوت من ملابساتها وخيباتها؟ لعلّها تراوغني، إذ يراودني من حينٍ لآخر نقع الضّلال القابع في قاع رُوحي، عاقرت اللا نجاة، بين مُدنٍ وأخرى، كأنّها الخلود وما أطيب، هل أثِمت؟ تُرى أحقًّا مددت بيني وبين عين الحقيقة شعاعًا من نور؟ أم أنّي كنت مطموسًا بغفلات الضّلال؟ مساقًا بسطوة الضّلال؟ الضّلال باغ، وإنّ التّساؤلات كفيلة برميي من شطٍّ إلى شطّ، حتّى شطَّ عقلي، أو كاد، نازعتني نفسي، بنزال لا نزاهة فيه، وإنّ النّفس لأمّارة بالمنازلة، نازعتني: أيّهما أوجب حيادًا وجنوحًا نحو السّلام والعِشق؛ أهو العقل أم القلب أم الرّوح؟

هل أدركت كلّ زوايا العِشق بمجرّد رحلةٍ إلى خلاء الله؟ رحلة عبثيّة ربّما!

كان أثرُ الرؤى لم يزل منقوشًا على رُوحي، كأنّي سيّد الكون أو

يزيد..!

طلّ عليّ الإمام بعينيه، وقال:

- لعلّ القلب إذ يطمئِن، يخابث العقل، فتشدّك دوّامة من تداعيات الحيرة، وتُستنزف، بوساوس ابن جهنّم، يرمح صوتُه في مهبّ تساؤلاتك: إنّ الذين آمنوا صفحة بالية في تاريخ غبر، اليوم يوم السّؤال، يوم التفنيد والتوكيد، اليوم يا ابن «آدم» يوم الضّلال، ضلال الأفكار بسياقاتها المُخادعة، المُهلكة رغم ذلك.

همهمت مدهوشًا:

- مولاي! قرأت أفكاري؟!

فضحك ضحكة فضفاضة، وأضاف:

- يا درويش؛ لا تقل أعليّ أن أُهادن ما أمكنني؟ لعلّ في المهادنة سلامًا واستكانةً، ولو بشكلٍ مجازي حتّى، بل أنزِل العقلَ منزلة السّفهاء، وارتق بالقلب حدّ القداسة والشّفافية، ستجدك بالفطرة ساعيًا إلى الخلاص، باحثًا عن الحقيقة بحثك عن الأسفار في عالم عاصفٍ لا يستقرّ، بحثك عن حياة في فؤاد أوشك الضّمور، بحثك في الحياة عن خلود.

قلت:

- حسبتني أدركت الحقيقة أو سأُهلك دونها..!

قال لي:

- الأصل؛ إنّه لا توجد حقيقة وافية تجاه تعريف ماهية العِشق

نفسـه، نحـن نتحـدّث فقـط، نتحـاور، أحيانًـا نتحـدّى، في النهايـة نحـن لا نبلـغ جوهـر الحقيقة مهـما أقنعنـا أنفسـنا بذلك، الحياة تسـير كيفما تشـاء هي، لا كيفما تشـاء أنـت، أو بأصدق الحـالات، كيفما اتّفق، الحيـاة تسـير دون تخطيط، بعشـوائية تصنع السّـؤال ذاتـه، لا إجابة بلا سـؤال، الأسـئلة مُلقـاة في الأذهان، المهم أن نكتشـف الإجابـة المُريحة، التـي تُشـعرنا في مُجمـل الأمـر بالتفـاؤل، كيـما نسـتكمل الحيـاة، أليس كذلـك يا بنـي؟ في غالب الأمر جميعنا سـننتهي إلى نفس المكان، سـواء كان هـذا المـكان في الآخـرة أو في العـدم، فالإجابـة الأصـدق والأعـمّ والأشـمل لم يجبهـا الزّمـن بعد، الإجابـة قابعـة في النهايـات، ونحن لم نصـل للنّهايـات بعد، كلّنـا لم نصـل إلّا إلى مفترقات الطّـرق، البدايات التـي تشـتّتنا، دورنـا هنا أن نهيّـئ للنّاس قبول فكـرة أنّ المنتهـى لم يأتِ بعـد، وأنّ البدايات سـتصنع المعجزات، أن نسـتخلص منهـم الأفكار الخبيثـة، لنصوّر لهم الاسـتحقاق الـذي يُمكن أن يكـون في هذه الحياة، دون زيـف ولا تلفيـق ولا أوهـام، أنّ الحيـاة نفسـها - دون حتّى وضع تصـوّرات عن النّهايات - ذات معنى وتسـتحق أن نعيشـها كما ينبغي.

لكنّي رددت عليه مجادلًا:

- نخـدع أنفسـنا إن زعمنـا أنّ للحيـاة معنى وأنّهـا ذات جدوى بغير العِشـق الرّباني، تلك خلاصة السـعي.

- هـذا مفهـومٌ، لكـن تُرى، عبر سـعيك، عـبر بحثك عـن الحقيقة، أقصـد حقيقة العِشـق، ألم تمنحك الحيـاة هبة ما، درسًـا أعانك على فهم سرمديـة المعاني نفسـها؟ ألم تمنحك تضـادًا قد يدفعك لإعـادة تدوير

الأفكار؟

- لقد خضت رحلة يا مولاي وأنا لم أزل يانعًا لم يشتدّ عودي، عصفت بي رؤى لم أستطع تفسيرها، لكن في الأخير، كلّ ما يُمكن فهمه هو أنّ الحياة ستزول، والشّمس ستنفجر، والأرض ستتبدّد، والكون سيتلاشى، وكلّ الأعمال العظيمة ستصبح بلا معنى في يوم من الأيّام، مهما قدّرها العالم، من المستحيل أن تقنع النّاس بأيّة فكرة بديلة عن الزّوال، يؤمن النّاس منذ بدء الخليقة بالزّوال في الأساس، إذًا كلّ ما عدا فكرة الزّوال مجرّد عبث، لذا عليهم أن يبعثروا هوياتهم وأفكارهم فوق محيط هذا العالم، أن يفتّتوا شيئًا فشيئًا أنفسهم وأحلامهم وطموحاتهم، كي يطمئنوا لمعنى الفناء نفسه، مثلًا أنت تسأل الله عن الحلول، عن المصائر، والأقدار: ماذا لو أنّي طيرٌ يجوب سماء! أكان سيتغيّر مصيري ولو مقدار بُرهة زمن؟ والدّنيا! هل يُمكن أن يكون فيها معنى غير العِشق؟ سامحني يا مولاي، المصائر لا يُمكن أن تتبدّل بمجرّد الرّجاء أو النجوى أو السّؤال، أنت تشتّت عقلك، وتوقن في قرارة نفسك بأنّه لا مفرّ من الشّتات، كي ترتاح على الأقلّ، هذا ما نفعله جميعًا، الأمور التّافهة، لمجرّد أن نرتاح، في النّهاية سنموت جميعًا، ولن يبقى منّا أثر، عدا عِشقٍ كاملٍ وتام له.

وبسملتُ، فقال:

- الأثر الحقيقي قد تصنعه بعد موتك، حاول صناعة الأثر، فقط حاول، بدلًا من الجلوس والتأمّل ومخاطبة الله في أمور انقضت منذ بدء تاريخنا نفسه: يا ربّي هل سأموت عاشقًا؟ وأحبّتي؟ ما معنى

الحيـاة إذًا والعِشـق إن كنّا سـنموت؟ هل أعشـقك حقًّـا؟ وما معنى العِشـق؟ وما معنـى الرؤيا المجـرّدة؟ وهكذا.

- إنّنـا نعيـش في الخيـال لنبتعـد قـدر الإمـكان عـن مواجهـة طبائع الدّنيـا، أتّفـق معك في أنّ العـالم لا يُمكن احتماله بحال يـا مولاي، لكنّه سـيظلّ عالمًـا مسـكونًا بالبـشر، مهما بلّغـت قسـوته ومهما بلـغ إذلاله، لذا؛ من الأسـلم ألّا نراه طالما في قلوبنا عِشـق لا يفنى، أن ننسـلخ عنه، لنلبس ثوب العِشـق.

- يجـوز! أن تعيـش في الخيـال أولى مـن العيـش أسـير الأفـكار التي تقـود إلى المـوت شـيئًا فشـيئًا، أقصد الموت عـلى مراحل جزئيـة، الموت البطيء، الذي يسـتنزف حياتك منـذ بدايتها، فلا كأنّك عشـت الحياة، ولا أنـت عشـت في الخيال.

ثم أمعن فيّ بنظرة متأمّلة وقال:

- «شـمس»، عـم تبحـث يـا بنـي؟ النّور يصنعـه البـصر، ولا بصر بغـير بصـيرة كاشِـفة، ألا يكفيك أنّـك قابلتـه وحدّثته وجهًـا لوجه؟!

كيرا

قونيّة/ الأناضول -٦٢٨ هـ

- في اللّحظـة التـي يمـرّون فيها بجوارِك، تحاشـيهم، فقـد يلوّثونك بالدّمـاء التـي يلطّخون بهـا أياديهم.

هكـذا كانـت توصينـي أمّـي دائـمًا، وفي كلّ مـرّة، كنـت ألتصق بهم أكثـر، حيـث يحلـو لي مـن العـام للعـام أن أغمـس يـدي - بـدوري- في الدّمـاء، وأهـرول بـين الأطفـال، لنرسـم فـوق الجـدران الصّـور والأشـكال قانيـة اللّـون.

عيـد الأضحـى عيد لـكلّ أهل المدينة، ليس المسـلمين فحسـب، كنّا صغـارًا حـين كنّا نتجمّع لنـدور نباشر تزيين جـدران البيـوت بالدّماء.

نسـتيقظ مـع صـوت الأذان، نختـزل فرحتنـا ونخـرج نجـري في الشّـوارع، نُـمارس جميعًـا طقـس الأضحيـة، نتحلّـق الجزّاريـن الذين ينزلـون بسـكاكينهم فـوق رؤوس الخـراف والجواميـس، نسـبح في شـلّالات الدّمـاء، نغـوص بأيادينـا ونحنّيهـا بالـدّم، ونهـرول نـدور نمسـحها فـوق حوائـط البيـوت، كان «آزار» يقـول لي متفكّهًـا:

- «كـيرا»، لـو عندنـا ذبـح كالمسـلمين، ما الـذي ترغبـين في ذبحه؟ خرفـان أم جواميـس أم ديـوك أم عصافير؟

- أذبحك.

فيشدّني خلف جدار ويطبع قبلة صبيانية على خدّي.

- حسنًا، اذبحيني، لكنّي سأذبحك أولًا.

أغضب، أضربه على صدره، أهتف:

- تأدّب يا «آزار».

- القبلة ترياقٌ يا «كيرا».

- القبلة شهوة يا «آزار».

كنّـا صغـارًا؛ وكان كلّ شيء هادئًـا، عـدا الأقدار التـي تُحيك مصائر المعذّبين.

يا لفعل الأقدار!

لكـن في غضـون كلّ هـدوءٍ مسـتلذّ عُنـوة، قد تـأتي عاصفـةٌ هوجاء غـير منتظـرة، وفي غضـون كلّ اسـتقرار نسـبي، قد يجيء مـا لا نصمد قبالتـه، هكذا حِـراك المشـاعر، وهكذا يكـون الخطر المسـتحبّ محدقًا.

كان السّـأم يُغـدق عـلى حيـاتي بظلالـه أكثـرَ فأكثـر، تلـك الظّـلال المستأسـدة، اللّحـوح، الظّـلال التـي كادت تنفـذ نحـو مَعـين الـرّوح فتسـوّده تمامًا.

البنـتُ في مجتمـع المنكوبـين لم تكـن أكثـرَ مِـن قطعـةٍ مِـن جمـاد، لا يُفـترض أن تعايـش أيّ هوى أو تعتركها المشـاعر، مجـرّد كائن هشّ قد تـذروه ريـاح الاكتئاب يومًا، جـلّ ما تفعله أن تسـتنفد طاقتَها في أعمال البيـت، أن تصـمّ آذانَهـا عـن كافّـة الانتقـادات، أن تسـتغرق طويلًا في إضفـاء خصلـة الصّـبر على معنـى الحياة.

مـن البديهـي أن تكـون أبواب الخيـال أمامـي موصدة، ذلـك الخيال الـذي لا يحجمـه قيـدٌ عـن الانطـلاق، غـير أنّ الخيـال في حـدّ ذاته هنا مجـرّد مأسـاةٍ ملحقةٍ بـكلّ المـآسي المعهودة.

في بيتنـا نافـذةٌ نحـو الخـلاء، نحـو الخيـال إيّـاه، أتحايـل عـلى سـائر المقـدّرات وأصبـو نحـو الـلا مقـدّر.

في بيتنـا أجلـس أمـام هذه النّافـذة وأمدّد الخيـالَ كيفما شـئت، لم أكن لأدري إلى أين سـيفُضي بي خيالي؟ إنّما طالما ألّا سـبيل للمعايشة الفعلية فالخيال واجب.

الصبيّـة -أنا- صرخـة تود الفكاكَ مـن حلقوم اليأس الملـزوم قسرًا، الصبيّـة يا أمّي -كثـيرًا ما قلت- ترغـب في نزول المدينة وزيارة كنيسـة «آيـا ألنـا» الكُـبرى، لكن أمّي تَـضرب بيدها فوق صدرهـا وهي تهتف في فزع:

- جُننـت يا «كيرا»، كنيسـة «آيا ألنـا» لا يزورها إلّا الرّهبـان والزّهاد الباحثين عـن الخلاص.

كنـتُ أعـرف أنّهـا تتحجّج، فقط تبغـض المدينة لأنّ أبي مـات هناك، أحـضروه لهـا جثّة ملفوفة بالقـماش، كنتُ معه، عندما سـقط في عرض السّـوق، مـرّة واحـدة، ثـمّ قبـض عـلى يـدي، وطـلّ فيّ بعينـين بدأتـا تخبيـان، وصعد.

لكنّـي كنـت مـصرّة، هنـاك سـأقابل الأرواح الطّاهرة وجهًـا لوجه، سأشـعر بهـا، علّ يـذوب بعض الأسـى الـذي بات يسـكنني.

كنّـا وحيدتـيْن في قريـة نائية عـلى حـدود مدينة تشـغي بالتناقضات، هـزم المـوتُ أبي مبكّـرًا، أرداه في لمح البصر، صحـوتُ يومًا ووجدته قد ودّعنـي ومـضى، ودّعنـي أولًا أثناء نومي، حـضَرني في الحُلم متخفيًّا في ثـوب مـلاكٍ رقراق وديـع الطلّـة، راح يراوغنـي نافخًا مزمـارَه الغاب وصادحًـا باللّحن الشـجيّ في أصـداء الـرّوح، كان يتراقص، وكنتُ

معـه أتراقـص، نتمايل والحدّ الفاصـل بين الحُلـم والألم يترقرق، ذاب اللّحـن في ثنايـا الغيـب، وذاب أبي، بعـد أن ابتسـم ابتسـامةَ مـلاك، ثم طبَـع فـوق جبيني قُبلـةً ومضى.

هـزم المـوتُ أبي بغـير إبـداء مقدّمـات وهزَمَنـا معـه، ترَكَنا بائسـتيْن عُرضـةً لـبرد الحياة القـاسي، تمامًا كثمرةٍ مـن دون قشرة، كنبتـةٍ جزافية في مهـبّ الرّيـح، لم أكن كبـيرة، ولم أكـن صغيرة رغم ذلـك، كان عقلي يمكنه تدبّر شـئونِ الفراسـة والتكهّن، كنت أشـعر بمـدى حرقة أمّي، مـدى إحساسِـها بأنّنـا انقطعنا عـن احتـمالات الصّـون والحماية، كنت أشـعر بـأنّي مِـن بعد أبي مثـل نتفة قـد تُفـرك في يُسرٍ ودونـما جهد.

وحيدتـانِ يـا أمّي تَسـكنان أطـلالَ الذكريـات، لا أنـتِ ولا أنا عدنا ندرك كيف سـوف تمضي الحياة أو كيف سـوف ترسـو بنا عـلى برّ آمن؟ إنّـما يا أمّـي أجيبيني ولا تخـافي تعـرّضي لأيّ هاجسٍ ممّا يـراود ذهنك:

- هل ستسمحين لي بزيارة الكنيسة الكُبرى؟

ولم تُجِـب، بـات الاعـتراض القاطـع وجومًا شـديدًا في البدء، ثـم زَمّ شـفتين، ثـم إشـاحةً بالوجـه، فتنهيـدة طويلـة، أدركـتُ أنّها بـدأت في الاسـتجابة ولـو بظاهـر الرّفـض، وفي يـومٍ قالت لي عـلى مضض:

- سـنذهب للمدينـة، بـشرط، لن نزورها بعـد زيارتنا هـذه، تعرفين أنّي أكـره المدينة.

في المدينـة تمتـدّ المجاهـلُ حيـث لا رجعـة، ينسـاب نهـر «صكاريا» نحو الشّـمال مواليًا للبهجـة الزّائفة في حدّ ذاتهـا، والمركب يتهادى نحو مـراسي الخيـال كأطروحةٍ تستكشـف، يهدهـد الموجُ المغلـوبُ رغبتي،

ويقـاوم معـي جـذورَ القـسر، يحنـو في رفـقٍ ويـأتي يخاطبني همسًـا، ثم سرعـان مـا ينصرف نحو الشّـمال لرحلـةٍ دون عودة، يرحّـب بحافزي لزيـارة أيّـة بهجـة ولـو مستَلَبة، ويطبطب عـلى جانبي المركـب يمهله هـدوءًا غـيرَ ملمـوس، أحتـوي في عينَـيّ ربيـعَ المدينـة، تبـدو حـوّافُ معبد «الزراديشـت» الجلمـود نابتةً من ظهر المدينـة، كأجنحةٍ صخرية تتسـامق لأعـلى، كأنّهـا تهيئـةٌ مناسـبة لأبديـة التحجّـر، والمـاءُ يطلـع يلامـس ثنايـا الأحجار ويعـود مخضّبًـا بالتاريخ.

ترسـو مركبنـا، توصله الأوتاد الخشـبية المقـدودة من جذوع الشّـجر بالمَرسـى، ننتظـر ريثـما يهيّئ جـابي التعريفة وسـيلةَ العبـور، وفي ارتباكٍ تَصعـد أمّي، في خنـوعٍ أتبعها.

في مشـيتنا تلكـؤ مبدئي فرضتـه أعينُ النّـاس، كانت الخطـوات التي تحملنـا لأعلى يعتريهـا حرجٌ ثقيـلٌ ويكتّفها فضـولُ الراصدين، صعدنا السّـلالمَ الخشـبيّة نلهـث، وأمّي تحصّـن جسـدَها داخل عبـاءة صوفية قاتمـة، تخبئ وجهَها عـن عبث الأعين، وبـدا في خطواتها فيما قليل ذلك العَجـل الـذي أخذ يتصاعـد كلّـما ازدادت حولنـا النّظـراتُ المتربّصة، ولولا التحفّظ لاسـتقامت تنهـش وجوه الفضوليين وأعينهـم في عداءٍ حقيقيّ.

تَحاشـينا نظـراتِ الخلـق بقـدر الإمـكان، وتابعنـا الطّريـق المؤديّـة للكنيسـة دون أن تنبس إحدانا ببنتِ شـفة، كأنّ أمّـي تعاتبني وتحمّلني مسـؤوليةَ هذه المغامرة، أدرِك أنّ أمّي تخشـى كلّ مجهول، تخشـى النّاسَ وتخشـى مدينـةً لم تزرْهـا في حياتهـا إلّا مـا ندر، وربّما تخشـى عـليّ أكثر.

تـكاد خطواتنا تتعثّـر حينًا، وتودّ لو تطـوي الأرض طيًّا في حين آخر، حالما تبرز أبراج الكنيسـة زاهية مزركشـة، تضوّى زركشتها تحت أشعة شـمس النّهار، وتنعكس على مرايا أعيننا.

وظلّ النّاس يداومون النّظر إلينا، ربّما بسبب ملابسنا القروية.

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٦ هـ

كثـيرًا مـا حاولـت أن أصنـع صـورة لله في خيـالي، يـروي لي مولاي «شـمس» أنّه هالـةٌ من نـور، باتّسـاع السّـموات والأرض، وأنّه جميل، لكنّـه لم يكـن يعرف أنّ شـيئًا من هـذه الأوصاف لا يُمكنني اسـتيعابه، ببسـاطة لم أر السّـماء، لا أعرف معنى الجمال، أو حتّى شـكل هالة النّور، الظّـلام والنّـور سـواء، يُمكـن ببسـاطة أن أصنـع تصـوّرًا عـن حجم الأشـياء، لا عـن ماهيتها، كيف أصنع تصـوّرًا عن المحسـوس؟ كلّ ما يُمكن لمسـه يتحوّل فورًا لهيئـة في الخيال، أمّا المحسـوس فالبصر وحده يسـتطيع أن يصنـع عنـه آلاف الأفكار والتصـوّرات، لـو أنّي قابلت الله فاستطعت لمسـه! مؤكّد كان سيسـمح لي بلمسه.

كـم صبـوت لمقابلـة الله، ومقابلـة سـيّدنا «محمّـد» بالأعـلى، يطوّف بذهنـي أنّهـما سـيعيدان لي عينـيّ، سـأبصر، سـأرى العـالم مـن جديد، رؤيـة غـير مبتورة، عـلّ الذي حُرمت منـه يأتيني، ولو في حيـاةٍ أخرى.

هنـا؛ في حضرة مولاي «شـمس»، الأرواح زاهيـة، تخلّص الكثيرون مـن حكمـة الجسـد، وارتاحوا لسـمو الـرّوح، يعانقـون صفو السّـماء بطهـارة النّـور نفسـه، يتمّمـون كافّة المسـائل بإيعـاز الرّوح نفسـها، لا صـوت يعلـو عـلى صـوت القداسـة، ننسـلخ مـن أجسـادنا، ونذوب في المعـاني، نسـتغفر ونسـتغفر، يعلم بعضنا أنّ ليسـت لـه خطايا، لكنّ الاسـتغفار واجبٌ مقـدّس، والاعتراف فضيلة المؤمـن، حاولت كثيرًا أن أعـترف، إنّـما كنـت أفكّر:

- على أيّ خطيّة أعترف!

قلت: لعلّ الحبّ الصّامت خطيّة؟

هل أعترف أنّي أحببت «كيرا» ولم أبح!

أم يجب الاعتراف أنّي استمنيت عليها في الحلم مرّات ومرّات، ولم أزل!

طالما كنت أدبّ على الأرض من فوق الفِراش بعد حلمٍ ب«كيرا»، سنوات يا «كيرا» ولم أنسك، سنوات في ظلامي وأنتِ بارقة النّور، كلّ العالم يدور من حولي وأنتِ باقية يا «كيرا»، لماذا إذًا لجأت للدروشة!

كي أنسى عذابي بكِ؛ لكنّ العذاب أبديّ.

كانت عاريةً في الحلمِ إلّا من شالٍ على كتفِها، وكان جسمها يضوّي، وكانت تبتسم في وقارٍ لا يليق بالعري، هبطت عليّ من أعلى، فباشرتُ معها كلّ مخاوف الجسد وهواجسه، قلّبتني وكانت لمساتها كالحرير، ليس على الأعمى أن يُغرق في وصف ملمس الأشياء، لكنّ الأعمى يشعر باشتعال الجسد، يشعر بأنّ الخطيّة لا تكون خطيّة إلّا إذا تجسّدت في الواقع، وليس على الأحلامِ من حرجٍ، ابتلعتها بداخلي، وتشرّب جسدي بكلّ روائحها، في الحلم قلتُ لها:

- كيفك يا «كيرا»؟ آه يا فعل الزّمن.

فقالت لي:

- الزّمن يدور، يجري ويعود لمنشئِه يا «شاهين».

قلت:

- لكنّي انعزلت منذ سنوات يا حبيبة قديمة.

فزامت وهمست:

- قديمة!

ثم ألقتني من فوق الفراش، اندلقتُ على الأرض، واستيقظت.

* * *

في هذا النّهار، قتلوا مولاي، اغتالوا الشّمس.

دفنـوه ورحلـوا، دفنوه وارتاحوا من عشِـقه الذي انحدر من السّـماء، رحـت أدور داخـل أحشـاء المدينة، كمجـذوب، لا كدرويـش، لم أكن أشـعر بالزّمـن، أجلـس في الحانـات وفي الأزقّـة وبـين الشـحّاذين وفي أحضـان البغايـا اللـواتي يعطفن على حـالي، نفق عقلي يا مـولاي، كنت مـلاذي، وبعدك ليـس لي ملاذ.

رحـت أدور أتحسّـس الجـدران الطينيّـة، يقـودني جـدار لجـدار، قُربًا مـن مدفـن مـولاي، أخـذت أتعكّز عـلى خريطـة المقابر داخـل رأسي، والعـرق ينزّ من جبهتـي، أدوس على أحشـاء الأرض، وأتقدّم نحو قبر مـولاي في وجـل ودموعي تُغـرق لحيتي.

رحـت أدمـع، ووهج نـيران الحسرة يُشـعل فؤادي، يملأني الأسـى، مـع كلّ ذكـرى لي في المـاضي البعيد مع مولاي سـيدوم الأسـى.

في مرّة؛ قال لي مولاي «شمس»:

- لو أنّك ترى فقط يا «شاهين»! لرأيت واحات الله على أرضه،

لرأيـت الخشـوع وهـو يظلّـل أديـم السّـماء، لرأيت أشـجار العِشـق الباسـقة مـن حشـايا القلـوب الرّبانية.

وقتذاك، أخذت أجادله، قلت له:

- ألا يكفي أنّي أرى بقلبي!

لكنّه ردّ:

- لا، قلبك لم يعشق للثمالة بعد يا «شاهين».

أضرب في أحشـاء المقابـر، تجتاحني ومضات المـاضي، صورة «كيرا» المصنوعـة في خيـالي من نور وبراءة تتهادى، فسـقطت عـلى وجهي، بُحّ صـوتي، حاولـت أن أنـادي، لكنّي فقـدت وجهتي، لم أكـن أعرف أين المسـار، مضيت أزحف، وبقليـل من عزم ناديت، لم يسـمعني أحد، ثم صـوت مـواء يبدأ يقـودني، أتبعـه، تقع يدي عـلى ملمس ناعم اقشـعرّ لـه جسـدي، أدركـت أنّه ثعبـان، لكنّـي - رغـم ذلـك – اطمئنيّت له، أحسسـت بأنّه يسـاهم في عوني، أخـذ الثعبان يزحف كأنّما يشـدّ يدي، والهـرّة تمـشي وأتقفّـى أثر صوتهـا، حتّى دبّـت كفّي على خشـب ناتئ، فأدركـت أنّـه بـابٌ قديم، هذا ضريـح مولاي.

أتحسّـس البـاب القديم، أزيحه بيـدي، وكأنّما لم يُفتح منـذ دهر، أطلق صريـرًا وكأنّـه يطقطق عظامه، أشـعر بالثّعبـان الصّديـق يزحف قبلي، ويلـج إلى داخـل الضريح، دفنـوك يا مـولاي وحيدًا.

تشـعر يـدي بـأوراق ممزّقة جافّـة مبعثرة فـوق الأرض، والهـرّة تموء، لـو أنّ لي عينين أرى بهـما تفاصيل هذا الضّريح، فكّـرت: ما الذي يدفع

ثعبانًـا، كلّ دوره في الحيـاة أن يحمل السـمّ والموت للبـشر، أن يقودني إلى الضريح؟

لا صـوت من حولي غـير حفيف بعض الأوراق المتسـاقطة من متون الشّـجر، الزّمن يسـاوي لحظة، يسـاوي فكرة، صدفة، الزّمـن في الحياة يـا مولاي لا يسـاوي أكثـر من انتظار بـلا جدوى، أحاول استكشـاف الضّريـح بحـواسي الغريزية القـاصرة، أجل هذا الاستكشـاف المبتور، وبـدا كأنّ مـولاي سـيُبعث مـن جديـد، أمـرّر أناملي فـوق الجـدران، نتـوءات حـادّة، بدت لم تُهذّب منـذ أمد، ورائحة ثقيلة كأنّها محبوسـة في فضـاء الضريـح، وأطلقتها بدخـولي، دفنوك وتُركت يـا مولاي.

أتحسّـس أكثـر، ثـم أنكفـئ عـلى وجهـي، أبصق الـتّراب الـذي ملأ فمـي، ولكن جسـمي يقشـعرّ، مالـك يا «شـاهين»!

أحاول استكشـاف هيكل الضّريـح، أدور بيدي عليـه، أدور في رفق، ثم فجأة تصيبنـي رعدة.

الآن أبصر قلبي، الآن يا ربّي أبصر قلبي.

أعنّـي يـا ربّ؛ تلـك أسرارٌ مصكـوك عليها معك في هـذا الضّريح يا مولاي!

قال مولاي من ذي قبل:

- خرائط العِشق جغرافيا الخلاص.

إنّي عاشق يا مولاي، مثلك عاشقٌ، لم يخبُ عشقي ولم يهُن.

يدي تتحسّس الضّريح، تبدأ الإشارات تتوالى، وإن لم تزل إشارات

واهنـة، لم تتـواءم ورُوحـي بعـد، لكنّي أسـتقبل الإشـارات، أسـمع فحيـح الثعبان ومـواء الهرّة، دليلاي في غياهب الظّلمـة، يتحوّل الذّهن إلى إشـارات، عصيّـة، غـير أنّي سـأحلّلها، إرادة الرّب، لابدّ سـأفعل.

يا الله، في البدء كانت الكلمة، والكلمة إشـارة، ألا يُمكن أن تتجسّـد لي رؤيـا من عـالم الغيب؟ تمامًا مثلـك يا مولاي.

يصعـد الثّعبـان ببـطء إلى كتفي، أشـعر بـه، والهـرّة اسـتكانت جوار ذراعي، وكفّي منبسـطة فوق الضّريح تستكشـف، يُقـرأ لي، يُقرأ لي كلّ مخبـوء هـا هنا، والمخبوء سرّ لا يماثله سرّ، لم أكن أعرف أنّ الكشـف عن أسرار المـاضي قـد تُحيـي بداخلي مـا أيقنت أنّه لـن يُحيى، أنـا درويش في نهاية المقـام، عن اختيـار وإرادة وطواعية.

انكشفي أيّتها الأسرار.

ها أنا.

جلال الدّين محمّد بلخي

نيسابور/ خراسان -٦١٦ هـ

(سألته: كيف يمكن لقلبي المتناهي الصّغر أن يتّسع لكلّ هذا الألم ؟ فأجابني: اُنظر إلى عينيك كم هي صغيرة ولكنّها ترى الكون).

ضربنا في مخابئ اللّيل، يرسو بنا القدر حينًا جوار طللٍ قديم متهدّم، فنحتمي به، أو في وادٍ مهجورٍ إلّا لقطيعٍ من ذئاب، فنضطرّ أن نقيم فيه خيمة أو اثنتين نتناوب النّوم فيهما، مررنا بقرى نافقة، وبلدان محترقة، ومُدن أُبيد أهلها، رأينا أحد عشرة رجلًا معلّقين على مشانق بمدخل إحدى المُدن، تحجّرت وأنا أتأمّل المشهد، لم أكن أتوقّع أن جيش المغول قد توغّل لجنوب «بلخ»، ثم هبطت أقدامنا فوق سطح رخو ظنّناه طينًا، فوجئنا أنّها مقبرة جماعية، بعد قليل بدأت الرّوائح تستفحل داخل أنوفنا، روائح الأجسام الميّتة، والتي لم تزل دافئة، خشينا أن يكون المغول على مقربةٍ، لكن المكوث بالقرب من مقبرة جماعية كان ضربًا من جنون، لن نحتمل الأعين المحدّقة ولا الرّوائح العفِنة الطّالعة من جيف الموتى، وإن شعرنا بمدى الحسرة والألم، فهؤلاء أهلٌ لنا وإن اختلفت المُدن وشسعت المسافات، جيش المغول لم يُبق على وطنٍ سليم، اجتاحوا بلادنا وكأنّ بينهم وبيننا ثأرًا أزليًا.

اقترح أحدُنا أن نباشر المسير، لولا أنّ أبي تشبّث بأن ندفن الموتى المكدّسين فوق بعضهم في مقبرة مفتوحة في العراء بما يليق، اضطررنا أن نرفع الأجسام -رغم الرّائحة والوجل والرّهبة- ونعاود دفنها كلٌّ في قبرٍ لوحدِه، وظللنا نتلو عليهم القرآن، ونترحّم، وبكت أمّي بكاءً حارقًا، وقالت:

- ما أبشع جور الإنسان على أخيه الإنسان!

واضطررنا - أيضًا - أن ننزّل الأجسام المعلّقة في مشانق لندفنها

بدورهـا، قضينـا اللّيلة كاملـة ونحن نحفر القبـور ونُـودع الموتى إلى مثواهم.

باشرنـا التحـرّك بنفـوسٍ منهزمـة، وكنـتُ أرى الأشـياء عـلى غـير طبائعهـا، انتفـت صفـات بعينهـا مـن أصـل الأشـياء، وحـادت أمورٌ عـن أمور، وظلّـت روائح الموتـى تعاقر أنفي، قحلـت روحي، تحوّلت لصحـراء تسـكنها الهواجـس والهـلاوس والظّنـون ويسـكنها الفقـد، تختـال حـولي في الأمكنـة أشـباح رجـال هيضـت أرواحهـم في مفرمة المجـازر، يسـامرونني أحيانًـا، لكنّهـم يُفزعونـي بقيّـة الوقت.

في اللّيل، وبمجرّد أن أغمض عينيّ، أرى الرؤوس تُقتلع، والأشـلاء تتناثـر فوق وجوهنا، رأيت ملك الموت يسـبح بجناحيه بيننـا، والدّماء تفـرش آمـاد البصر، وكنتُ أتسـاءل: مـاذا لـو أنّ العـالم بالفعل يمقت الحـروب! هل كان سـيصبح مكانًا أفضل للبشر! ماذا لـو أنّ الله لم يخلق مفـردة «حرب»، هل كنّا سـنجري في طريق الدّماء حتّى نُسـتهلك!

مات فيّ إحساسي بالعالم، لم أكن أعرف إن كنت سأستعيدني أم لا.

إنّ الله خلـق «آدم» لينجـو مـن شرك «إبليس»، لا ليسـقط في الوحل، ويُدنّس نسله.

باشرنـا التحـرّك، وكنّـا عـشرة نفـرٍ أو يزيـد، توطّـدت بيننـا أواصر المحبّـة، وزاد منهـا تلـك الحكايـات التـي كانـت أمّـي تُلقيهـا أثنـاء اسـتراحاتنا في الطّريق، منها نبـوءة ظهور الإمام «المهـدي» ليُنقذ العالم مـن الظّلـم والهوان، تقول أمّي أنّه سـيخرج من «خراسـان»، وسـتتبعه جيـوشٌ عربيّة جـرّارة تحمل رايات سـود، وسـيقيمون دولة الإسـلام

مـن جديد.

كذلـك حكاية الملك الخراسـاني المسـلم، الذي صعد يومًا إلى سـطح قصره فشـاهد امرأة بيضـاء بضّة شـديدة الجمال، كانت واقفـة في شرفةٍ تجـاور شرفة قـصرِه، فراعه جمالها، فاسـتدعى جارية وسـألها: مِلك من هـذه؟ فقالت الجاريـة: إنّها زوجـة «فيروز» غلامك يـا مولاي.

استكملت أمّي وعلى وجهها ابتسامة حيّة رغم شحوبها:

- أسرع الملـك الخراسـاني يسـتدعي غلامـه «فـيروز»، وقـال لـه في دهـاء: يـا «فـيروز». قـال: لبيـك يا مـولاي. قـال: خُـذ هـذا الكتاب وامـض بـه إلى قائـد «طاجكسـتان» وائتني بالجـواب، حمـل «فيروز» المسـكين الكتـاب وانـصرف إلى بيتِـه وقد وضعـه تحت رأسـه، إذ يجهّز أمـره للغـدّ، نـام ليلته فلـمّا كان الصّبح اسـتيقظ يـودّع أهلَه كي يسـافر ملبيًّـا رغبـة مـولاه، ولم يكن يعرف مـا دبّره الملـك الخراسـاني، والملك لمّـا اطمئن لسـفر «فيروز» تخفّـى متنكّـرًا في زيّ حـارسٍ، وتوجّه لبيتِه وطرقـه طرقًا خفيفًـا خافتًا، فقالـت امرأة «فـيروز»: من يقـرع الباب؟ قـال: أنا الملك سـيّد زوجـك. ففتحت لـه فدخل وجلـس. فقالت له: أرى مـولاي اليـوم عندنـا! فقـال: زائـر. فقالـت: أعـوذ بالله مـن هذه الزّيـارة ومـا أظـنّ فيها خيرًا. فقـال لها: ويحـك إنّي الملك سـيّد زوجك ومـا أظنّـك عرفتِـي. فقالت:بل عرفتُك يـا مولاي ولقـد علمت أنّك الملـك، إنّـما سـبقك الأوائـل في قولهـم: سـأترك ماءكـم من غـير ورد، وذاك لكثـرة الـورّاد فيـه، إذا سـقط الذّبـاب عـلى طعـام، رفعـت يدي ونفـسي تشـتهيه، وتجتنب الأسـود ورود مـاء، إذا كان الـكلاب ولغن

فيه، ويرتجع الكريم خميص بطن، ولا يرضى مساهمة السّفيه.

وأضافت الزّوجة: وما أصدق يا مولاي قول الشّاعر: قل للذي شفّه الغرام بنا، وصاحب الغدر غير مصحوب! والله لا قال قائل أبدًا: قد أكل الليث فضلة الذيب. ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه...!

فاستحى الملك من كلامها، وخرج وتركها، فنسيَ نعله في الدّار.

هذا ما كان من الملك، وأمّا ما كان من «فيروز» فإنّه لمّا خرج وغادر، بحث عن الكتاب، فلم يجده معه، فتذكّر أنّه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، وزامن وصوله عقب خروج الملك من داره بقليلٍ، فوجد نعل الملك في الدّار، فطاش عقله وعلم أنّ الملك لم يرسله في هذه السّفرة إلّا لأمرٍ يدبّره، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها، ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى «فيروز» إلى السّوق واشترى ما يليق بالنّساء وهيّأ هدية حسنة، وأتى إلى زوجته فسلّم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك. قالت: وما ذاك؟ قال: إنّ الملك أنعم علينا وأريد أن تُظهري لأهلك ذلك. قالت: حبًّا وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهرًا، فلم يذكرها زوجها ولا ألمّ بها، فأتى إليه أخوها وقال له: يا «فيروز» إمّا أن تخبرنا بسبب غضبك وإمّا أن تحكّمنا إلى الملك. فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقًّا. فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه. فقال

أخـو الصبيّـة: أيّد الله مولانـا قاضي القضـاة، أنّي أجّرت هـذا الغلام بسـتانًا سـالم الحيطان ببئر مـاء معين عامرة وأشـجار مثمرة فـأكل ثمره وهـدم حيطانه وأخرب بئـره. فالتفت القاضي إلى «فـيروز» وقال له: ما تقـول يا غلام؟ فقـال «فيروز»: أيّها القاضي؛ قد تسـلّمت هذا البسـتان وسـلمته إليـه أحسـن ممّا كان. فقـال القاضي: هل سـلّم إليك البسـتان كـما كان؟ قـال: نعـم، ولكـن أريد منه السـبب لـردّه. قال القـاضي: ما قولـك؟ قـال: والله يا مـولاي ما رددت البسـتان كراهة فيـه وإنّما جئت يومًـا مـن الأيام فوجدت فيه أثر الأسـد، فخفـت أن يغتالني، فحُرمت دخول البسـتان إكرامًا للأسد.

كان الملـك متّكئًـا، فاسـتوى جالسًـا وقـال: يـا «فـيروز» ارجـع إلى بسـتانك آمنًـا مطمئنًا، فوالله إنّ الأسـد دخل البسـتان ولم يؤثـر فيه أثرًا ولا التمـس منه ورقًا ولا ثمرًا ولا شـيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسـيرة وخـرج من غـير بـأس، ووالله ما رأيت مثل بسـتانك ولا أشـد احترازًا مـن حيطانه على شـجره.

فرجـع «فيروز» إلى داره وردّ زوجتـه ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

لكنّه ظلّ يتساءل: لماذا يرى نعل الملك في دارِه كلّما ألقاه بعيدًا؟

صفّق أبي ضاحكًا يقول في إطراء:

- من أين تأتيكِ مثل تلك الحكايات؟

ردّت أمّي:

- وهل لنا غير الحكايات نأتنس بها يا سلطان العارفين!

وكثيـرًا مـا شـعرتُ أنّي بـاقٍ أشـهد عـلى الحكايـات، عـلى مـا جرى لمدينتنـا، ومـا سـيجري لمُدنِ الأحبّـة، لكنّي كنـت عاجزًا عـن التدخّل لوقـف انهيار المصائر الذي يتتالى، وبينـما كان كلّ شيء في الأفق يتداعى، كنـتُ مأسـورًا بالأحـلام المُقبضِـة الضبابية، أسـهر جـوار أمّـي وأعيد بذهنـي ترتيـب الحكايـات والأقـدار، وأتأسّـى، أتقفّـى أثـر الحوادث والخطـوب التـي جـرت، وألملـم شـظايا الذّكريـات، أقفـز مـن نقطـةٍ لأخـرى، وأسـتمع لحكايـات أمّـي، التي كيفـما يحلو لها قد تسـتطرد في حكايـةٍ عـن الأمل، ولكن عندمـا يبدأ لسـانُها في سرد حكايات الحرب والغـزو والتهلكـة سرعـان مـا أشـعر أنّهـا تقصـف أحـداث الحكاية، تقتضبهـا ربّـما لتهرب مـن تداعياتهـا الرّوحية.

وبينـما كنـت منكمشًـا جـوار أمّـي، سـمعنا صرخـةً، دوت في غيبـة السّـكون، هرولنـا جميعًـا، وجدنـا صاحبًـا لنـا قـد هجـم عليـه ذئـب شرس، فبـتر لـه ذراعـه، انقضـت اللّيلـة وكنّـا نبـاشر الاطمئنـان على صاحبنـا، حاولنا إسـعافه بلا جـدوى، إذ مع مطلع الصّبـح، كان الدّاء انتـشر في جسـمه، فغـادرت رُوحه.

ظلّـت الذّئاب تحـوّم حـول خيامنا ليومـين متتابعين، تختفـي تناورنا ثـم تظهـر ومن أعينهـا يشـعّ شرّ الجـوع، وإن لم ينقطـع عواؤهـا، كأنّما تُخبرنـا أنّها تُحاصرنـا وإن اختفت من حولنا، لم نكن نخشـاها في النّهار، حيـث كانت تلجأ للسّـفوح الخفيضـة من حولنـا وقاية من الشّـمس، وعندمـا يحـلّ اللّيـل، تبرق أعينهـا من طيّـات العتمةِ، وتبدو سـتنقضّ علينـا في أيّـة لحظـة، لولا المشـاعل التي حاوطنـا بها خيامنـا، والتي

كانـت تتراقـص عنـد هبـوب الرّيـاح الطفيفـة، فتبـدو سـتنطفئ، فترتجـف قلوبنـا حيث تدنـو الذّئاب عـن كثـب، وكلّما انطفأ مشـعل، أعدنـا إشـعاله، بعـزمِ الخوف.

ولم ننـم خـلال هذيـن اليومـين، خشـية أن تباغتنـا الذّئـاب إن غفلنا عنهـا، وفي صبـاح اليـوم الثالث، بـدت تتحـرّك قافلة عـلى مقربة، وفي يـأسٍ منّا، غـادر قطيع الذّئـاب يتّجه صـوب القافلة، وفي ظنّه سـيظفر بوليمـة أكثـر تسـاهلًا ووافـرة اللّحـم، أدركنـا أنّ الوقـت قليـل لحين عودتها، فاسـتثمرنا الفرصـة، ولملمنا الخيام والمـؤن، وسرعان ما تحرّكنا عـبر مـدّق نافذ إلى «نيسـابور».

بالطبـع توقّفـت أمّـي عـن سرد الحكايـات، وسرنا ليومـين آخرين، حتّى لاحـت لنا مشـارف «نيسـابور».

❋ ❋ ❋

«نيسـابور»، أو «أبر شـهر»؛ مدينة الغيم والضباب، يسـمّونها «باب الـشّرق»، لأنّها البّوابة التي كان يعبر منها المسـتعمرون والغزاة والرّحل في الزّمـنِ الغابـرِ إلى حيث مدائن الشّرق السّـاحرة والزّاخرة بالخيرات، ويسـمونها مدينـة الفواكـه والبسـاتين، حيث تنمو عـلى أرضهـا أنواعٌ نـادرة وفريدة من الفاكهـة والزّهور.

واسـمها «نيسـابور»، نسـبة إلى الملك «سـابور الثـاني»، الـذي أعاد بناءها للمـرّة الثّانية في المائة الرّابعة للميلاد، و «نيسـابور» تعني: عمل «سـابور» الصّالح.

هي أجمل مُدن «خراسـان»، أهلها فطرتهم طيّبة، وعاداتهم مسـتحبّة، تجّارهـا أثريـاء، إذ تخـرج منهـا القوافـل كلّ يـومٍ بأصنـاف مـن الفخّار والصّناعـات الخزفيـة والقطـن والحرير والمنتجـات الزّراعيـة، لتطوّف سـائر بلاد المشرق.

تقوم «نيسـابور» عـلى أضلع كأضلع رقعة الشّـطرنج، تـمّ تخطيطها هكـذا منـذ زمنٍ بعيـدٍ، حيـث يحتـوي كلّ ضلع عـلى ثمانيـة مربّعات، أبنيتهـا باهيـة وألّاقة، ويبـدو عليها زهـو الأثر، صباحُها مشـمس على الـدّوام، وقيـل أنّها منفذٌ متّسـعٌ نحو السّـماء، إذ يسـكنها الملائكة.

عـام ٣١ ه فتحهـا «عثمان بن عفّان» رضي الله عنـه، وُولّي عليها الأمير «عبـد الله بـن عامر بن كريـز»، أقام بها مسـجدًا كبيرًا، يقوم سـقفه على أسـاطين الآجـر، ويـدور عـلى صحنه ثلاثـة أروقـة، زُخرفـت جدرانه بالقرميـد المذهّب، وبالمسـجد أحد عـشر بابًا بأعمدةٍ مـن رخامٍ.

اسـتُقبلنا بحفاوةٍ بالغةٍ من أهل «نيسـابور»، أقمنا في منزلٍ أهداه لأبي أمير المدينـة، إكبارًا وإجـلالًا لعلمه ومعرفته بأصول الفِقـه والصّوفيّة، وتقديرًا لقبوله التدريس في المدرسـة.

تُحيـط بالمنـزل حديقة زُرعـت بزهر «الياسـمين»، عنـد دخولنا هبّت علينـا الرّوائـح، فابتسـم أبي، كأنّما اسـتراحت رُوحه للمكان.

وكانـت هجـمات التتـار تتـوالى عـلى المـدن الخوارزميـة مدينـة بعـد أخـرى، بلا هـوادة، يقتحمون الأسـوار والقـلاع ويحطّمـون البيوت، فيذبحون الرّجال ويسـبون النّسـاء، ترك هذا في أنفسـنا أثـرًا لا يمحوه زمـن، يُبـاد المسـلمون في بلادنـا، وكلّنـا عاجـزون إلّا عـن التـأسّي

والتحسّر.

يومًا قال «جنكيز خان» لأحد الأمراء:

- سأمحو بلادكم من على خريطة هذا العالم، اعتبره وعدًا.

* * *

مرّ عامٌ، وربّما أكثر، وبدا الأمرُ استتبّ، كان أبي قد بدأ التدريس في أكثر من مدرسةٍ، وألحقني بمدرسةٍ تدرّس الفقه، بدت نفسي مُغلقة تجاه التعلّم، أعرف أنّنا فقدنا وطنًا وليس من بعد الوطنِ وطنٌ، غير أنّ أبي جاهد أن يمحو من داخلي أثر العدوان الغاشم، وأثر المشانق والمقابر الجماعية، مرّة بالخروج معه وقضاء سهرة مع الأخدان في ساحة الشّعر والسّمر، ومرّة بالخروج إلى النّهر للصّيد، ثمّ ألحقني بدرس الشّاعر «فريد الدّين العطّار»، وكانت له «داروخانة» يُشرف عليها، يزوره المرضى فيبيع لهم الأدوية، يركّبها بنفسه ويحضّرها، وقيل أنّ خمسمائة وأكثر من المرضى يتردّدون على دكّانه.

في البداية رحت أناطحه ندًّا بند، وكأنّما طُوّعت لي متون المعرفة دونه، كان يصبر على عِندي وصلفي بلطفٍ، ويردّ على تساؤلاتي المُغرِضة وحججي الواهنة بصبرٍ وتفهّم، وأهداني مجلّدات من عيون الفِقه والشريعة والتصوّف والعلوم الإسلامية، فرحت ألتهمها كجرذٍ نهشه الجوع يقرض قطعة جبن، ووجدتني أبعد ما أكون عن المعرفة، بل وجدتني أجهل العلماء بالعلمِ! يومًا بعد يوم استطاع أن يصادقني، فصرت له رفيقًا يحلو محاورته والتسكّع معه بعض الأحيان، أهداني ديوانه «أسرار نامه»، ففُتنت به أيّما افتتان، رُحت

أغـوص في عـالم الشّـعر شـيئًا فشـيئًا، والعبـارات الرّوحانيـة الجذلـة، والتركيبـات والمعـاني الصّوفيـة التي تغلغلـت بداخلي، قـال لي أبي يومًا وهـو يضحـك ممازحًا:

- الشّعر أخطر عليك من التتار، «العطّار» سيُفسد عقلك.

سـهرت ليـاليَ وأنـا أعـود لأسـتذكر «أسرار نامـه» مـرّة بعـد مـرّة، حفظتـه عـن ظهر قلب، وبـدا لي أنّي يومًا قد أضاهـي «العطّار» في لغته وإحساسـه ومعانيـه وترفّعه عـن خطوب الدّنيـا، أحببت «نيسـابور» أكثـر بسـببه، كان دافعًـا حقيقيًـا للمعرفـة، فاقتحمـت بـكارة الكُتـب ومجاهلهـا أغـترف ولا أتوانـى، قرأت في الشّـعر والتصـوّف، وفي الفقه والقانـون، وحفظـت القرآن كاملًا بأكثر من لسـانٍ كي أتسـلّح باللّغة، وكان «العطّـار» يُباركنـي، ويربّـت عـلى كتفي يقول:

- خـيرُ الابـن وأنجـب التلامذة، شـغفُك هـو طريقـك إلى الحقيقة، فاصـبر على وعيـك، وكُـن محصّنًا بشـهوة المعرفـة دومًا.

قلت له:

- أريد إذًا أن أعرف عن تاريخ «نيسابور» أكثر.

تنهّدوغمغم:

- آه، كم من مرّة هجرتها ولم أستطع!

ثم مصمص شفتيه في أسى، وقال:

- «نيسـابور» حيـاة موازيـة لحيـوات هـذا العـالم، حيـاة متفـرّدة، بأكملهـا، بهـا خمسـون دربًا، تـؤدّي إلى خمسـين بابًا، وبها أعظم أسـواق

الـشّرق، سـوق «المربّعـة الكبيرة» قُـرب الجامـع، الذي يفـدِ إليه كلّ تجّـار العـرب والعجـم، وسـوق «المربّعـة الصّغـيرة» في «الأربـاض» الغربيـة، قريبًـا مـن ميـدان «الحسـينية» ودار «الإمارة»، تلك أسـواق مليئـة بالدّكاكـين، والتّجـار، تمتـدّ مـن مربّعـة لأخـرى، دون انقطاع، تتقاطـع معهـا أسـواقٌ أخـرى، تصـل جنوبًـا إلى مقابر «الحسـينيين»، وتصعـد شـمالًا إلى «رأس القنطـرة» عـلى النّهـر.

وزفر زفرةً طويلة، ثمّ أردف:

– ذكّـرني أن نـزور «رأس القنطـرة» يومًـا، إذ يجـري نهر «نيسـابور» في وادى «سـفاور»، ينحـدر من قرية «بشـتفقان» المجاورة، ستشـاهد هنـاك في هـذا الـوادي القنـاني الضاربـة عميقًـا تحـت الأرض، تلك يا «محمّـد» تظهـر على وجـه الأرض بعدما تتجاوز المدينـة، وحين تظهر، تسـقي المزارع والبسـاتين، تخيّل أنّ لكلّ دارٍ في المدينة قناة تسـتمدّ ماءها مـن هـذا النّهـر العظيـم، بـل إنّ أكثر البيـوت بهـا صهاريج يُخـزّن فيها المـاء للاسـتفادة منه في موسـم الجفاف.

ثم غمغم في ضيقٍ:

– لكنّـي لا أفهـم النّـاس هنا! هـذه الصهاريج لا يسـتخدمونها أبدًا، حيـث إنّ في كلّ بيـتٍ بئر عذبـة الماء..!

وناولني ثمرة «ريباس» بيضاء كبيرة الحجم، وقال مبتسمًا:

– خذ، هذه لا تُنبت إلّا في «نيسابور»، فقط في جبال الثّلج البّاردة..

كدت أقضم، لكنّه استوقفني مُستدرِكًا:

- احذر، هذه ثمرة لا يأكلها إلّا الرّجال، فطعمها حامضٌ مُرّ، ستنقبض معدتك.

وضحك، فقضمت قضمة كبيرة ولكتها في فمي بسرعة متحدّيًا، لكنّي سرعان ما فارت معدتي، وقمت أُفرغها من حموضة «الرّيباس».

فازداد ضحكًا على ضحكٍ وصاح:

- قلت لك لا يقدر عليها إلّا الرّجال.

في اليوم التّالي استأذن «العطّار» أبي أن أرافقه إلى جبل «نيسابور»، على مضض وافق أبي، قال له «العطّار»:

- اتركه يشتدّ عوده يا رجل، لا تخش عليه، المعرفة فرضٌ على الإنسان.

صعدنا إلى الجبل، كانت الحمائم تفرّ من سنّ الجبل إلى موطنٍ آخر، وفي عُمق الجبل مغارة، تخرج منها رياحٌ باندفاع، الغريب أنّ شلّالًا من الماء كان يندفع من بطن المغارة مع قوّة الرّيح.

قال لي «العطّار»:

- هذه مغارة الرّيح العجيبة، تكفي قوّة شلّالها لإدارة رُحى.

تجوّلنا بين الأقاليم الزّراعية التي تُسمّى «رساتيق»، كانت أرضها خصبة، وإنتاجها غزير على مدار العام، أكلنا «المشمش» و «العنب السفرجلي» الذي لا نظير له، ثم قصّ لي أنّ النّبي «محمّد» عليه

الصّـلاة والسّـلام قـد زاره في المنـام، وباركـه، وأحاطـه بـأسرار لـو عرفهـا البـشر لمـا قامـت حـربٌ في نواحـي الأرض. وحـطّ يـده عـلى جبينـي وقال:

- ليته يزورك ويباركك..!

انتهى اليوم بسرعةٍ مستهجَنة، قلت لمعلّمي:

- يومٌ وحيدُ لا يكفي في صحبتك.

فضمّني إليه طويلًا، واستبقاني مضمومًا إليه، ثم تنهّد قائلًا:

- ولا أيّام هذه الأرض تكفي يا حبيب.

وكنـتُ أرنـو ببـصري إلى حيث غدٍ ليـس مكشـوفًا ولا مأمونًـا، ولم تـزل المشـاهد التـي صادفـت رحلتنا تختلـج في ذهنـي، ووجـوه الموتى وأعينهـم المحدّقـة كأنّها تحـدّق في عُمـق ذاكرتي.

وطالمـا صحوت في اللّيـل فَزعًا، كانت أمّي تُـسرِع بجلب كوب ماء، ثمّ تقـرأ القرآن وهي تطبطب على رأسي، وتمسـح عليها بأصابعها.

وليلـة بعد ليلـة، تغزو أحلامـي الكوابيس، رأيـت قرودًا، وأبالسـةً، رأيـت وجوهًـا تشـبه الشـمع، كانـت سريعًـا تـذوب متـى حاولـت القبـض عليها بـين حدود العـين، رأيت شـوارع ممتدّة مغطّـاة بنتوءات لم أكـن أفهـم كيف تظهـر أو متـى تظهر؟

رأيتني مخلّصًا للأرواحِ، إنّما بيني وبينها غيمٌ وضبابٌ وشياطين.

ورأيتني مسحوبًا للعدمِ كمن نُودي عليّ.

ورأيتني أعوم وسـط سـحاب، وسـط متاهات لا تخلـص، ثمّ تنطلق

صرخـةٌ، تحتضـن المسـافة فيـما بـين الأرض والسّـماء، فتنحـسر كافـة أصـوات الحياة، ويبقـى صداها يطنّ؛ كزئير «عزرائيـل» داخل الآذان.

رأيتنـي مُحاطًـا بمئـات الأرواح، التي تدفعنـي ربّما للحاق بـروحٍ ما، مئـات الأرواح التـي تصطـفّ على جانبـي طريقي وأنا أسـير في الحُلمِ.

ومـن كابـوسٍ إلى كابـوس، ألمحهم متناثريـن حـولي في كلّ الأمكنة؛ الرّدهـة، المطبـخ، الحـمّام، الشّرفـة، الحديقة، غرفـة النوم.

لم أفكّـر في طريقـة للخـلاص منهـم بقـدر مـا كنـت أفكّـر مـا الذي يدعوهـم لزيـارتي؟ الغريـب أنّنـي بعـد فـترة، رحـت أشـعر أنّ بعض الأرواح تكاشـفني عـن خطاياهـا، وأقف أمام مرآتي، أتحسّـس تشـقّق بـشرة وجهـي من السّـهر وعـدم راحتـي، أدقّـق النبش عـن هويتي في أعـماق مجهـول ذاك الوجـه، وكثـيرًا مـا يحـيّرني أنّنـي لا أجدني.

مـع الأيّام، بـدوت رقيبًا عـلى الأرواح، مشـبكًا واهنًـا تتأرجح عليه في هـذه الحيـاة، كانوا يرشـقون في منتصـف رأسي بأعينهـم البرّاقة، فلا أنـام، الهمسـات تتبعثـر حـولي لا أكاد أفسّرهـا، لا أدري أيّ أسرارٍ هذه التـي تتزاحم نحـو عقلي! لا أدري كيـف أحملهـا.. ولا كيف أحفظها؟ أسرار.. أسرار.. توصيـات.. مراثـي، كلّها احتمالات الـوداع المباغت، أنـا آخر وجـوه الأمل ربّما، أو لعـلّي العزاء الذي لابدّ منـه، لم أعد أفهم!

وكثـيرًا مـا كنـتُ أشـدّ لجام الفـرس وأضرب بـين الطّرقـات، في منتصـف اللّيـل، أو في ولـوجِ الفجر، أخـترق مجاهل الطّرقات عسـاني أسـتريح، وأمخر عبـاب الرّيـح في ألـق، أرى الأرواح تسـبح حـولي إذا التفـتُّ، تقـترب محلّقـة بسرعة من زجـاج عينـيّ، أرتدّ بـرأسي، تبتعد،

تتناوب النقر عليه روح بعد أخرى، والهمسات تعلو، تعلو، أطياف غير بشرية تتكدّس حولي، مثل موج يتلاطم فيرفع نبضات الحيرة، الأسئلة تنهمر عليّ من كلّ اتّجاه، سرعة الفرس تزداد، والأرواح في أعقابنا.

الوقت ليل، واللّيل لا يُخفي عن بصري تفاصيل المقذوفات التي تشقّ الطّريق عكس اتّجاهي، لكن الفرس في لحظة تتوقّف، وتستدير برأسها إلى الوراء، فأستدير معها.

وهناك، فيما وراءنا تمامًا، تنبذر غرفةٌ في الخلاء، تنبذر من عدمٍ، بابها مفتوح على مصراعيه، وينطلق منها وهج ضوء، وعلى فراشٍ من خوصٍ داخل الغرفة، كان ممدّدًا ساكنًا لا يحمل أثر النّجاة، تجلّطت -من اقتحام الرّيح كلّ منافذ الغرفة- دماءٌ، قد تفشّت على سائر ملابسه، أقترب أكثر فأكثر، شيئًا فشيئًا، وجهه مطمئن، ابتسامته مألوفة تحمل ارتياحًا عجيبًا، ابتسامة «عزرائيل»تطلّ من عينيه دون خجل.

وهناك، فوق الفراش، داخل الغرفة، رأيت جسدي ممدّدًا ليست به حياة.

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة -٥٩٩ هـ

(إلهنا حيٌّ، إذ ماذا نصنعُ بإلهٍ ميّتٍ؟).

ركنتُ إلى حضرة مولاي الإمام ونفسي طائعة، أدركت إنّما أنا لست أكثر من درويشٍ راءٍ لم يلبس ثوب الحكمة بعد، لم يقتصد عليّ مولاي في نصيحةٍ أو علمٍ أو تساؤل، وكان يقابلني حجّة بحجّة، وذريعة بذريعة، وأضاء لي جوانب غامضة في ثنايا رُوحي، وبدأ جوهر الوجود يتبلوّر في فؤادي.

بهدوءٍ – ويومًا من بعد يوم – تعوّدت استكشافَ التّفاصيل التي يحفل بها بيت مولاي، شَعَرت كثيرًا أنّ حالةً مزاجية موّحدة تستولي على الكلّ هنا، فمجموعة قد تنهمك في جلسة ذِكر يَخرج ترتيلُها متواترًا منسجمًا دون غرابة أو استهجان، ومجموعة في جوار قريب قد تُجهّز الطّعامَ والشّراب للمجلس، وجماعة يأتي نقر طبولِها من إحدى الغُرَف في جوف الدّار متناغمًا وإيقاعه تطرب لها الأُذُن، لم أمنع نفْسي في الحقيقة أن أختلس نظرةً عابرة وأنا أمرّ بجوار هذه الغرفة بالذّات، بداية ما لازمت تكيّة مولاي ودراويشه، لعلّ فضولًا استأثر بحفيظتي وقتذاك وأنا أمرّ مِن أمامها، كان بعضهم يرتدي ملابسَ تشبه ملابس الزّهاد، مجرّد أقمشةٍ متّسخة وعمائمَ خضراءِ اللّون كأنّها مقلوبة إلى أعلى تتّخذ شكلًا هرميًا، تستدير في إحكام مع استدارة الرّأس ثم تنتهي إلى فوق بطبقاتٍ تزداد عرضًا وتضفيرًا، تتهدّل مِن رقابِهم سلاسلُ مصنوعةٌ من أحجار مختلفة الألوان، تبلغ منتصف بطونهم، تمامًا كلحاهم التي تفترش صدورَهم في إهمالٍ وعشوائية، وربّما زهدٍ فريد، كثيفة كثافة بدت وكأنّما تغزو الوجهَ كلّه، فلا تعرف الفرقَ بين رَجل وآخر، ملامحهم كلّها مختبئة وراء

الشَّـعر الهائـش الذي يسرح مـن ذقونهم في شـتّى الاتجاهـات، كانوا يـدورون خلـف بعضهم في تواتـرٍ بدا معتـادًا، منتظـمًا، وفيه دقّـة كأنّها مخطَّطـة، لكنّي كذلك في هذه اللحظة المسروقة – عفوًا – اسـتطعت أن ألمـح امـرأةً متغضّنـةَ الوجه، عيناهـا خطّان رفيعـان لا تُميّـز بينهما فتحةٌ محـددة، جِلـد وجهِهـا مكرمَش مـن شـدّة الكِبَر، تلبـس عباءةً سـوداءَ اسـتحال لونُهـا باهتًا من تأثـير الأتربة، كأنّها لم تخلعها مِن على جسـمها منـذ سـنوات، وتنسـدل إلى مـا بَعـد كتفيهـا طرحـةٌ يغيـب تحتهـا ثلثا وجههـا، كانت متربّعـةً في منتصف الدّائـرة وأمامها بِضعُ قِـدورٍ تفوح منهـا روائحُ نفّاذة بشـكل ما، يخـرج الدّخان مـن فوّهتها كثيفًا مضموغ اللّـون، وتتناثـر قبالتَهـا أعضاءُ مِـن طيور مذبوحـة، كان ريشُـها هائمًا يسبَح في الهـواء في دوائرَ وسـط الرّجـال الذين يلفّون في عـدم انقطاع، قـال لي مولاي:

– هـؤلاء هم صُفـوة الدّراويش يا «شـمس»، وهبوا أنفسـهم لله منذ زمنٍ.

– ليتنـي مثلهـم يـا مـولاي، أعشـق الله وأراه، وإنّما ثمّـة منقوصٌ في عشـقي، لا أفهـم بعد مـا هو!

– حين يأذن الله، سيهب نفسه لك أولًا.

كانت دروبُ بيتِ الشّـيخ كمدينةٍ فسـيحة، بيت واسـع، بـدا لا آخر لـه، وبـدا واضحًا أنّ مـولاي لم يبخـلْ في الإنفاق عليه، ففـي كلّ ركنٍ وكلّ ملـف، تظهـر التّحف الباهظة الأنيقـة والتماثيـلُ الضّخمة، وعلى الجـدران تتهدّل السّـجاجيد الغالية ومسـابحُ مِن فضّـةٍ وذهب.

- تلك هبات الأحبّة.

قال مولاي.

وفي كلّ التفافةٍ لي بداخلِ البيت المقام على هذه المساحة الهائلة، كانت الأصوات تغيب رويدًا، والبخور يتبدّد، يسحبني هدوء روحاني إلى مسالكَ ملتويةٍ متعرّجة مختلفة، ومولاي يتقدّمنا دون أن يُصدِر صوتًا.

أنضمُّ للحلقة، نبتهل ونقرأ الأدعية وننسلخ، نغادر ثيابنا فننطلق إلى السّموات، يخامرنا شعور الترقّي، ونطوّف بين سرايا الإحساس كأنّنا لم نكن بشرًا، ولن نكون. يدقّ الطّبل وتتراقص الأدمغة، تلتحم الأجسام، وتغيب العقول، وتغدو الحلقة دُخانيّة اللّون، مُفرِطة الضّبابية.

ويصبح الزّمن مثله كالعدم، إذ تتوقّف الأرض عن الدّوران، لحين تتوقّف رؤوسنا عن الدّوران.

* * *

في المساء، أرافق مولاي إلى عُرسٍ، يجلس ويجلس جواره مريدوه، العُرس يدور، ومولاي يبدو عليه الانبساط...!

العُرس انبساط، إنّما الجميع يذوبون في الجميع، كأنّهم يمارسون فاحشة مُعلنة.

قال لي مولاي:

- تؤخّذ الدّنيا على علّاتها يا «شمس»، هؤلاء يُخطئون حتمًا، إنّما

بهجتهم نادرة، والصّباح للاستغفار، يشربون الخمر، وفي الفجر يمضمضون أفواههم ويدعون الله التّوبة، يتحرّشون بالنّساء اللواتي يرقصن، ولو بأعينهم حتّى، لكنّ هذا مباحٌ في كلّ الأعراسِ، يحسد الرّجالُ رجالًا آخرين على نسائهم ذوات الأجسامِ الفائرةِ الرّشيقة، أو ذوات الأعينِ المكحّلة، أو ذوات الوجوهِ البيضِ النّاصعة، ويصفّقون لمن تُحسن الأداء في الرّقص، تتفنّن وتتمزّج وتتنغّج، التضوّع يا بُني حيلة أخيرة ووحيدة لجلب الاستحسان ومصمصة الشّفاه بحسرة، التلوّي وسيلة لإبراز المفاتن، النّساء بالطّبع فيهنّ من جاوزت الأربعين، وفيهنّ من حبلت أكثر من عشر مرّات، وفيهنّ من جار عليها الزّمن، وفي الأعراسِ، على ساحة الرّقص، كلّ واحدةٍ لابدّ أن تجعل زوجها فخورًا بما امتلكت يداه، الواحدة منهنّ تحدج زوجها بنظرة لئيمة كأنّها تقول له: لم يجُر عليّ الزّمن بعد.

أمّا الرّجال فهم يتفنّنون أيضًا في تنميق الشّوارب وتهذيب اللُحى وهندمة الجلابيب والعمائم والقفاطين، لهم مع الدّنيا باعٌ وباع، أرجَلهم من يشرب قنطارًا ولا تلفّ رأسه، الغريب أنّهم جميعًا يسكرون، وتدور أدمغتهم، ويأتون الأفعال التي تجلب الخجل وقت تذكُّرها، لكن الله كريم، غفور، كلّهم يصبحون بعد الخمر والشّرب والمسخرة متساوين في المقام والهيبة والوقار، بمعنى أدقّ؛ في عدم المقام أو الهيبة أو الوقار، يعني في هذه اللّيلة يا «شمس» قد يقوم فلان ويُراقص امرأة فلان، درجة أنّه قد يحكّ ذكرَه بمؤخرّتها، لكن الله كريم، كلّه سكران، وآخر قد يشدّ بنت فلان من عباءتها، والله

ستّار يا بُني، ليلة وتفوت، وحالما تفوت اللّيلة، ليغترف كلّ واحدٍ من محاسنها كيفما اتّفق، لا بأس من بعض الأنس والتسرية.

قلت له متعجّبًا:

- أنت تقول هذا يا مولاي..!

- لسنا أرحم من الله بعبادِهِ يا «شمس».

هناك، خارج بيوت المدينة، في السّاحة الكبيرة، يقدح الزّمر، وتتمازج الأجساد، وتترنّح الرؤوس، بالضبط كأنّها تنتظر نحرها.

لكنّ مولاي ظلّ يدمدم:

- بعض الرّجا نجوى، بعض الرّضا عنّا، نجّنا يا الله.

والرّقص يشتعل، تفور النّساء، ويشتهي الرّجال، تتحطّب مواضع الذّكورة، ويرنو كلّ رجلٍ إلى امرأة رجل آخر، كذا تفعل النّساء، لا يُمكن أن يُقاس معطوب بسليم، تمامًا كما لا يُمكن أن نقيس عقلًا مُدركًا بعقلٍ قد ذهب، لذا؛ فليأتِ الجميع حسنات اللّيلة لأنّ الأعراسِ لا تدوم ولا تحدث كلّ ليلة، ما أندر الأعراسِ في مدينتهم على حدّ قول مولاي!

في عشيّة هذه اللّيلة، استغرقني نومٌ عميق، وراودتني رؤيا خصبة.

رأيتني قادمًا من حشاش الأرض، كماردٍ عمره ألف عامٍ، وفي سلطتي شفط أهل الأرض بين ضلوعي كشجر أوراق خريفيّة، في سلطتي أن أثب لشمال الأرض ثمّ أثب لجنوبها في لحظتين متتابعتين، كنت سامقًا برأسي إلى سجف السّماء، الباديّة نورًا وسحابًا وزرقة،

ولكنّـي في هذه الرؤيـة لم أر الله، ولا رأيت ملاكًا، فقط رأيت وجهها، بل وباحت لي باسمها، سألتها:

- من أنتِ؟

قالت:

- حوريّة.

- واسمك؟

فردّت:

- «كيميا».

ثـم اعتلتني وراحت تمشّـط شـعري بأنامل يديها، فغفـوت بين يديها كصغيرٍ اشـتهى النّوم.

أفقت فهرعت إلى مولاي، قصصت عليه رؤياي، فهزّ رأسَه وقال:

- أبشر، هي لك.

قلت:

- مَن..!

- حوريّتـك، قسـطٌ مـن عِشـق الدّنيـا يغـذّي عشـقَك الأكـبر أيّهـا الدّرويـش.

انقطعـت عنّـي الرؤى لأيّـام وأيّام، غـير أنّ وجه «كيميا» ظـلّ عالقًا كغيمـةٍ في خيـالي، لكنّي لُمت الخيـال الذي يصنع لي حوريّة تُشـتهَى ولا تُطال.

وفي سـوق الزّيـوت بوسـط المدينـة، بعد شـهرٍ مـن رؤيـاي أو يزيد،

قابلتهـا، لم أكن أتصـوّر –مجرّد تصوّر– أنّ الواقـع يُمكنه أن يمنحها لي، إذ كفـرت بالواقع منـذ زمن، وهيض إيـماني به مقابل العِشـق الأعظم، كانـت تتمشّـى عـلى مهـل، وكانـت تضـوّي، وكانـت سـاهمة تتأمّـل وجـوه النّاس.

مـا زالت بنـت الحلمِ سـاهمةً وهـي تتابـع بعينيها ولـوجَ الحركـةِ إلى قلب السّـوق، رجـل عجوز مرّ أمامها وابتسـم لها يغازلها، فابتسـمتْ، أدركـت أنّ الحوريّـات يُلاحظـنّ رغـم ذلـك، مـا تلا هذا بـدا صخبٌ لـن ينقطـع حتّى نهاية اليـوم، راحت حركةٌ تدبّ بحشـودٍ مـن الوجوه المكـشّرة التـي لم تـزل آثـار الوسـن عالقـةً بهـا، ومـن شـوارعَ جانبيـةٍ أخـذت عربات البضائـع التي تجرّها البِغـال والأحصنة والحمير تتوافد بشـكل متواتر، امتلأ الجو بضجيـجٍ مدوّ، وروائح الغبـار والأتربة التي سرعـان مـا راحت أقـدام المـارّة تتناقلهـا في عجلة، همهـمات التحيات والسّـلامات تنتـشر داخل أجواء السّـوق.

قلـت أبادرهـا، لكـنّ خـوفي كان أكـبر، إن كان ردّ فعلهـا قاسـيًا سـيُفتضح أمـري ولعـلّي أُرزق بعلقـة سـاخنة..! ومـا أنـا إلّا درويـش مهلهـل الثّيـاب.

في لحظـة اختفـت، رحـت أبحـث بعينـيّ عنهـا، وكانـت قـد أكلها الزّحـام.

مضى اليوم، انتظرتُ في مُحيط السّوق أن تظهر ثانية، دونما جدوى.

مضى اليوم، ومضت بعده أيّام.

لم أعُد أحتمل، كاشفت مولاي بهمّي وعدم احتمالي، فقال لي:

- اصبر يا «شمس»، في الصّبر زُهد.

- ولكنّي.....

فسكتُّ، ابتسم يُكمل:

- سنزوّجها لك، إنّما دع الأمور تمضي كيف يشاء الله لها.

- لكن يا مولاي..

بدا استبطن ما تحرّجت من قوله، فقال:

- لك السّكن والمأوى.

وخبا بريق رؤياي، اقتصرت أحلامي على «كيميا»، إن غفوت نهارًا وإن غفوت ليلًا، استحكم طيفها ببصيرتي وبصري، وكدتّ أجنّ، وفي يومٍ، استدعاني مولاي، وقال لي:

- ارتدِ ثيابًا تليق بعريس.

لم أصدّق نفسي، وقفت أمامه طويلًا عاجزًا، لعلّي أخرّف، أو لعلّ مولاي يخرّف هو الآخر.

صاح بي مولاي متفكّهًا:

- تأدّب، واجل عقلك من تلك الوساوس الماكرة.

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٢٨ هـ

طيـورٌ تتسـكّع حـول الصّليب المنبثـق نحو السّـماء، ترفـرف في بطءٍ يدعـو للتأمّـل، تـدور دوراتٍ يسـاورها شيءٌ مـن زُهـد واطمئنـان، لا أعـود ببـصري عنهـا إلّا حين تشـدّني أمّـي لندخل الكنيسـة.

الباحةُ واسـعةٌ ونحن نتقدّم بخطوات شـابها ارتعاشُ التجربة، كيف لم نَـزُر الكنيسـة الكُبرى يا أمّي ولـو لمرّةٍ في حياتنا؟ توقّفنا عند اسـتدارة أحـد الشّـمامسـة، والذي رمقنـا بدايةً بعينٍ مسـتغربة، كأنّه يتسـاءل عن داعٍ لزيارتنـا، ثـم سرعـان ما بَـشّ وجهُه حـين انطلقت أمّي تلثّـم يدَه، وأنَا مِـن بعدِها.

- تفضّلا.

تبعنـاه، وثمّـةَ طريـقٌ مضـاءة بالشّـموع تُفـضي لغرفـة الصّلـوات، رحـت أجـوب بعينَـيّ متفقّـدةً فالتفـت الشـمّاسُ نحـوي يهمهـم:

- هنا لا تنطفئ الشّموع لا باللّيل ولا بالنّهار.

باركني يا أبتِ، كُن لي ملاذًا أستجير به من الحيرة.

دلفنـا، وبأعـلى الغرفة صـورةٌ ضخمة للعـذراء وهي تضم «يسـوعَ» الصغـيرَ بـين يديهـا، وقـد خـطّ في متنهـا: «أيّتها غـير الدّنسـة العفيفة، القدّيسـة في كلّ شيء، التـي قدّمـتْ لنـا اللهَ محمـولًا عـلى ذراعيها».

جلسـنا في غرفـة الصّلـوات، وكان قـسٌّ يصـلّي في غمغمـةٍ أشـبه بالنّشـيج، وعينـاه مليئتـان بالدّمـوع، أمـام صـورة للعذراء والمسـيح:

- «لكـن أحزاننـا حملهـا، وأوجاعنا تحمّلهـا؛ ونحن حسـبناه مصابًا مضروبًـا مـن الله ومذلـولًا، وهو مجـروحٌ لأجل معاصينا، ومسـحوقٌ

لأجـل آثامنـا، وبجبره شُـفينا، كلّنـا كغنم ضـالّ، مـال كلّ واحد إلى طريقـه والـرّب وضـع عليه إثمَ جميعنـا، ظُلـم، أمّا هو فتذلّـل ولم يفتح فاه، كشـاةٍ تُسـاق إلى الذّبح، وكشـاةٍ صامتـة أمام جازريهـا لم يفتح فاه، سـكبَ للمـوت نفسـه، وأُحصيّ مـع الأثمة وقـد حمل خطيئـة كثيرين وشـفع في المذنبين».

ثم أضاف بصوت متهدّج:

- باركنا يا يسوع.. آمين.

وغَسل وجهه بكفّيه، ولما أدركنا أنّه انتهى، دنونا منه، وقبّلنا يدَه.

- بوركتما..

وجلسـنا في رحابِـه قليـلًا، كان يمـضي ببـصره يتفقّد صـورَ العذراء التـي ترصّـع الجـدران، وفـوق وجهـه ابتسـامةُ رِضـا وعرفـان، وأخذ يهمهـم ولم يَـدْنُ ببـصره منّا:

- في سـائر الأجيـال تقـف العـذراء مِـن التّاريـخ في مركـز الدّائـرة، اختارهـا الله لتصبـح همزةَ وصلٍ بين الأرض والسّـماء، بين فردوسَـيْن؛ المفقـود والمـردود، مِـن أجلهـا نعظّـم الله، ومعهـا، «مباركـة أنـتِ في النّسـاء ومباركـة ثمـرةُ بطنِك».

ثـم اسـتدار إلينا وقـد عاجلته دمـوعٌ أخـرى طفيفة، انحـدر بعضها فكلّـل لحيتَه، أبـصرني صامتةً تعلو وجهـي ملامحُ ضيق، وكنـتُ ألوذ بصمـتٍ، ربـما كانت تجيش بذاكـرتي وقائعُ مضـت، رغـم أنّي حاولتُ كثـيرًا دفنَهـا، لم يسـتفسر ولم يعلّق، أكمَـل بعد تأمّل مُسـتغرِق وهو

ينهج، وبدا قد أحسّ بحيرتي:

- يا بُنيتي إنّ العذراء ملتقى الباغين طيبًا، «يوسف» حين أدرك حمْلها، لم يرضَ أن يشهّر بها، وآمَن بالمعجزة، «يا يوسف ابن داود لا تَخف أن تأخذ مريمَ امرأتك، لأنّ الذي حُبل به فيه هو مِن الرّوح القدس»، لم تكن العذراء «مريم»، أو «يوسف» رَجلها، مِن العائلات الغنية، فـ «يوسف» نجَّار بسيط، وحين جاءت ساعة ولادتها، لم تجد غيرَ المذود لتلِد فيه، وحين أرادا أن يقدّما الطّفلَ «يسوع» في الهيكل حسب عادة الناموس، وعن تطهيرها حسب الشّريعة، لم يحملا معهما إلاّ زوجَ يَمام، أو فرخَيْ حَمام، وهي تقدِمة الفقراء.

أمّي تستمع وعلى وجهها خشوعٌ لا إرادي، ومضت تدمدم في خفوت، وتقطّر الماءَ المقدّس من الإناء فوق جبهتها، وقساوسةٌ ورُهبان يدلفون، ينحني بعضهم على أُذُنِ القسّ يهمهمون، ثم يمضي كلّ في هدوء.

كدتُ أقول له أنا يا أبانا أكرهُ صنفَكم، كلّ الرّجال نُسَخ لا نهائية من القمع والشّهوانية، خاصة الرّهبان، لكنّي آثرت أن أحتفظ بمَقْتي داخلي، قبّلنا يدَه ثانية ثم تقهقرنا عنه وفي قلب أمّي بَرَكة لم يُخفِها وجهُها، في الطّريق قالت أمّي:

- ارتحتِ يا «كيرا»!

نظرتُ لها بجنب عيني مؤيّدةً وقلتُ في نفْسي: «يكفي أنّكِ ارتحتِ يا أمّي».

الحياةُ مِن حولنا تدبّ في أوصال المدينة سريعًا، لكنَّ الحياةَ في قلبي

تأبـى الحِـراك، مالِ كلّ شيء يعتريه سـأم لا نهائي! ليس السّـلامُ بقريب إذًا! ليس ثمّةَ شـعورٌ يكتنفني يُرشِد للسّلام، خشـيتُ من نفسي، أُدرِك أنّ النّفـسَ عظيمة الوسوسـة، وأنّ هناك شرًّا يعتمِـل في ذهني، لا أدري مِـن أيّ جانـب سـيأتي أو في أيّ زمـن، لكن هنـاك شرًّا، لا محالة، أحسّ بـه إحساسًـا متوهّجًـا، شـديد الأخـذ، وكنـتُ أدعـو الله أن يقيني شرّ نفسي.

أمّـي تدركُ منذ زمنٍ أنّ شـيئًا باطنًا يلهج في أحشـاء لسـاني، لم أفصِح لهـا، أسراري مُرعبـة، والبوح بها مهلَكة.

شاهين

قونية/ الأناضول -٦٤١ هـ

يقول مولاي «شمس» في كِتابه «قواعد العِشق الأربعين»:

- يوجد مُعلّمون مُزيّفون وأساتذة مُزيّفون في هذا العالم، ربّما أكثر عددًا من النّجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السُلطة وبين المعلمين الحقيقيين، إذ أنّ المعلّم الرّوحي الصّادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقّع طاعةً مُطلقة أو إعجابًا تامًّا مِنك، بل يساعدك على أن تُقدّر نفسك الدّاخلية وتحترمها، إن المعلّمين الحقيقيين شفّافون كالبلّور، يَعبر نور الله من خلالهم.

- وكيف نكتشف نور الله يا مولاي؟

- بألّا تحاول أن تقاوم التغييرات التي تعترض سبيلك، بل دَع الحياة تعيش فيك، ولا تقلق إذا قلَبت حياتك رأسًا على عقب، فكيف يمكنك أن تعرف أنّ الجانب الذي اعتدتَ عليه أفضل من الجانب الذي سيأتي؟

- أشعر أنّي ممزّع أحيانًا يا مولاي، إذ كلّما ألحّ عليّ نزعٌ أُلقيت لضدّه.

- يقبع الكون كُلّه داخل كلّ إنسان في داخلك، كلّ شيء تراه حولك، بما في ذلك الأشياء التي قد لا تُحبها، حتّى الأشخاص الذين قد نحتقرهم أو نمقتهم، يقبعون في داخلك بدرجات متفاوتة، لا تبحث عن الشّيطان خارج نفسك أيضًا، فالشّيطان ليس قوّة خارقة تُهاجمك من الخارج، بل هو صوتٌ عادي ينبعث من داخلك، فإذا تعرّفت على نفسك تمامًا وواجهت بصدقٍ وقسوةٍ جانبيك المظلم

والمشرق، عندها تبلغ أرقى أشكال الوعي، وعندما تعرف نفسك فإنّك ستعرف الله.

- دومًا أخشى من الطّريق التي أتّخذها للوصول إلى الله، حيث يُمكن أن تكون طريق الشّيطان.

- لا تهتمّ إلى أين ستقودك الطّريق، بل ركّز على الخطوة الأولى، فهي أصعب خطوة يجب أن تتحمّل مسؤولياتها، وما أن تتّخذ تلك الخطوة، دَع كلّ شيء يجري بشكل طبيعي، وسيأتي ما تبقّى من تلقاء نفسه، لا تسِر مع التّيار، بل كن أنت التّيار.

- حاولت كثيرًا يا مولاي أن أدع نفسي تصنع الطّريق، وتصنع التّيار، لكنّي طالما شعُرتُ بضآلتي حين أفكّر في الله.

- لقد خُلقنا جميعًا على صورته، ومع ذلك فإنّنا جميعًا مخلوقات مُختلفة ومميّزة، لا يوجد شخصان متشابهان، ولا يخفق قلبان لهما الإيقاع ذاته، ولو أراد الله أن نكون مُتشابهين لخلقنا متشابهين، لذلك فإن عدم احترام الاختلافات وفرض أفكارك على الآخرين يعني عدم احترام النّظام المقدّس الذي أرساه الله.

- اسمح لي يا مولاي، أين الله؟ أين يُمكن أن نجده بالضبط؟ ألا ترى أنّ حياة الدّروشة لا تختلف عن حياة الزندقة!

- عندما يدخل عاشق حقيقي لله إلى حانة فإنها تُصبح غرفة صلاته، لكن عندما يدخل شارب الخمر إلى الغرفة نفسها فإنها تُصبح خمّارته، في كلّ شيء نفعله قلوبنا هي المهمّة لا مظاهرنا الخارجية، فالصوفيّون لا يحكمون على الآخرين من مظهرهم أو من هُم، وعندما يُحدّق

صوفيٌّ في شخصٍ ما فإنّه يغمض عينيه، ويفتح عينًا ثالثة، العينُ التي ترى العالم الدّاخلي.

- كلّما حاولت أن أشعر بعالمي الدّاخلي، تطرّفت من فرط التساؤلات.

- ما الحياةُ إلّا دينٌ مؤقت، وما هذا العالم إلّا تقليدٌ هزيلٌ للحقيقة، والأطفال فقط هم الذين يخلطون بين اللّعبة والشيء الحقيقي، مع ذلك فإمّا أن يفتتن البشر باللّعبة، أو يكسِروها بازدراء ويرمونها جانبًا، في هذه الحياة تحاشى التطرّف بجميع أنواعه، لأنّه سيحطم اتزانك الدّاخلي، فالصّوفيُّ لا يتصَرّف بتطرّف، بل يظلّ مُتسامحًا ومعتدلًا على الدّوام.

- ولكنّ العالم غابةٌ، التّسامح فيها مهلكة.

- يتبوأ الإنسان مكانة فريدة بين خلق الله، إذ يقول الله: «ونفختُ فيه من روحي»، فقد خُلقنا جميعًا من دون استثناء لكي نكون خلفاء الله على الأرض، فاسأل نفسك كم مرة تصرّفت كخليفة له، هذا إن فعلت ذلك؟ تذكّر أنّه يقع على عاتق كلّ مِنّا اكتشاف الرّوح الإلهية في داخله حتّى يعيش وفقها.

- الخوف أن نمضي عمرنا بحثًا عن الله وفي نهاية الأمر تكون آخرتنا جهنّم.

- إنّ جهنّم تقبع هنا والآن، وكذلك الجنّة، توقّف عن التفكير بجهنّم بخوفٍ، أو الحُلم بالجنّة، لأنّهما موجودتان في هذه اللّحظة بالذّات، ففي كلّ مرّة نُحبّ، نصعد إلى السّماء، وفي كلّ مرّة نكره أو

نحسد أو نحارب أحدًا فإنّنا نسقط مباشرةً في نار جهنّم.

- لكن ما أشدّ ما تثير فينا أفعال البشر السّخط يا مولاي!

- لا ضرر ولا ضرار، فقط كن رحيمًا، لا تكن نمّامًا حتّى لو كانت كلماتك بريئة، لأنّ الكلمات التي تنبعث من أفواهنا لا تتلاشى، بل تظلّ في الفضاء اللانهائي إلى ما لا نهاية، وستعود إلينا في الوقت المناسب، إنّ معاناة إنسانٍ واحد تؤذينا جميعًا، وبهجة إنسانٍ واحد تجعلنا جميعًا نبتسم.

- ولكنّهم يؤذونني يا مولاي، أسمعهم يسخرون منّي وأضطرّ للصّمت .

- يُشبه هذا العالم جبلًا مكسوًا بالثلج يردّد صدى صوتك، فكلّ ما تقوله سواء أكان جيّدًا أم سيّئًا، سيعود إليك على نحوٍ ما، لذلك إذا كان هناك شخص يتحدّث بالسّوء عنك، فإنّ التحدث عنه بالسّوء بالطّريقة نفسها يزيد الأمر سوءًا، وستجد نفسك حبيس حلقة مُفرغة من طاقةٍ حقودة، لذا انطق وفكّر طوال أربعين يومًا وليلة بأشياءٍ لطيفة عن ذلك الشّخص الذي يعمد إلى أذيتك، إنّ كلّ شيء سيصبح مختلفًا في النّهاية لأنّك سَتصبح مُختلفًا في داخلك.

ثمّ فجأة شبّ ناهضًا، وزام يقول:

- أين النرجيلة يا درويش؟

جلال الدّين محمّد بلخي

نيسابور/ خراسان -٦١٨ هـ

(يا قلب، لا تُجالس إلّا الذين يفهمونك
ويعرفون حقيقتك، يا قلب، لا تجلس إلّا تحت
الشّجرة المُزهرة).

سوف تعيش، قيل لي ستعيش، سوف يُدام لك خلودٌ لم يكن لبشرٍ من قبلك، ولا من بعدك ربّما، أنت كأنت، لا فارق بينكما إلّا مثل ما يُشبه الخيط الواهن، النّهار والّليل، الأبيض والأسود، خيط مهما تتّبعته لن تلحظ امتداده بين نقيضين، أجل لا فارق بينكما غير الزّمن، وما أسخر الزّمن!

قيل لي ستعيش، وقلت: لكنّ مثلي لا يموت. كيف يموت مَن في قلبه غصّة وجحيم؟ إنّ المحسورين يا مولاي لا يموتون، التّاريخ لا يُهلكهم، يموت الجميع ولا يموت هؤلاء الذين فُطروا على الألم، أوليس التّاريخ بشاهدٍ؟

في مدينتي يا مولاي مات كلّ شيء عدا إرث الفجيعة.

تخيّل يا مولاي أنّي سعيت وكأنّما أقرّر مصير هذا العالم، العالم بحاجة إليّ، لا تبتسم هكذا يا مولاي، لست مجنونًا وإن كنت على حدّ الخبل، كما أنّك لست مُطالبًا بتصديقي اليوم، قدر أنّك يجب أن تستمع لحكايتي.

في الحقيقة إنّها حكايتهم، أو...

لعلّها حكايتك يا مولاي، استمع فقط.

* * *

خلال هذين العامين، قبل غزو التتار «نيسابور»، التهمتُ الكُتب والصحائف والمراجع بشغفٍ عظيمٍ، وساعدني أبي من علِمه وأزادني، غير أنّي دلفت إلى طريقِ الصّوفيةِ على استحياء، كان «العطّار» قد

هاجـر مـرّة أخـرى، لكن أخبـاره لم تنقطع، أكثـر من مرّة بعث رسـولًا يُطمئننـا على أخباره، سـواء في النواحـي المجـاورة، أو البعيدة، وعكفِ عـلى تأليف كتـابٍ فآخـر، فشـغله هذا عـن اسـتئناف علاقتـه بالعالم، فاعتـزل، وبتنا نسـمع عن أخبـاره كلّ أمدٍ، وقـد التـزم في عامِه الأخير –قبـل هجرتِـه – بضريـح الإمـام «الرّضـا»، ثـمّ فجأة سـاوره هاجس الترحـال، قـال لي آنذاك:

– تهفو نفسي لرحلةٍ لا أعود بعدها.

زرتـه في بيتِـه، وكان يحتضـن أوراقـه في شـجنٍ، بـدا مهزومًـا، أو بدا مختّـلًا، لم أسـتنبطّ علّتـه عـلى وجـه التحديـد، لكنّه ظـلّ يهذي:

– إنّـما تلك الأوراق أطفالي، سـأظلّ أبعثرهم وألملمهم، سـأحدّق في المـرآة وأخلّل بأنامـلي رماد رأسي.

ثم استدار لي يهتف:

– هـل تعـرف كم عمـري! خمسـون انحنـاءة تتلّـوى فـوق وجهي، خمسـون انحناءة يا رجل، تخيّـل! لكن الحلم قادم، وسـيأتي الله يناديني: أما حانـت رحلتُك؟

قلت أواسيه:

– مولاي، إنّ الله بداخلك، بداخل كلّ عاشق.

صاح:

– الله بعيد، بعيد، لكن لو أنّه في قبضة يدي..!

ثم لطم أوراقه فسقطت على الأرض، وهمهم في يأس:

- أنجبتهم بطريقٍ غير شرعي، أنجبتهم سفاحًا، بسببهم، فارقني الحلم.

- تريّث يا مولاي، إن هي إلّا حالة طارئة..!

- كلّا، منذ زمنٍ تزوّجت رأسي، وأنجبت منها هؤلاء.

وأشار نحو الأوراق المبعثرة على الأرض.

ثم فجأة لملمها، وكوّمها فوق بعضها، عند زاوية جوار جدارٍ خالية من سجّاد وفرش، ثمّ تناول مصباحًا، ورماه على الأوراق، فاشتعلت.

بعدها؛ كبّر تكبيرة عالية، وصلّي على الأوراق.

أيقنت إنّما أدركه جنون المعرفة.

جاءتنا الأنباء أنّه ارتحل من برّ «مصر» إلى «دمشق»، ومنها إلى «الكوفة»، ثم نزح إلى «الهند»، بعدها عاد فاستقر في «كدكن» قريته الأصلية، واشتغل تسعًا وثلاثين سنة من حياته في جمع أشعار الصّوفية وأقوالهم بعدها، لم أقابله من بعد مغادرتي «نيسابور».

و قد روى في «اشترنامه» أنّه رأى النّبي في أحد أحلامه وأنّ النّبي باركه، كما روى لي قبل ذلك، ومن كتبه المتأخّرة كتاب اسمه «مظهر العجائب»؛ عن منظومة في مدح «علي بن أبي طالب»، وإن بدت الميول الشيعيّة في هذه المنظومة غالبةً.

لذا؛ كان نشره لهذه المنظومة دافعًا لبثّ رُوح الغضب والتعصّب لدى أحد الفقهاء السّنيين من أهل « سمرقند»، إذ أمر بإحراق

نسـختها، بـل واتّهـم «العطّـار» بالإلحـاد وأنّـه مسـتحقٌّ للمـوت والإعـدام.

ثـم أمعـن في الكيـد لـه فاتّهمـه بالكفـر لـدى «بُـراق التركـماني»، وحـرّض العامّـة عـلى هـدم منزلـه والإغـارة عـلى أمتعتـه، واضطـرّ «العطّـار» بعـد ذلـك إلى أن يرحـل ويلجـأ إلى «مكة» –كـما اضطُررنا بحجّـة الحـجّ – حيـث ألّـف كتابـه الأخـير «لسـان الغيـب».

لكنّـي نحـوت لحفـظ الشّـعر بأنواعِـه، وتوغّلـت في أنـواعِ العلوم، أهمّهـا «فِقـه الحنفيـة»، وكان هـذا بمباركـة أبي.

لاحـظ الجميع في «نيسـابور» براعتي واهتمامي بالعلوم الإسـلامية، فرُحـتّ أدرّس في إحـدى المدارس، آمنت بتعاليم الإسـلام السّـمحة، واسـتطعت اجتـذاب أنـاس مـن ديانـات وملل أخـرى، إذ استراحوا لتفكـيري المـرن المتسـامح، فالـكلّ عـلى حـدٍّ سـواء، إن كان مسـلمًا أم مسـيحيًا أم يهوديًـا، الإسـلام نفسـه منحنـا مرونـة التّسـاهل مع جميع المعتقـدات الأخـرى، وإن كان لابـدّ، فلنعلّـل المسـائل بتعليـلٍ إيجـابي يرقـى بالفِكـر الإسـلامي التنويـري، وإن كنّـا نؤمن بالإسـلام، فنحن نؤمـن أيضًـا بـكلّ الدّيانـات السّـماوية، حيـث إنّ كل مفاهيمهـا لا تتعـارض مـع إيمانـنا بالإسـلام في حـدّ ذاته.

قال لي مسيحيٌّ ذات يومٍ:

– لقد رأينا المسيح عبرَكَ يا مولانا.

فردّ عليه يهوديٌّ:

- ولعلّنا رأينا «موسى» أيضًا.

فردّد بعض التلاميذ المسلمين:

- لقد التقى الأنبياء جميعًا على راحةِ يدِك.

وفي رحلتي مع العلم، ارتحلت مع المعاني الإلهية، الإنسان أعظم من خلق الله، قادر على التّواصل مع كلّ مفردات الكون، خلاف المخلوقات الأخرى، ما الذي يميّزنا عن الجبل أو الشّجرة أو الطّير؟ اللّغة. وهبنا الله خاصيّة اللّغة، التي ينبغي أن نحصّنها بالمعرفة والتشبّع، بل وأن نحملها على كواهلنا ونسلّمها للأجيال المتتابعة.

وإنّما سياق الألم لا يفارقنا، ففي هذا العام، اجتاح التتار «نيسابور»، وكنّا قد استرحنا إلى أنّ نزيف الحرب سيتوقّف، لكن لا جدوى، في صباح غائم، استيقظنا على ضرب المنجنيق، رأينا الأسوار تتهدّم، والأشلاء تحلّق، والأبنية تتهاوى، رأينا الحرائق تشتعل والأناس يفرّون مشتعلين من داخل بيوتهم، رأينا الجنون يعصف بالمدينة، كلّ شيء بدا يتداعى في لحظة، كلّ شيء عافرنا لأجله وتحمّلنا، حطّموا المدارس والجوامع والآثار، كأنّما يسكُنهم غلٌّ وانتقامٌ وحقدٌ تاريخيٌّ لم يفهم أحدٌ كيف نشأ! دخلوا على البيوت يحشّون الرؤوس بسيوفهم، ويهتكون النّساء، وبخيولهم يدهسون الأطفال، إنّ العالم في حدّ ذاته بدا متآمرًا علينا، العالم والتّاريخ والقدر، مصائر مدائن بأكملها تتساوى مع عدمية الصّفر.

من «نيسابور» هاجرنا ثانية، ارتحلنا إلى «سوريّة»، ثمّ لم يستطب

لنـا المقام فارتحلنا إلى «مكّـة المكرّمة» بدافع الحـجّ، باشرنا طقوس الحجّ ولكنّنـا كنّا على حدّ الكفـاف، إذ لم يتيسّر لنا العمل، فواصلنا المسـير إلى غـرب «الأناضـول»، وقرّر أبي أن يسـتقرّ في «كارامان» حيث اشـتغل مدرّسًـا لعلوم الفِقه.

لكـن حالنا أخـذت تنحـدر للأسـوأ، أدرك المرض طريقه إلى جسـم أمّـي، فبـدأت في الوهـن، كان المـرض يفتـك بجسـمها سريعًـا، بـلا هـوادة، وفي ليلـةٍ مـن تلـك الليـالي التـي كان ينبغـي أن تسترسـل في حكاياتهـا عـن المُـدن البعيـدة، أغلقـت عينيهـا، ولم تفتحهـما ثانية.

في تلـك اللّيلة تشـاجرت مـع الله، أصابني جنـونٌ وانفصـامٌ وحنقٌ، صعـدت إلى سـطح البيـت ومـددت رأسي لـيراني، صحت به:

- أما كفاك!

لكنّه بدا لم يسمعني، تطاولت أكثر فأكثر، صرخت:

- ضاع كلّ شيء بسبب قدرك!

وإنّما كانت السّماء راسـخة فوقي بلا معنى، ولا كأنّ راوية الحكايات المُلهمـة قـد أفلـت، ولا كأنّ لها ابنًا سـيحترق كمـدًا، ولا كأنّ الله خلق هذه المُـدن التي أهرقها الطُّغيـان والذّل.

من شـدّة صراخـي، بُحّ صـوتي، فانهرت، دفنـت رأسي بـين ركبتيّ، وانطلقـت في البـكاء، هل هذا هو البـكاء الصّادق يا الله؟ هـل كلّ هذه الدّمـوع الحبيسـة كفيلـة بترجمـة الأسـى والحسرة اللذيـن يحاصرانني وينخـران في قلبي المضطـرب الآن؟

أغثني فإنّي هزمتني الجُروح.

على إثر موت أمّي، ذبُل أبي، بدا لا يريد أن يُباشر طبائع الحياة، إذ انزوى، وانبرى يُناجي الشّخوص الغائبة قسرًا، يخاطب «بلخ» الضائعة، و «خوارزم» التي شاهت بِفعل الغُزاة، يخاطب أمّي التي رحلت دون بادرة، وتركته وحيدًا يناضل لأجل أن يستهدفه الموت بدورِه.

لكنّه استمسك بقراءة القرآن، وكان يقضي ردحًا من اللّيل يصلّي، ويناجي أمّي بتضرّع، وتبتلّ لحيتَه بالدّموع، وكنت أراقبه من وراء حشاش النّافذة، وأظلّ أبكي مثلما يبكي، لا يكاد يشعر بنا أحد يا أبي في ظلّ غيبة الوطن، تتقطّع سُبل وثاقنا بالعالم شيئًا فشيئًا.

بعد رحيلِ أمّي بما يناهز العام، ارتحلنا ثانية، كانت «المدرسة المستنصريّة» قد أرسلت لأبي رسولًا بخطابٍ يدعوه للتدريس هناك في «بغداد»، وسيتكفّل كبير المدرسة بإقامتِه.

خرجنا من «كارامان» لا نلوي على بُغية، كان أبي قد بدا استوطنه التّيه من بعد أمّي، وضربته النّحافة فبرزت عظام وجهه، وشدّ ما أدركنا أوجه التباين بين المذاهب الدّراسية عند وصولنا إلى «المدرسة المستنصرية» ومباشرة التدريس بها، كان التلاميذ نابهين وعندهم القدرة على استشفاف الملابسات وتفنيد المسائل وردّها إلى أصولها واستخلاصها من علّاتها.

نزلنا في «المدرسة المستنصرية» وأقمنا في دورٍ بالطّابق الثّاني، يُشرِف على باحة المدرسة، كُنت أصحو تخالجني ذكريات أمدٍ قريبٍ،

وتخامـرني حكايـات أمّي عن «المسيخ» و «الرّايات السّـود»، فأجدني أنـصرف إلى ضحـكٍ دون دافعٍ، وتتواتـر أمام بصري صـور الأحداث جميعهـا، كأنّـما كانـت بالأمس، يجيـش البصر بغبـار الأحصنـة وتناحر السّـيوف وصليل السّـيوف، فيباغتني الأسـى، كالعادة.

تمـرّ الأيّام، وتهـون الخطـوب رويدًا، ويشـفّ طيف أمّـي الرقراق في عينـيّ يومًـا من بعـد يوم، وبعـد أن كان الأسـى باتت السّـكينة، حيث دامـت أمّي تـزورني لتيسّر عليّ مشـاق الحيـاة ووعـرة أحداثها.

أجلـس في شرفتـي المطلّـة عـلى الباحـة الواسـعة الظليلـة بأشـجار «اللالنكـي» و «الرارنـج»، تُقبـل الرّوائـح فتعمـر جنبـات الـرّوح، وعـلى كـرسي من خيـزران في قلب الباحـة يجلس عـازفٌ، يضرب على الوتـر في حمـاسٍ وفي انبسـاط، يطلع النّغـم طيّعًا يمسّ شـغاف الفؤاد، أغمـض عينيّ وأسـلّم نفسي للنّغم، يطربني ويربّت عـلى خفايا الرّوح، أتمايـل معـه وأروح، أدندن، وأنا أرشـف من فنجـال «الزنجبيل» بروية واسـتمتاع، والعـازف في عُمـق الباحـة يـضرب الوتـر بشـجنٍ أكـبر، وعـزمٍ أصلـه ذوبـان في مناحي اللّحـن، وفي مجاهـل النّغم.

وكان أبي يسـتنفد دروسـه مـع التلاميـذ في رتابـةٍ وفي غـير ارتيـاحٍ أو التـزامٍ، وبـدا لا يـود أن يسـتكمل الطّريـق في أروقـة «المدرسـة المسـتنصرية»، قـال لي في يـومٍ:

- أما آن أن نستكمل رحلتنا؟!

فقلت في دهشةٍ:

- بعدما طاب لنا المستقرّ ها هنا يا أبي..!

- إنّما نفسي لا تتواءم والمكان.

- هنا يقدّرونك يا أبي ويحتفون بعلمك ومعرفتك.

- ثمّة هاجس بداخلي يا بُني.

- «بغداد» أرضُ علمٍ وأمان يا والدي.

- وكم من أرضٍ آمنةٍ خذلتنا وبدّدت مصائرنا..!

ولم نستقرّ في «بغداد» مدّة طويلة، أصرّ أبي على الرّحيل رغم تمسّك كبير «المدرسة المستنصريّة» به، بل إنّه عرض عليه عروضًا مجزية، وقال له صراحة:

- يا شيخ «بهاء»، «المستنصريّة» في حاجة لعلمك.

- أمر الله يا مولانا.

ومع رحيل خيوط شمس المغربية، كانت قافلتنا ترحل عن «بغداد»، ولم يكن أبي ليأسى على فراقها كثيرًا.

كلّما أخذنا نمضي بعيدًا عن «بغداد»، تضخّ فيه الحياة أنفاسها، وقلت في سرّي: ما أغرب أبي! لا يرسو به الزّمن على برٍّ آمن.

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة – ٦٢٤ هـ

(قالوا: إنّ النّجاة في الصّدقِ، لكنّك لا تستطيعُ أن تقول الصّدق للنّساء لأنّهنّ يُفضّلن الكذب).

ومساءً، تكون الدنيا مغسولةً بالسّكينة، نمشي وراء ظلال الأشجار تحت إنارة القمر المتسربلة، تنفتح علينا شبابيكُ الوجد من السّماء فرِحة، نخرج مِن أجسادنا التي تقيّدنا ونطير، ولا ندنو من السّحابات أكثر ممّا يستلزم، حتّى لا تبتل أرواحُنا يا «كيميا»، نطلّ على العالم الرتيب ونُخرج له ألسنتَنا، لن نكتفي بك أيّها العالم!

ستصحبنا هتافاتُ الأولادِ الذين يلهون في الطرقات: (لا تعودا.. لا تعودا.. السّماء أحلى كثيرًا)، وفي الليالي التي يكون فيها البدرُ منتشيًا، والدّنيا تلمع في أملٍ يشعّ على البشر أجمعين، نتساحب وراء التماهي اللذيذ، لا يهمّنا أن نكون غيرَنا، غير هذا الحبّ الفائض فوق الكون، فانبتيني يا «كيميا» كغصنٍ من شجرةٍ وارفة في الجنّة، وربّما.. ربّما يا حبيبتي.. سأتحوّل إلى عود قرنفلٍ حين يجِن اللّيل.

لم نكن نخرج إلى الشّوارع كثيرًا، إلاّ عندما ينتابنا هاجس المعايشة، أن نرى الوجوهَ ونتصفحّها، رغم أنّنا لم نكن في حاجةٍ حقيقية لذلك، صَنَعنا لنا عالمًا مغلقًا علينا نحن الاثنين، اختصرنا كلّ الحياة بالخارج هناك في هذه التّكية الضّيقة التي منحها لي مولاي بطيبِ خاطرٍ.

وكنتُ دومًا أحسّ أنّ «كيميا» هي نهاية وحشةِ الاغتراب التي عشتُ فيها مِن قبل، بل في الحقيقة كانت أمثولة تصوّر عشقي الأكبر؛ عشق الله، كأنّ الله قد تجلّى وسكن «كيميا»، وكانت ترى الأشباح والأرواح وتكلّمهم، ولها هبةٌ في استبطان جوانب الرُّوح، وعادت الرؤى تتكشّف لي في منامي بهيّة ناصعة، رأيت الغيب ورأيت الله وسهرت في معيّة الملائكة، وكانت «كيميا» حين تفتح

عينيهـا بعد عـصر كلّ يـوم؛ وغالبًا ما يحـدث وأنا محتضـنٌ إيّاها على سريـر واحـد، ثم تَبقـى لوهلةٍ تسـتدرك الخـط الواهي بين الاسـتيقاظ والغفـو، تلـك اللّحظة التـي إمّا تفـرك فيها عينيهـا بجذل وإمّـا تعاود النـومَ مجدّدًا في شـهيةٍ لم تكـن معتادة من ذي قبـل، أحـسّ وكأنّها زهرةٌ تتمطّى للحياة، تُشبِع فيّ كلّ خلجات شـهوة المراقبـة، تتلوّى بجواري في كسـلٍ، أدفعهـا بقدمـي مداعبًا فتنتفض وتنـطّ عاليًا مِن عـلى السّرير ثـم تنقّض عـليّ بالوسـادة، وتهتف: درويـشٌ مزعِج!

تُـسرِع إلى الحَـمّام، وقبـل أن تغلـق وراءها البـابَ تجذني وثبـتُ معها للدّاخـل، نتعـرّى معًـا في خفـةٍ وانتشـاء، ينسـكب المـاء الفاتـر عـلى جسـدينا فيخفّف ألمَ الإحسـاس بكلّ ما يحيط بنا، أتسـاءل كيف يمكن لأجسـادنا أن تكـون بمثل هذه المرونـة الفجائية؟ أن تتحـرّر بمجرّد أن يزاولها الجنـون؟ وهـل في ظـلّ المتناقضات التـي تمرّ على أجسـامنا مِن مـسراتٍ وملـذات أيّ ضعف؟

كانـت محقّـةً «كيميا»، فأصغر اختيـارٍ يمكنه أن يؤكّد أنّنا متمسّـكان بالوجـود، هو التوّحـد بيني وبينها، تقول كلّما تعثرّنـا بالبلادة والخمول أكثـر كلّما تاقت أجسـادُنا لنزوة التغيير، وأقول يـا «كيميا».. يا صغيرتي الجميلـة.. لا نـزوة في تجربة التغيـير.. كلّ ما هنالك أنّنـا وقعنا على أهم حقيقـة في حيـاة كلّ منّـا.. وهـي أنّ العشـقَ لا يجـيء مصادفـة.. القدَرُ يرتّـب ويهيئ ويفـرض علينا هذه الحقيقةَ بـلا إرادة.

ننتعـش في أوقـات، ويصيبنـا الـشّرودُ في أخـرى، تتواطـأ الأمزجـةُ بطبيعـة الحال مع كلّ إحسـاسٍ لم يُجرّب عن وعي أو اسـتباق، يسـتولي

علينـا هـدوءُ المسـاء وسـكينة فنـاء بيـت مـولاي، الغـافي في وداعة، تقـول «كيميا»:

- مذاقُك كمذاق البخور.

- ومذاقك كمذاق دمعة من عينِ الله إن بكى عاشقًا يموت.

فتضحـك في صفـاءٍ وسـعادة، تسـند رأسَـها عـلى فخـذي، فأمسّـد شَـعرَها بأصابعـي، وأهمهِـم في دلال:

- فقـدت وجهتـي إذ رأيتـك أوّل مـرّة يـا أيقونتي، واليوم اكتشـفتها مـن جديد.

فتقبـض على يدي وتسـبل جفنيهـا وتتنهّـد، كيـف كان لي أن أعرف أنّ روحـي تفتقـد كلّ هـذا الكـمّ الهائل مـن الحيويّـة؟ لم أكـن أدري أنّ الحماسَ له سـكّة داخل نفسي، بعـد أن كدتُ أتعثّر في جميـع المنغصّات القديمـة، وكنتُ أتعامل مـع كلّ ما يؤرقنـي وكأنّي لا أراه، بل لا أرغب بأيّـة حـال في رؤيتـه، المجنون صـار اليـوم عاشـقًا أزليًا، فرغـت الدّنيا الآن إلاّ منّـي ومِـن «كيميـا»، وقلبـي راح يُثمِر عن الوجـد مِن جديد، وشَـعر «كيميا» المبتّل يسرح فوق فخـذي ويدغدغ الحيل، آه يا حبيبتي، الألـوان تغـزو الحياةَ مـرّةً أخـرى، كلّ المَشـاهد الرّمادية تلاشـت، كم حكايـةٍ مـن قبـلُ صغتُهـا ولم أؤمِـن بهـا! الآنَ هـذا الفرح الـذي ينمو بداخـل قلبينا يجعلنـي أؤمِن بك يـا «كيميا»، أؤمِـن أنّ الأجسـادَ مجرّد مجـازٍ في الحيـاة، الأرواحُ هـي مـا يبقـى مِـن المطحنـة الشّـقية، لنصوغ حكايتنـا معًا، ولنجسّـدها معًا، ودَعيني لأول مـرّة في عمري أتمكّن مِن إتمـام حكايـة وفقًا لرغبتي الكامنـة في أبعد حدود الخيـال، دَعي رغبتي

تتّسع وتتجدّد، ولأكُن سيّدَ موقفي في زمن نبتاعه معًا رغم الظّلام الذي قد يكتنف الحكاية، كلّ ظلال التّاريخ ستسكننا يا «كيميا»، وسينبع نورُ اليقين مِن داخلنا عمّا قريب.

العِشق معناه مكتملٌ لديكِ يا حبيبتي.

❋ ❋ ❋

أزواج من العشّاق كانوا قد بدؤوا في التلاقي أسفلَ المظلات الخشبية التي تستر غرامَهم بودٍ وتشجيع في حديقة الشّارع قبالتي، استغربتُ من الأحبّة الذين يفتتحون يومَهم بتفريع شحنات الشّوق التي باتوا ليلَهم يختزنونها داخل القلوب، لم تكن السّاعةُ قد تأخّرت بعد، إنّما كلّ شيء كان وديعًا رغم اللّغط والصخب، كلّ شيء هنا وكأنّه رُتّب ترتيباً عفويًا، دون مساس بهندام اليوم الذي في الغالب لا يختّل، جستُ فيها بعينَيّ، بدت كأنّها تشعر بوحدةٍ امتلكت ملامحَها، ولها أشهر على هذه الحال، أوجعني ذلك، أيّ وحدةٍ هذه التي تشعر بها وأنا جوارَها! لكن هل أكفي لسدّ ذلك الإحساس؟ إنْ كنتِ تشعرين بالوحدة يا «كيميا» فذلك سينقضي عمّا قريب، ألمْ تدركي حجمَ المخاطرةِ حين خاطرتِ مع درويشٍ مثلي؟ لا شيءَ يأتي بسهولة؟ خاصة المغامرة، وطالما فعلتِ فاستمرّي، ولا يُحبطكِ خوفٌ أو حزن.

رحت ببصري نحو الحديقة ثانية، شعرتُ بدوارٍ مستحَب وأنا أستنشق العطورَ المنبعثة من مساحات الزّهور، يقينًا نحن نشبه هذه الزّهور، نحن واهنون، لكنّنا لم نزل نعرف معنى البراءة ونترك أنفسنا

للحيـاة تعبث بنا متى تشـاء.

اقتربـتْ مِنّـي «كيميـا»، وفي ودّ مفاجـئ تطلّعـتْ نحـوي بعينيها ثم جذبتني لنتوارى خلف سِـتار الشّرفـة، تطلّعتْ لي بنظرةٍ تطلب الكثير، أهمّـه الأمـان، وبجـرأةٍ مـن دون مقدّمـات حطّـت بيدِها فـوق رأسي، وتوسّـدت رأسـها كتفـي، وانطلقت في نحيـبٍ خافت، كانـت كلماتُها خارجـةً مسـقيةً بالدّموع وهـي تقول:

- رائحة غريبة.. هل تعرف ما هي تلك الرّائحة؟

وتنشّقت الهواءَ وهي مغمضة العينين.

أمّـا أنا فـشردتُ، أحسسـت أنّي هشّ للغايـة، تمامًا كهذه الفراشـات التـي تحوم حول بسـاتين الـورود في الحديقـة، كومضاتٍ مـن ذكريات مؤجلـة، تأبى مفارقةَ الخاطـر رغم أنّه لا يستسـيغها، أكملتْ «كيميا» بصوتٍ مشروخٍ:

- رائحة طفلٍ ضنّ علينا الله به.

ضممتُها برفق إليّ أكثر، ودموعها السّـاخنة تلسـع رقبتي، أحسسـتُ حيالهـا بعطـف مـن نـوع غريـب، وكأنّهـا وُلِـدتْ عـلى يـدي، أو كأنّنا خرجنـا للتـوّ مـن بطـنٍ واحـدةٍ كتوأميْن يشـقّ عليهـما الانفصـال ولو للحظة.

مـا مأسـاتُنا في الحقيقةِ يـا حبيبتي؟ ما الـذي يقف حائـلًا بينك وبين الفضّ؟

تنهّدت، راح عقلي ينبش في التداعيات، انصرفتُ بسرعةٍ إلى نفسي،

كأنّما الوجع واحد، جعلتُ أتساءل ما الذي ينقصني بالفعل؟ طفلٌ؟ ما جدوى الحياة نفسِها إنْ كانت لا تُعيرُنا فرحة؟ لكن ما علاقةُ كلّ هذه التّساؤلات بمشهدِ الصّبي الصّغير الذي يسير بين الحقول يُلهبه أديم العِشق؟ يسير في الطّين وتحت حرارة الشّمس، وكأنّ العالمَ يختزل طموحاتِه في طريق العِشق كلّ يوم!

تأمّلتُ كثيرًا في ضعفِها واحتباس الألم داخل حلقها، وفي وجعي، فهمستُ لها بصوت خفيض وأنا أمسح جبينَها بأناملي:

- لو أنّنا نغادر لحياة غير هذه..!

* * *

كانت تراودني الرؤى، إنّما كانت أشبه بالكوابيس، حدّ أنّي كنت أصحو مفزوعًا أصرخ كأنّي ممسوس.

في ليلة راحت مشاهد العالم القديم تدور في رأسي، أسلمت نفسي للنّوم، وفي نومي وجدت ريحًا تقبض على عينيّ، كانت جفوني أضعف من أن تنفتح وتهبني الرّؤية، ظللت أشاكس بيديّ يمنة ويسرة، دون جدوى، أركل كلّ شيء من حولي لعلّي أرى، فلا أرى، ثمّ يظهر بوجهه الساطع؛ شيخٌ كبير، أبيضُ الوجه وفضيُّ الشّعر، ما أشبهه بمولاي «ركن الدّين»!

يمدّ لي ذراعه بقطعة قماش رائحتُها مسك، ويقول لي:

- هذا قميص النّبي.

- عليه الصّلاة والسّلام.

أتنـاول القميص بغبطة بها شيء من الرّهبة، فتنقشـع الغيـوم، وتتبدّد الرّيـح، وأفتـح عينيّ، وأرى هذا البسـتان الـذي لا آخر له.

ثمّ استيقظتُ، وبدت روحي مثل ينبوعِ ماءٍ انفجر توًّا.

دعكـت عينـيّ وتثاءبـت، يـا لـه مـن حلـم! رائحـة المسـك لا تزال سـاكنة أنفـي، قلـت: لعلّـه خير.

استيقظتُ وكانت «كيميا» لم تستيقظ بعد.

سُـكنت مؤخّرًا بحلـمِ أن يكون لي ولـدٌ يعينني على مسـارب الدّنيا، وأحيانًـا؛ كنـت أنفُث من صـدري دخـان الغضب تجاه «كيميـا» بداعٍ أو بـدون داع، كنـت أعلـم أنّ غضبـي عـلى كلّ الأشـياء التـي لا تدعو للغضـب زاد مؤخـرًا، ومـن داخـلي أعـرف تمامًـا أنّ الثّـورة ليسـت لأسـباب كتلـك، لعلّـه الحرمـان بالفعـل، لي أكثـر مـن خمسـة أعـوامٍ متـزوج ولم تنجـب «كيميـا»، الأطبّـة حيّرهـم أمرنـا، أنا سـليم وهي سـليمة ومشـيئة الله أكـبر مـن العلّـة وأكبر من شـفائها.

اقترضـت مـن مـولاي مـالًا للأطبّـاء دون جـدوى، دُرنـا عـلى كلّ مشـايخ وعطّـاري وأئمـةِ «حلـب» بـلا طائـل، والحقيقـة أنّ «كيميا» كانـت محبّـة، ودامـت تصـبر عـلى عشرتي.

قال لي مولاي:

- لا تؤخـذ الأمـور عنـوة يـا «شـمس»، ولا يُمكن للقـدرِ أن يتبدّل لمجـرّد الرّغبـة، إن قـال الله كُن كان يـا بُني.

نور الصّباح يثب إلى الصّالة حين تفتح «كيميا» النّافذة، نور

الصّباح يخمش عينيّ.

آه، لكـم تبـدو لـه الأشـياء قديمـة! تبـدو وكأنّها أسـفل طبقـات من الـتّراب، «كيميـا» كذلـك تبدو قديمـة، يعتليها الغبـار، وأنـا؛ أنظر إلى نفـسي، أحسسـت أنّي أبـدو قديمًا.

وماذا بعد العِشق يا حبيبتي؟

الملـل؛ هـذا الملـل، ينـشر طـلاءه فـوق الجـدران، يـضرب جـذوره داخـل أعماق نفسي، الملل يسـكنني، ويسـكن «كيميا»، ويسـكن حتّى كلّ زوايـا البيت.

أدخـل إلى غرفـة النّـوم، أحـاول إلهاء نفـسي بالبحث عن أيّـة تسرية، أو ربّـما نمـت ثانية، لا بـأس من تكرار تفاصيل اليـوم، إنّما الغرفة، حين أدفـع بيدي بابها، تحتضنني، حضنًـا غريبًا، الغرفة؛ مالهـا دافئة مثل هذا الـدّفء! تّـرى، لم يختلـج فـؤادي بإحسـاس طمأنينـة مبهمـة! ورائحة المسـك هـذه كأنّها من الحلـم خرجت لتعبـق واقعي!

نـورٌ يـضيء الغرفـة كنـت أحسـبه شـمعة المصبـاح، فلـمّا جسـت تفاصيلهـا، ودنوت من فراشي، وجدتُ النّور مشـعًّا مـن هناك، دقّقت عـلى فـراشي النّظر وتسـمّرت، لم أر نـورًا كهذا من قبل، ثـم حين خرج صـوتي بعد قليـل، خـرج عاليًا، فرحًـا، مناديًا عـلى «كيميـا»، هرولتْ فزعـة فشـددتها من يدهـا وأشرت نحـو الفـراش وهتفت:

- اُنظري.. قميص النّبي!

«كيميا» ابتسمت ابتسامة كأنّما تتّهمني بالخرف، ثم أخذت تحدّق

في الفراش وقالت:

- قميص جميل، متى اشتريته؟

- قلت لكِ هذا قميص النّبي.

- كما تشاء، واضح أنّك عُدت للدروشة يا «شمس».

ضحكت متدلّلة، ثم خرجت وهي تهزّ كتفيها، كيف لا تصدّقني؟ أثق أنّ هذا هو قميص النّبي، لقد أعطاه لي الشّيخ في الحلم، نفس القميص، برائحته، يا لهذا الإحساس! قميص النّبي على فراشي! الغرفة أضيق من فرحتي، وددت لو أحلّق بالقميص بعيدًا، سحبت إلى صدري كلّ هواء الحياة، وتخيّلتني مرفرفًا بجناحين يلبسان قميص النّبي، أطير فوق آلاف السّنين وأجاوز الزّمن، كلّ هذا النّور في قميص النّبي، تُرى: كيف كان نورك يا نبيّ؟

كانت الأيام تتوالى والقميص بضيائه المبهر ورائحة المسك مطبّق فوق رفّ وحيد في الدّولاب، كنت هائمًا في نور القميص، لعلّ «كيميا» أيقنت بخفّة عقلي، اعتزلتُ داخل غرفتي سارحًا في ملكوت القميص، إنّما النّفس؛ هذه التي تهفو دومًا -بشكل يتعسّر قبالته المقاومة- إلى السّمو، حرضتني، فيومها، قرّرت خوض التّجربة، سأرتدي القميص، فقط للحظات قليلة، لابدّ أن أرتوي من هذا النّبع الصّافي ولو لبعض الوقت، لابدّ وأن أشعر بهذا الملمس الربّاني الرّوحاني على جسدي.

توضّأت، ووقفتُ كثيرًا أمام المرآة أتساءل:

- هل أنا مهيّأ لارتداء قميص النّبي؟

أمسـكته، الملائكـة تفرده وتمسـك يـديّ وتضعهما برفـق داخل كمّي القميـص، يدًا يدًا، جـدران الغرفة تتباعد وتتباعد ويحتوينـي هذا النّور المدهـش، بـرودة منعشـة تسري في الجـو، رائحة المسـك تتغـيّر، رائحة المسـك تختلـط في أنفـي بروائح أخـرى لا مثيل لهـا على هـذه الأرض، بخـورٌ يتراقـص دخانه في الهـواء، ملائكـة تصفّق بأجنحتهـا في الأفق، والهـواء ذاتـه يبـدو لي ريحًـا هادئـة هادئة تحمل نفـسي إلى بدايـات زمن الصّفـاء، قبـل الحـروب وأوبئـة الحـروب، قبـل انكسـارات النّفوس، فـأصرخ منتشـيًا، أجري في السّـماء بين البسـاتين الخضراء وبين حقول الوجـد، وأجـري، العالم يـدور وتتبـدّى لي غياهب عقـلي المظلم، عقلي الآن بـريء مـن هـذه الدّنيا، عقـلي معك يا رسـول الله.

أتنهّـد، أنفـاسي المتلاحقـة تنخفـض حدّتهـا حـين أخلـع القميص، أخلعـه بصعوبـة ومشـقّة عـلى نفـسي، إذ مـا كان يجوز لـه ارتـداؤه من الأسـاس، نفسي أمرتنـي وتبعتها مخدرًا هائـمًا، غائبًا عن دنيا الإنسـان، الرّغبـة في تجربـة القميص كانت أقوى من الرّفض، سـامحني يا رسـول الله.

ألتقط أنفاسي المتسـارعة، أدور برأسي حولي وأتحسّـس الزّهور النابتة في كلّ مكان.

ثـمّ لم أعـد أحتاج من الدّنيا غـير هذه اللّحظات القليلـة التي أقضيها مـع قميص النّبي، هذه اللحظات القليلة المختلسـة، أطلـب بعدها دائمًا المغفـرة والسّـماح، لحظات فيهـا زرت الكعبة وطفت في رحـاب النّبي، فيهـا دخلـت الجنّة وقابلت أهلها، فيها جالسـت الأحبّـة في مجالسٍ لا

شبيه لها في كوننا هذا، مجالس روعتها تدبّب الأدمغة وتحوّلها إلى أسطح ملساء ناعمة بيضاء، تحوّلها إلى مادة سلسة التّكوين، والتّشكيل، مادة تكتب عليها الملائكة بحروفٍ من نور، لفظ الجلالة، فأكبّر، وأصيح بصوت عالٍ:

- عفوك يا معشوقي.

والأحبّة يرددون خلفي الدّعاء، والبخور، لا يبدو دخانًا له لون ورائحة عذبة تحتوى الأنوف، بقدر ما بدا لي رحيقًا من حدائق الجنة، في هذه اللحظات القليلة بركة، بركة أن أعلو بروحي فوق كلّ شيء، كلّ شيء، وأن أجاور أحباب الله في المساجد، وأن أرضى بما قُدّر لي من الحياة.

وأن تبلغني «كيميا» -بعد فقدي الأمل- خبر حملها.

***

الأشهر التّسع لا تريد الذّهاب، أشهر ثقيلة بطيئة تقلقل كياني، قلت لـــ «كيميا»:

- إذا جاء ولد أسميته «محمّدًا» وإذا جاءت بنت أسميتها «فاطمة».

وكنت لا أرتدي قميص النّبي سوى في المنزل، إذ كنت أخشى أن أظهر به للنّاس، كان سرًّا خاصًا بي فقط، أخشى أن يغضب منّي رسول الله، الأمانة أمانة، وربّما كان ثمّة نوع من الفضول حين ارتديت القميص منذ البداية، ولكنّه فضول مشروع، مسموح به.

مع الوقت، بيتي أصبح جنّتي، هذه التي أعيش فيها مع زوجتي

ولا أبغي سـواها جنّة، وحـين دنا موعد الوضع، جئـت لهذا الصّغير القـادم إلى جنّتـي بـكلّ مـا قـد يلزمـه، ومـلأت الجنّـة لعبًـا وهدومًـا وحلـوى، وكنـت إذ أرتـدي القميـص أرفـع رأسي إلى أعـلى مسـبّحًا وأغيـب، تمامًا.

كان صراخ «كيميـا» مـن داخـل غرفة الطّلـق يأتيني منهـكًا، معذبًا، والوقـت يمـرّ بشـقّ الأنفـس، سـاعات انقضـت ومـا زالـت داخـل الغرفة.

كم تمنّيت أن أكون حاملًا الآن على كتفيّ قميص النّبي!

أجـوب البيـت جيئـة وذهابًـا، مـولاي يربّـت عـلى كتفـي، ووجهه يعتريـه القلق، مثلي تمامًـا، صراخ «كيميا» يخفت، فلابـدّ ها هو الصغير آتٍ إلى جنّتي.

ثـمّ يربّـت على كتفي الوجه السّـاطع الأبيض فضيّ الشّـعر فأنتبه، إنّما الشّـيخ يختفي، رجل الحلم هـذا ما به!

تخرج القابلة، أهرع نحوها:

-طمئنيني.

- عوّضك الله خيرًا.

- ماذا!

- الطّفل ولد ميتًا.

لحظـة من سـكوت تهبـط على وجهـي، طرقـات البيت تميـد بي، غير أنّي أجـري خلف القابلة وأسـألها:

- أكان ولدًا؟

- كيف عرفت!

وتتركني وتمضي بعد أن ينقدها مولاي أجرها، أقف قليلًا ثم أتقدّم داخل الغرفة، يحتويني عطر المسك، أقترب من «كيميا»، أجوس بعينيّ خلايا وجهها، بإحساس جديد، وابتسامة جديدة، أحتوى بين كفيّ أناملها الرقيقة، وألثمها على خدها، آثار الجَهد كانت بادية على ملامحها، تتأوّه فينقبض قلبي، أتحسّس ملمس الورود على جبينها وأقول:

- «محمّد» ينتظرنا في الجنّة.

وآويت إلى غرفتي، مددت جسدي على الفراشِ عقب يومٍ عسيرٍ، ووجدتني في لمح البّصر واقفًا في المسافة بين الوعي والغيبِ، رأيت في الحُلمِ ولدًا من الأمواج اسمه «بحر»، ورأيت الموجَ امرأةً تُشتهى، ورأيت بحرًا وكوخًا وشمسًا بلون القرمز.

❋ ❋ ❋

نظرت إلى طفلي المبتسم وحلّقت نحو سقف الكوخ.

في اللّيل، يسكن البحر، وتهدأ نفسي، تتماثل الأشياء، وتذوب تفاصيل الكائنات فتتشابه المعالم.

في اللّيل، أقف طويلًا، تصافح عيناي أكفّ الموج المطمئنّة بين أحضان الظّلام، أتردّد قليلًا قبل أن أعود لكوخي المتفاني في سكونه.

أتأمّل تفاصيل كوخي، ضئيل، يخلو من كلّ مؤثّرات المعيشة،

تحميه من الرّياح أعواد الغاب، تضيئه الشموع، ويضيئه وجهُ طفلي الذي أنجبته لي الأمواج، ظللت أعوامًا، أطارحها غرامي، أراودها، أدخل عالمها، وتأتي مشاعري، كثيفة فيها، أصل إلى ذروة نشوتي، وأنا أختلط بكلّ كيانها، فلأجلها أسكن البحر منذ بعيد، ولأجلها أتفكّك وأصبح أشلاء، أقذف نفسي فوقها، وأتركها لتداعبني وتدغدغ أحاسيسي، فلا أنجو من عشقها إلّا حين ترميني على الشط هائج الأنفاس.

في اللّيل، كلّ المعاني تحدث.

أنسلخ من ملابسي الثقيلة، وأنصرف نحو الأمواج ولهًا، أرتجف وهي تحملني فوقها، من فرط سعادتي ينقبض كلّ الجسد وهمومي تسقط داخلها، فأنساها وأكمل سيري في المياه عاريًا تتحسّس الرّمالُ بطنَ قلبي، تسبح معي، أسبح صوب الضّياء الذي يطلّ في منتصف الحُلم، ينتشر على مدّ العتمة فتنحسر وأظنّ أنّي إلى الجنّة أسبح، أزرع في تربة الأمواج رأسي، وأصبو لجنّة البحر، أنطلق والأسماك وعرائس الماء والجنّ وأرواح البحر والأمواج كلّنا نحو الجنة، فلا نبلغها، ويرمينا البحر ثانية هناك، على هامش الحياة.

منذ سنوات، وقلبي يأمل الولد الذي سأسمّيه بحرًا نسبة إلى جدّه، منذ سنوات وأنا أجلس أمام الأمواج، أتوّسلها أن تمنحني إيّاه، ونغرق معًا في عباب الشّوق، حتّى جاء اليوم الذي استجابت لأمنيتي الأمواج حبيبتي.

وقفت عاجزًا عن وصف فرحتي، وأنا أحمل طفلي من فوق

الرّمـال.

كان هـذا الصّبـاح، والشّـمس تُشرق تداعـب صفحة المـوج، وكان الولـد -ولـدي- ممـدّدًا عـلى حـدود المـوج، أناملـه تتحسّـس ملامحه، ملامحـه ليسـت واضحة، لكن قلبـي اسـتوضحها مبكرًا، إذ شـاهدت عنفـواني فيـه، وأنـا أمسـكه برفـق فيبتسـم في وجهـي، وتجـوس عيناه تفاصيلي في بـكارة.

رفعـت رأسي للسّـماء وشـكرت البحـر الـذي وهبنـي الولـد، ولـد رأيـت وجهـه في صبيحة يـوم يطلّ عليّ من نافـذة في السّـماء فأيقنت أنّ الأمـواج حُبـلى وسـتأتي لي بالولـد قريبًا، بكلّ سـعادة حملتـه وطفت به حـذاء الشّـط لتتفحّصه أمّه جيّـدًا، لقد كان جميلًا، له مزيـجٌ من الألوان في عينيـه يبعـث على الدّهشـة، فعـين لونهـا أزرق، تمامًا كلون عـين أمّه الصـافي، وعـين لونهـا أخـضر، كلون سـعادتي به، وكان شـعره يسـبح بانسـيابية على جبينه.

جميـلًا كان ولـدي، أخشـى عليـه مـن حسـد الكائنات التي تسـكن البحـر معـي، فكرّت أن آخـذه وأرحل بعيدًا، لكنّنـي تراجعت، لم يكن لأمّـه ذنـبٌ في حبّـي له، فهي أيضًـا تحبّه، ربّـما أكثر منّي، كـما أنّ رُوحي دامت تسـكن البحـر، فهل أتركهـا وأمضي؟!

وعنـد كلّ شروق للشّـمس، كنـت أصطحبـه على ذراعـي ونجلس نتحـدّث أنـا وهـو وأمّـه، قـد تشـاركنا الرّياح الحديـث، وقد تشـاركنا أسـماك ملوّنة، تخـرج من البحـر، وتلجـأ لدفء الشّـمس، صراخ الولد ينثـر عـلى تفاصيل الحيـاة حيـاة، ويُضفي فـوق ملامح اليـوم بصمتي،

كنت أقـول لأمّه: ما أجملـه! فترقص فرحًا، وتهـرول نحو أبيها، تفيض بهجـة لمجيئه إلى حياتنا الممتدّة منذ سـنوات جافّة بـلا تعرجات، فتُغرق بهجتُهـا ملابسـنَا وأضحـك، أحمـل ولدنـا وندخـل عالمهـا، وأحـاول مجـدّدًا، وأنـا أحمله عـلى كتفي، بلوغ الجنّـة البعيدة، غير أنّـه، وفي نصف المشـقّة، يلـوّح لي، يتركنـي ويعـود ممسـكًا ضفائـر أمّـه المتموّجـة كأنّه يغيظنـي، فأبتسـم وأعـود أنا الآخـر حيث أشـعر ألاّ جـدوى من بلوغ الجنّـة وحدي.

أتأمّلـه وهـو نائـم، كان لـه ملمـس جسـد أمّـه الشّـفاف، يتنفّـس الرّيـح كـما تتنفّسـها، ويـضرب بذراعيـه جـدران الكـوخ كـما تضرب هـي جـدران الشّـط، ولـدي «بحر» يفيـض، يسـتطيل يومًا بعـد يوم، أرى اسـتطالته بعينـيّ وهـو نائـم، تـسرح قدمـاه صـوب آخـر حدود الكـوخ، تتـماس وأحلامي، لكـن صفات الأمّ تتشـكّل فيـه كذلك مع الأيّـام، إذ كان عنيفًـا في معاملتـه لي، لا يقـدّر خـوفي عليـه، عنيـدًا، لا يكـترث لكلامـي، كنـت أحذّره مـن مرافقـة جدّه لشـطآنٍ بعيـدةٍ، إنّما كان يـضرب بنصائحـي عرض الكـوخ ويمتطـي صهوة الوقـت وراء جـدّه ويختفـي بالأيـام، في هـذه الأثنـاء، أتحيّن أيّـة فرصة للشّـجار مع أمّـه فتقـول لي: أتركه لجدّه يشـتدّ عـوده. فأنهرها صائحًـا: أخاف عليه من جدّه، قد ينسـاه على شـطٍّ. تبتسـم ابتسـامة صافية وتتمتـم: دائمًا ما يعـود أبنـاؤك.. كلّهم.

وأزرع جسـدي في الرّمـال انتظارًا لـه، أقضم أظافر ذهنـي من القلق والتّوتـر، تصطف جـواري عرائس اللّيل القاتمة مواسـية، تقضي العتمة

معـي، وتفارقنـي في الصّبـاح، رغم غـيرة أمّه منهنّ، التـي تتحوّطني عند شروق الشّـمس لتطمئننـي، لكنّني أنتظر، وأنتظـر، يعود والفرحة تسـتولي عليـه، ويحكى لي عـن عالم آخـر ذهبا وجـدّه إليه، عـالم لم أزره، يحكـي عن النسـاء اللواتي يجبن شـطّهنّ عاريات ويتسـلّقن به أشـجارًا تصـل إلى بوّابـة السـماء، يقول: تصوّر يـا أبي، نصفهن زوجـات جدّي، والأخريـات بناته! تتألّـق عيناه من نشـوة المغامرة وتـزداد الزّرقاء زرقة والخـضراء اخـضرارًا، فيجيئنـي وقـت، أسـحب أمّـه داخـل الكوخ، ونجيـش سـويًّا، تتلاقى مشـاعرنا، أرفـع رأسي لأعلى داعيًـا أن يأتيني ولدٌ آخر يشـبهني لا يشـبه الأم ولا الجدّ، يهتزّ الكوخ، يفيض إحساسنا ويرفـع كوخي إلى السّـماء، ولمّا ينـصرف عنّي ولدي، يحمـل بين ذراعيه كلّ إخوته، ويشـفط داخله رمال الشّـط، ويكتنز داخـل عينيه زرقة كلّ أجـداده وخضار العـالم، ويعدو نحـو الجنّة، يعدو، ليـس يحفل بقلقي، تتبعـه الأسـماك والعرائـس والأمـواج، ولا يعود، فلا أعلـم هل وصل إليهـا؟ إذ أخـرج أمارس انتظـاري المحتّم، وتمـر السـنوات، وأنا رهين الانتظـار، أتأمّـل تفاصيل الحياة حـولي، كنت وحيدًا، أشـعر ألاّ أمل في رجـوع ولـدي، ولدي الـذي خاض المغامـرة وصولاً للجنّـة، وتركني وحيـدًا عـلى الشّـط، والحياة حـولي جافة بائسـة قبيحـة، وإن كنت فيما ذكـرى قديمـة قـد تمنّيـت تمامًـا، أن أرى الجنّة من خلال عينـي ولدي.

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣١ هـ

كنت أعرف أنّه لا ملائكة على الأرض غيري، وكلّ ما يحدث سلبًا له تفسيرُ حتمي، أرّقني كثيرًا من ذي قبل التفكير في التفسير، لكنّ مَصْلًا ما، يأتي في وقتٍ ما، تفرضه منظومة الحياة ذاتها، عندما نعاني من التخبّط وعدم الاحتمال، مَصْلًا يجيء في صورة نسيان، عدم اكتراث، أو حتّى في صورةِ زهدٍ عن الحياة نفسها، كم أشعر أنّي هشّة، كفراشةٍ تحوّم حول دائرة من دخان، دائمًا ما يترجرج المدى البعيد أمام بصري في بطء ويهدهدني، تتلاحق بقايا الذّكريات على ذهني كما تتلاحق أنفاسي مصاحبة تلك الذّكريات، أشعر أنّ في الأفق تنتظر ملامحُ السّكينة والاطمئنان، يتناثر من حولي وفي داخلي دقّ الذّكريات، لكن روحي كانت أهمّ، هي التي تتطلّب الإنقاذَ العاجل، هي التي ستبقى لي براءة من عالم مدنّس.

أجل أكره الرجالَ، أكره رائحةَ رغبتِهم، أكره أشياءَ دفَنَها الماضي، ولم أعد أكترث، أرمق قريتَنا وأسخط على حالي، قرية بائسة بؤسًا خرافيًا، كانت قريتنا فرعين شبه متوازييْن للنّهر، يتهاديان في بطء وفي خمول؛ بضع تكتّلات من نبات الحلفاء، وبيوتنا بينهم، ها هنا كلّ صباح ألتقي بالأحلام المطلّة من بعيد، كنت طفلة تأمل ركوبَ صهوةِ الموج وتنطلق إلى عنان الغد، كنت طفلةً لا تعي معنى النضوج، يتطابق شكل هذا الصباح بشكل كلّ صباح، وأعرف أنّ للجنّة منفذًا قد لا يبين، أبحثُ بعينَيّ عنه في الجوار، بين سباطات النّخل المتدلّية وبين أربطة الشّفق التي تكمّم فم السّماء، كانت شمسُنا تشرق وتغرب دون إبداء استياء، أشعر بالضّجر يلف أعوادَها

الذّهبيـةَ المغروسـة في لـبّ مـاء الترعتـين، دون مراوغة مسـيرةِ زمنٍ جامـد الوجـه، كنت الوحيـدةَ التـي ينقضي عمرُهـا سُـدَى، حتّى ولو تفرّعـت بي دروب الحيـاة، إنّـما أين هي الحياة إذًا وسـط هـذا الموات؟!

عمـري كلـه أحلامٌ مؤجلـة، تسـافر عيناي مـع الـزّروع الهائمة دون قيْـد بعـد ضفّتـي الفرعـين شرقًـا وغربًـا، أسـاءل نفسي إلامَ أحتـاج حقيقـة؟ هل أحتـاج إلى الخروج من تلـك الدّائرة المرهقـة إلى العالم؟ أم أحتـاج إلى التقوقـع والرّضا بالواقع؟ لكـن كلّ شيء يدعوني للخروج، كلّـما ضمـر بداخـلي حُلـمٌ نَبَتَ آخـر، كلّـما حطّـت عيناي عـلى المدى شـدّني نـداءُ الرحيل، ارحلي.. ارحـلي.. ليس هذا مكانَـك ولا زمانَك، ليـس يبقى مـن المرء غـير التمـرّد والإبـاء، فارحـلي لدنيا غيرِ هـذه، لا تحصري ملكوتَـك في هـذا المجتمع.

تبـدو حـوافُ الأفـق البعيـد متعرّجةً عابسـة، يتشـبّع الهـواء برطوبة تكتـم الأنفـاس، وتبـزغ تشـكيلاتٌ مـن الطّيـور مـن قلـب نقطة على الحـدّ الواصـل ما بـين الأرض والسّـماء، لكنّها سرعـان ما تحلّـق عاليًا وكأنّهـا تزيـح عـن كواهلهـا عـبءَ النّهـار، تطـير نحـو الفضـاء تختال بتحرّرهـا، تهاجر إلى مـكانٍ أكثر راحـة، تقترض عقلي وتخيـلاتي، أطير معهـا في الجمـع بجناحيْن من سـعادة، أعانق صفاءَ الأفق واسـترخاءَه، أرى قريتـي مجـرّدَ فجـوةٍ معتِمـة في بـراح الدّنيـا، فجـوة تتضـاءل كلّما حلّقـتُ مبتعدة، شـظايا المشـاهد الملقاة تحتـي كبقايا من خيالٍ اسـتعاد تأنقـه، أودّعهـا بنظـرةٍ متألقـة، وأمخر عبـابَ الهـواء العليـل وجناحاي يرفرفـان بوداعةٍ واسـتكانة.

أعـدو وراء الصّبيـة والفتيـات، نتجمّع عـلى ضفّةِ النّهـر، يكبّون عليّ مـن ماء النّهـر، لكنّي أسـبّهم جميعًا، فيقـول أحدهـم:

- الماء لعلّه يطفئ نار الكُفر.

ويرفع سـاعديه يضمّهما ليشـكّل بهما صليبًا، يعبس وجهي، فلسـت أفهـم، يتبادلـون الضّحكَ السّـاخر، أفطن أنّهـا لا تعدو كونهـا إلّا لعبةً مـن ألعاب الأولاد، أبتسِـم ببلاهـة وأمضي عنهم، وبيتنـا الكائن قرب الضفـة يضـجّ بالصيـاح، صيـاح الدّيكـة المتفرّقة على السّـطح، أسـأل أمّي:

- هل نحن كفرة يا أمّي؟

فتنهرني وتشدّني من شَعري صائحة:

- «يسوع» سينقذ العالم من شرّ الكُفر، كيف تقولين هذا؟

لم أرَ أمّـي يومًـا غـيرَ منكفئةٍ فـوق العجـين أو طبخ الطعام أو غسـل الأثـوابِ، تسـتيقظ بعد الفجر، تبـدأ أولًا في كنس فناء البيت بالمكنسـة القـشّ، حينهـا يكـون أبي نائمًا، ثم تـشرع في إعداد عجين الخبـز في حلّة كبـيرة، تتركـه ليتخمّر تحـت أشـعة الشّـمس الأولى، وتحمل مـن وراء الـدّار القشّ والأخشـاب وتحمّي الفرنَ الطـين، أرافقها في كلّ خطوات الخبيـز لأنّهـا تصرّ على هذا، تقـول لي: تعلّمي، لا يبقى للسّـت في الدّنيا غـير مهارتها في شـؤون البيت.

ينتفـخُ الخبـزُ المرصـوص في صفـوف طوليـة تحـت عبـاءةِ الشّـمسِ ببـطء، عندئذ تكـون الفرنُ قد سـخنتْ تمامًا، تتناول أمّـي رغيفًا رغيفًا بدقـةٍ وتَعَـوّد، تضعـهُ داخـل الفـرن التي تتلقّفه بشـهوة، أجـوس فيها

بعينـيّ، كيـف لا ينال منك التّعبُ يا أمّي؟ ترهقين نفسـك طوال النّهار مـا بـين أبي وبين أعمال البيـت وبيني، ولا أحسـب أنّ لكِ شـكوى من أيّ قبيـل، تبدين دومًا سـعيدةً راضية، لكن أخشـى عليك، أخشـى أن يهـدّك الجهدُ في لحظـة ذروةٍ ما حبيسـة بأعماقك.

أبتعِـدُ عنهـا، أغيـب داخل الحظـيرة الصغـيرة المقامة بجانـب البيت على مشـارف النّهـر، أتفقّـد البهائمَ التي تخور خـوارًا محببًا حـين تراني، لا أعـرف كأنّ نظراتِهـا تود لو تبلغني شـيئًا! تطيل النّظـرَ في عينَيّ بطيبةٍ واسـتجداء، أشـعر أنّهـا ترجـوني أن أُفـرِج عنها، كأنّـما موقنةٌ بأنّهـا ربّما مؤهلـة للذّبـح عـمّا قريـب، أتحسّـس أجسـادَها الملسـاء، فتقـترب كلّ البهائـم منّـي، الأبقـار والماعـز والخـراف، روائحهـا التي تنفّـر الجميعَ تأتيني مسـتحبّة مريحة، ولا أدرك لِمَ؟! فكـم تروقني هذه الرّائحة! كنت لا أبـالي بعفـن البهائم بقدر ما أبالي بحبسـها داخل هذه الحظـيرة، أدور بعينـيّ فيهـا، كأنّ بي أقـول: لـو كان الأمر بيدي!

وحـين نضجـتُ، ومـات أبي فجـأة، أحسسـتُ أنّ أمّي هـي اختزال الحيـاة كلّهـا، أيقنـت أنّنـا سـنجابه حيـاةً شاسـعة متراميـةَ الأحـزانِ وحيدتـين.

كان أبي «زمّـارًا» كبقيـة رجـال قريتنا النّائية، لم أكـن أدري إنْ كان هذا فِعـلَ الإرثِ أم فِعـلَ الفقرِ البليـد الـذي يمتلـك القريـة؟ ولكنّه كان يعشـق حرفتَه، كنـت أراقبه من حين لآخر وهو جالسٌ أسـفل شـجرة الأثـل نافخًـا مزمـاره، وأصابعه تـدور من ثقـب المزمار لثقـب آخر في انسـجامٍ وفي خشـوع، كنـت مِن فرط سـعادتي بعزفه واختـمار رأسي

أتراقـص معه، أتلوّى بخصري ذات اليمين وذات الشّـمال في نشـوة، يطـير من مزمـاره النّغمُ فأطـير معه، يميل هـو مع ميل المزمار، فأشـعر باندفاع الهواء السّـاخن البعيـد من فوّهة المزمـار وكأنّه يلامس وجهي.

لم أكـن أعـرف لمـاذا يُعـيَّر رجـالُ قريتنـا بحرفتهـم؟ إنّهـا حرفـةُ فنٍ وتمكّـن، لعـلّ لا شيء يُعيّر بـه الرّجل في الحياة غير تـذلله من أجل لقمة العيـش، وربّما هـذا في الحقيقة ما كان يبعث في نفـوس رجال قريتنا هذا الإحسـاسَ الباطن بالانكسـار، فكلّهـم يتذلّلون – بلا حيلـةٍ – لأجل أجـورٍ بخسـة، يقتاتون بالنذر اليسـير الذي يكفله سـعيُهم بـين القرى والمُـدن المترامية في بقـاع «الأناضـول»، وفي الأفراح والمناسـبات، تلك النّوبـات التـي يمارسـون فيها مهنتَهـم، والتـي لم يكن ليعرفوا سـواها، إضافـةً لنتـاج الأرض الشّـحيح، والـذي يكفـي تقريبًا لسـدّ حاجات البيـوت مـن جبن ولبن وقمـح وذرة ليس أكثـر، تلك الكفايـة الذّاتية، غير منتظمة المنسـوب.

كان أثـرَى رَجـلٍ في قريتنـا هـو الإمـام السّـلطان «شرف الدّيـن»، صاحـب الطّاحونـة، أثراهـم فقط لأنّـه اشـترى الطّاحونـةَ القديمة في آخـر القريـة وأعـاد تشـغيلَها، وثـراؤُه كان في أنّـه امتلك –مع مـا تدره الطّاحونـة– بضعـةَ أفدنةٍ مـن الأرض تطرح الفاكهة، وبضعـةَ رؤوسٍ مـن البهائـم، ولكنّه لم يكن ليُشرف على الطّاحونة أو يباشر سـير العمل فيهـا إمعانًـا في إضفاء صفة التوقـير المبالغ فيها على نفسـه، اكتفى بترك ذلـك لبعـض الموثوق فيهـم والذين يتفانـون في توكيـد الثّقـة تقرّبًا له.

كان آباؤنا يحملون فوق أكتافهم أجولةَ الأرزِ والقمح والذّرة

لطحنهـا، بعـد أن اسـتبدل السّـلطان حجـر الطّحن القديـم الكهل بحجر صـوان جديد وغـيَّر الغرابيل نصف الاسـطوانية لمضرب الأرز بأخـرى متينةِ المعدن وشـديدةِ الصلابة، كنّا نرافق الآبـاءَ إلى الطّاحونة، ننتظـر فيما وراء السّـور المَبني بالطـوب النيئ -والذي يلتـف حول فناء الطّاحونـة- جالسـين عـلى المصطبـة الإسـمنتية، أو في بعـض الأحيان نتسـلّل إلى الدّاخـل لنراقـب الـتّروس التـي تَطحـن في غـير كلـل ولا إنهـاك، يشـدّنا الفضـولُ نحو الأصـوات الطّالعـة من ناحيـة القادوس المعـدني المرمـي في جوفهـا، ومن مـضرب الأرز المكمّـم بالخيش.

أذكـر أنّنـا -ولم نـزل صغـارًا- كنّـا نخشـى مـن السّـلطان «شرف الدّيـن»، وهو مقبِـلٌ من بعيد كنّا نهـرول فرارًا منه، كانـت مخاوفُنا مجرّد ترجمـاتٍ لثرثرة النّـاس حول سرّ غامضٍ يخبئه السّـلطان في سريرته ولا يقـف عـلى مضمونه أحـدٌ بالتحديد، قيـل إنّه يؤاخـي الجنّ، وقيـل إنّه يصعـد كلّ يـوم إلى السّـماء ويعـود قبـل أول ضـوء للفجر وقـد عَرَف عـن غيب الخلق ومسـتقبلهم، إنما أحيـل السرّ عمّا بعـد – بطبيعة فوت الزّمـن- إلى تفسـيراتٍ لا تعـدو أن تكون في نظري أكثـرَ مِن اجتهادات اسـتقرّ عليهـا تحليل الجمـع، ولا تكاد تخلو مـن يقينٍ ليس فيـه موضعٌ لشـبهة – ذلـك لفطنة رجـال قريتنا وفراسـتِهم الخارقـة!- أنّ السرّ مِن عند الله، سرّ روحاني، كلّل اللهُ به السّـلطان محبّةً وبَرَكة، وكان السّـلطان يسـير في القريـة متباهيًا بالهالة المرسـومة حول شـخصه، والتي منحتها لـه قريتُنـا عديمة الجـدوى بكلّ يـسر، ودائـمًا ما كان يمـشي بصلفٍ في صحبـة الأقران مـن الدّراويش ومحبّـي التزلّف والتملّق، يـدكّ الأرضَ

الصلـدةَ بقدمـه فنراقبـه بفضـول، والتّراب يـوجّ من تحـت قدميه في حلقـاتٍ دُخانيـة اللّـون يظلّ ينفضهـا عن ملابسـه بخُيَـلاء، لكنّه كان مَهيبًـا، لم يكـن يجالـس أحدًا من ناس القريـة في أيّ وقت، بمعنـى أنّه لم يكـن متاحًـا للعموم، كما لم تكـن رؤيتُه عابـرًا في شـارعٍ أو درب داخل متـن القريـة إلاّ محـضَ صدفـةٍ أو مـن بـاب الاسـتثناء، ولم يكـن ذلك تعاليًـا بقـدر مـا هو محاولة نسـب غرابـة أكـبر وغموض أشـمل لعالمه الخـاص، لعـلّي كنـتُ الوحيـدةَ التي باتت تشـعر بعـد وقـت بأنّه ليس أكثـر مـن صناعةٍ محليـة، لظـروف مادية بحتـة أو لظـروف معرفية غير واضحة المعايير، وفي الحقيقة لم يكن يُعرَف عنه إنْ كان متأصّلَ النّسـب إلى قريتنـا كـما يدّعـي، أم أنّـه قَـدمَ عليها منـذ زمن محت ملامحَه سـطوةُ فلوسِـه، فلـوس لم تكـن كذلـك معلومـة المصدر عـلى وجـه التحديد، يُشـاع عنـه أنّه وفِـد من إقليم « تركمانسـتان» بعـد هجمة التتـار، وكان هـذا منـذ قرابـة ربـع قـرن، كان يمـرّ عـلى أهـل بلدتنـا فيلقي سـلامًا مختالًا، ينظرون له في إكبار وهو دانٍ ويشـدّون إلى أسـفل أحبال الماشـية التـي تطـوّق رقابها والتي يخرجون بهـا إلى الحقول، فتثبـت عن الحركة، ثـم يتسـمّرون هُـم بدورهـم ولا يجـرؤون على تكملـة السـير احترامًا ومَهابـة، حتـى يختفـي من أمـام أبصارهـم، فيسـتأنفون مشـيَهم المتأنّي صـوْبَ الحقـولِ القريبة، ويتهامسـون عن تواضـع هذا الرّجـل، الذي يقابلهـم بابتسـامة مؤدبة، كأنّ مجـرد إلقاء السّـلام عليهم مِـن رَجلٍ في مقام السّـلطان لَهُوَ باعثٌ عـلى الفرحة والتباهي، وكانـت —في البدايـة— التّسـلية الوحيـدة المتاحـة في قرية صغـيرة كقريتنا، لا تسريـةَ فيها ولا

لهـو، هي محاولـة وهب عنـصرِ التبجيل إلى هـذا الرّجـل، ثم سرعان مـا تطـوّرت التّسـليةُ إلى توكيد لا يجوز التّشـكيك فيه تحـت أيّ بند، أو أيّ احتـمال، فالرَّجـل ثـري، يجـيء بـكلّ ما هـو عجائبي، يَعـرف ما لا يعرفـون، يطبّب مرضاهم بالبَرَكة والدعاء وبعلـمٍ لا تُدرك معطياتُه إلاّ مـن العليم بمكامـن الأمور، يبلغ أعماقَ أنفسـهم ويكاشـفهم صراحةً عـمّا يبطِنـون، يقيهـم شرّ الحوائـج والعمـولات بالتعاويذ والقـراءات والأدعيـة والأحجبـة المباركـة، مـن دون أن يتقـاضى أجـرًا قبيـل هذه المنحـة الربّانيـة التـي لم ينلْهَا غـيرُه، كما أنّـه رَجلٌ كريم يفتـح بيتَه طول الوقـت لعابري السـبيل ولمحبّيـه، وكنت أسـأل أبي في صغري:

- فعلًا السّلطان مكشوف عنه الحجاب؟

- الله أعلم يا بنتي.

- المسيح فقط مكشوف عنه الحجاب يا أبي، أليس كذلك؟

يمصمص شفتيه فأصرّ مستطردة بعند:

- لكن من أين أتى السّلطان بكلّ هذا المال؟

فينظر لي ويقول بعد تفكير وحيْرةٍ لا ينتهيان إلى إجابة شافية يقينية:

- علّمنا «يسوع» أننّا لا نسأل على أشياء لا تعنينا.

والإمام السّـلطان – من وجهـة نظري – لم يكن إمامًـا بالمعنى الدّارج للكلمة، يعني لم يكن عجوزًا للدّرجة، ولا فقيهًا، ولا يحمل من سـمات الإمامـة أمـارة واحـدة، أو لم يعد –بالنّسـبة لي– ذلك الرّجـل الذي كنّا نخشـاه في الصّغـر، في الواقع، وكونه دجّـالًا بمضمون المعنى، جعل

أهلَنـا البسـطاءَ يطلِقـون عليـه هـذه اللّفظـة المجّانيـة التـي تُطلـق بسـهولة، بـل وتُنطـق بسـهولة أكـبر، لكـن حصولـه عليهـا كان أكبر دليـلٍ مـع ذلـك عـلى أنّ طقوس الشّـعوذة التي تتـمّ في بيتـه قد خلقت آفـة في أدمغـة نـاس القريـة، عشّشـتْ واسـتوطنت حتّى بلغـت مبلغ الأسـطورة، وصنعـتْ مِـن هـذا الرّجل -بنـاءً على جهلٍ اسـتشرى في بلدنـا منـذ أمد- زعيـمًا وكبـيرًا، له كلمةٌ لا يجـوز بأيّ حـال مراجعتها، يحكـم فيمن يشـاء ويتحكّـم فيما يشـاء - حتّـى أمير «قونية»- بسـطوة مالـه ونفـوذه وشـخصيته المغلّفة بالهيبـة، وقدرةِ لسـانِه عـلى تزيين كلّ الـكلام وتجميلـه، بيتـه الكبير غـرب القرية يلـمّ في الغالـب كلّ رجال قريتنـا، هنـاك تَحـدث طقـوس الشّـعوذة، وهنـاك -دون رقيـبٍ أو معـارض أو متفكّـر- يسـتشرف مصائرَ الخلـق برؤى لا يجوز المسـاس بمصداقيتهـا بأيّ حـال، أو بكراماتٍ أعجب كيـف انطلت على عقول النـاس؟! إذ لا تخلـو رقبـةُ رَجـلٍ أو امـرأة مـن حجـاب صنعـه الإمام خصيصًـا لغـرضٍ مـا، لحمايـة أو لتسـهيل أمـر، أو تبصـير كلّ مَـن لـه ضالّـة مفقـودة، العجيب أنّ شـيئًا ممّا يتكّهـن به في الغالـب لا يتحقّق، ولم تعـد ضالّة أحـدٍ إلاّ مصادفة، الأعجب أنّ حضرتـه تزداد خلقًا يومًا بعـد يوم، فسُـمْعَتُه تـزداد بريقًا، ولعـلّ أكثرَهـم -أغلب الظـنّ- ممّن لا يجـدون الـزّادَ إلاّ عنـده، حيث تمتد موائـد الطّعام طيلةَ المسـاء، فيتوافد إليـه رجالُ قريتنا ورجـالُ القرى الأخـرى ورجال المدينـة، يمرّ بينَهم، يهرولـون إلى يـدِه يلثمونها، تنطلق أبخـرة العطّارين الفوّاحـة إلى أعلى، فتنطلـق عينـاه وراءهـا في زهدٍ ملفَّـقٍ وغيبةٍ مصطنعة، ويشـدّ يـدَه مِن

بين الأفواه وهو يصيح:

- أستغفر الله.

هو الذي غرس في رأس أبي فكرة التطيّر، حين قال له مرّة:

- احـذر مـن الغربان يا مسـيحي، إنّها تحـوم حول بيتـك، وهذا نذير غير حميد.

وأذكـر أنّ أبي كثـيرًا ما قـرّر ألاّ يخرج للشّـغل عند رؤية غـراب يحوّم في السّـماء، أو حتّـى عندما يسـمع نعيقَه، اسـتحوذتْ عـلى دماغه فكرةُ أنّ خَطْبًـا مـا سـيحدث إنْ خرج لو شـاهد بومـة أو غرابًا، لهـذا أعطى لـه الإمـام رُقْية عبارة عـن عصارة الثّـوم والبصل، مضافًـا إليها القليل مـن توابـلَ غريبةِ الرائحة أجهـلُ مصدرَها، خالَـفَ أبي كلّ تعاليم ديننا والكنيسـة، وصار يـرش منها على كتفيـه -إتّباعًا لتعليـمات الإمام- أو عـلى وِركيـه، إلى أن باتـت لـه نفـس الرّائحـة، كنت أشـمّها تخـرج من جسـده منفـرةً نفّـاذة، وكنت أفهـم أنّ هذه الأشـياءَ لا تنفـع ولا تضر، لكـن كـم كنـتُ آنَـفُ الارتمـاءَ على صـدره كـما تعـوّدت! أمّـي لجأت للدّيـر، لعلّهـا شـعرت بخطـر الإمام الـذي يحيـق بذهن أبي، مـا زلت أذكـر اليـوم الـذي زارنـا فيه أحد القساوسـة، حـين اسـتقبله أبي، رمق أمّـي بنظـرة مفهومـة، كأنّـه أدرك أنّها دافـع الزيـارة، قبّلَ يـدَه واحتفى بـه بـما يليـق، ثـم دخلا معًـا في إحـدى الغـرف، وخرجـا بعـد أقل من نصـف سـاعة ووجـهُ أبي يكـبّ حُمرةً، نـاول القـسّ أمّي صليبًـا وقال:

- علّقيه في بيتك، هذا مُبارك.

ثم التفت إلى أبي وأضاف:

- استمسك بالصّليب يا رجل، ودعك من التجديف، هل هناك مسيحي محترم يتبع كلام المسلمين الدجّالين؟

- كيفما ترى يا «أبونا».

كيفما ترى تعني انتهاءَ الموضوعِ وغلقَه، وأنّ أبي منذ اليوم سيقطع علاقته بالدجّال المسلم الذي نفذَ إلى عقله بلا مقدمات.

أذكر تلك الأيّام، تحرّر أبي من سطوة الإمام على يدّ قسّ من الدّير، لذا؛ أرسلتني بعدها أمّي إلى الدّير في مهمة، وهي إعطاء القسّ بعض الهدايا للدّير، بضعة ألحفةٍ وأغطية ومخدّات، أذكر تلك الأيّام، وذلك اليوم تحديدًا، حيث لم أزُر الدّيرَ بعدها حتّى الآن.

أجل؛ بعدها، صرت امرأة مكتملة الألم والانكسار.

كان صباحٌ، وحمائمُ مستكينةٌ أعلى الصّليب الخشبي الكبير بمدخل الدّير، لم يكن في الجوار عابرٌ، ودخلتُ وقد كان الباب العتيق مواربًا، صادَفَني أحد الرّهبان الشّباب، سألتُ على القسّ، قادني لغرفةٍ طينية واسعة مظلمة بعض الشيء، وتفوح منها رائحة ثقيلة، أدركت أنّها حظيرة، كانت في جانب من الدّير، أجلَسَني محتفيًا بي في مبالغةٍ مريبة، ثم أغلق الباب، اضطربت، سألت عن القسّ ثانية فأومأ الرّاهبُ برأسه مردفًا:

- سيأتي فورًا، انتظريه.

بدأ إحساسٌ مخيف يدبّ في كياني، والرّاهب يدنو منّي، ويجلس

جـواري، وفي بجاحـةٍ تتسـلّل يـدُه لتقبـع فـوق كتفـي، ارتعـدتُ، وتلجّـم لسـاني وأنـا أتزحـزح عنه قليـلًا، غير أنّـه أصرّ عـلى المضايقة، ودَنَـا أكثـر، وتخشّـبتْ أناملُه في لحـم ذراعي، ونشـب أظافـرَه في عمق إحسـاسي، كانـت الغرفة تشـبه حظـيرة بيتنا التـي تطلّ عـلى النّهر عن كثـب، ومـن ورائها يترامي بيتنـا للداخل مطلًّا عـلى دربٍ قصير ينتهي بالشّـارع الرئيـسي، ولم أعـرف كيـف تسـنّى لي أن آخذ في تفقّـد الغرفة شـبه المظلمـة والرّاهـبُ يتحسّـس كلّ جـزء في كتفي بيديْـن آثمتين!

كأنّ لسـاني قـد شـلّ، ووددتُ أن أصيـح فيـه مـاذا تريـد؟ لكنّي كنت طفلـة، لا أعـي، وكان الخـوفُ عصـف بي، إنّـما تراجعت قليـلًا، وهو يدنـو منّـي وفمُه ينفـرج عن ابتسـامةٍ كبـيرة قائلًا:

- أنتِ جميلة، هل تعرفين هذا؟ كم عمرك؟

وفجـأة نهـض، ابتعَدَ قليلًا، وأضـاء الغرفة أكثر بموقد غـاز، ثم أخذ يدنـو ثانيـة، خطواتُه حـذِرة، وكان وهو يدك الأرضية المملـوءة بالقشّ وروث البهائـم يفعـل باحتيـاطٍ شـديد، يخشـى أن يزعج تلـك البهائمَ القريبـة التي راحـت تتفقّده في عـدم اعتياد، كنت قد نهضـت بدوري، متقهقـرةً للـوراء، وصلـتُ بالفعـل إلى آخـر جـدار يمكـن لجسـدي أن يسـتند عليـه، لم يكـن ثمّـة منفـذٌ آخـر لي، فبـان هلعٌ فـوق ملامحي، وبـدأت شـفتاي في الارتجـاف والهمهمـة وفي إبـداء صيحـة، لكنّه قفز ولجّـم فمي بيـدِه في سرعـة وفي مفاجئـة، وقال:

- لا تخافي، سأعطيكِ البركة، وبالمرّة نلعب.

أيّ بركـة! كذلك بحثـتُ بعينَيّ عن لعبةٍ في يـدِه، أيّة حيلة في اللّعب،

فلـم أجـد، تفكـيري في كنه اللّعبة التـي يرغب أن يلعبهـا معي أضعف قـدرتي عـلى أن أقاوم كتمَـه لأنفاسي، كانت لمسـاتُه هي المعـبر الأول لي إلى عـالم النضـوج، لا أدري، لعـلّي كنـتُ محمومـةً بهذا الاجتيـاح الذي تسـبّبه فورة الجسـد الفجائية، لكنّه كان نهارًا غائمًا، تذكرتُ أنّي بالأمس فقـط لا غير طـرتُ نحو أمّي باكيةً وأنا أفتح سـاقيّ ممسِكةً طرفَ ثوبي بـين أناملي، لكنّهـا زغردت، زغـرودة خاطفـة، وتأمّلـت قطـرَتَيْ الدّمِ اللتـيْن تقبعان فـوق ملابسي قريبًا مـن فرْجي، وقالت في سـعادة:

- مبارك يا «كيرا»، لقد صرتِ بنتًا كبيرة بالغة.

هـل كان المفترض أن يتغـيّر كلّ شيء؟ ألم يتوّجب أن تبقيني في البيت تحـت نظرهـا أقلّـه كـي تمـرّ تلـك الفـورة الطارئة عـلى خـير؟ لكنّي لم أشـعر بـأيّ جديد، فقط سـخّنت إناء ماء عـلى الموقد، ثـم خلعتْ عنّي ملابـسي، وراحـت تدلـق عـليّ مِـن فـمّ الإبريـق المخصـص للتحمّم، وأنـا مقرفصة في قلـب حوض التحمّم مغمـورة بالصّابـون والماء، وفي الحقيقـة كانـت مغتبطـة، راحت تغنـي: «ننتظـر الفارس عـلى حصان، يُشـبِه رجال زمان».

كانـت للرّاهـب نظـرةُ ثـورٍ هائج وهـو يكمّم فمـي بيـده، ويقرص نهـدَيّ بعنـف، حاولـتُ عـضّ يـدِه، لكنّه لم يبـد أنّه شَـعرَ بـألم العضّة، كان أشـبهَ بتمثـالٍ حجـري لا روح فيه، حيوان خرج من أسـاطيرَ بائدةٍ ويـدأ يعبـث بمنظومة حياتي، كانـت بداخله رغبةٌ فجّة لم يسـتطع كبْتَها ناحيتـي وهـو يحـدّق فيّ ببلاهةٍ ونشـوة، لمعة آثمـة تطلّ مـن عينيه وهو يلتقـط أنفاسَـه في عُـسر، يكتم بكفّ فمـي، وبالأخرى يلـفّ مِن

خلـف ظهري ويبـدأ في النّزول إلى أسـفل ويرفع ثوبي، كانـت أنامِلُه مرتعـدةً وهـي تزحـف فوق مؤخـرتي، ثـم بأسـنانه راح يمـزّق رقبتي في نهـم، ويجـري بلسـانه إلى صـدري، أرى في عينيه انعكاسًـا لحلمَتيّ، كانتـا ورديتَـي اللـون، حوْلَهـما بضع نتـوءاتٍ بُنيـةٍ دقيقة وكأنّهـا تطريزٌ لعذوبتِهـما، كان الصّمت قد لفّ المكان، عدا أنفاسـه المعتملة بالشّبق، البهائـم راحـت تشـاهد مـا يحـدث مـن دون فهـم، وربّـما بنـوع مـن استمراء، ولكـن كلّ أوصـالي أخـذت تئِـن بحنـقٍ وألم، لا أعرف، هل كان يجب أن أفعل المستحيل لأصرخ؟ هل كان يجب أن أكوّر قبضتي فأضربـه قـدر مـا أوَفق؟ غير أنّ قداسـةَ المـكان أثقلتنـي، وجثومه فوق جسـدي كان مطبقًـا، كان ثقلًا لا أقـدر أن أطيقه ولا حتّـى لوهلة، كلّ شيء يخنـق، وقاحتـه وسـطوته وعـدم تركيـزي، كنت أسـتصرخه من داخـلي: هـذا الجسـد لا ينتمي إليك، لا تسـتطيع أن تلعب معه حسـبما تشاء.

كيـف عجـزتُ عـن الحركـة؟ لا يتوقّـف عـن التحسّـس ولا أجـد وسـيلةً للاعـتراض، يسـحق قِمتيّ نهـدَيّ تحـت أصابعـه دون أن يعتدّ بصـدري الـذي يحـترق ألمًـا، أحـاول الإفـلاتَ، يزمجر، يشـدّ جسـدي داخلـه في قسـوة، يطغـي عـلى كلّ مقاومـة ممكنـة، يطلـق الخـوار مثل عجـل يتضوّر جوعًا، يمسـكني بـكلّ رغبـة، ولا أعود أميّـز، غالبًا أبي هـو المكلّـف بحمايتـي ومنْعِ مثـل هـؤلاء مِن هتك بـراءتي! أيـن أمّي؟ لمـاذا لم تـأتِ بنفسـها للدّير، ربّـما لم يكن لراهبٍ أن يجـرؤ معها على فعل مـا يفعلـه الآن معـي! ولكـن كلّ شيء بدا مرتّبًـا للخلوة الآثمـة، كلّ

التفاصيـل تآمـرت ليَتِمَّ هذا الهتـك الأليم، رحت أغـوص في ظلمة، راجيـةً أن أنـصرف عن هذا الجسـد العاجـز الضعيف، وأصـوات كلّ الحكايـات القديمـة تختلج في عقـلي، كأسراب من ذبـاب نافق، يضرب داخـل الأذن والـرّأس عـلى غـير هـدى، والرّاهـب يلهـث في فجـور، يحملنـي ويرفعني عـن الأرض، ثـم يرتمي بثقلـه فوق ظهـري، فأرتمي تحتـه وتنفلت كفّـه التي تكبّل صـوتي، لكـن ذرّات القشّ الهائشـة التي تفـرش أرض الحظـيرة تقـوم بالـدّور عـلى أكمـل مـا يكـون، تُكمـل في قسـوة كتـم أنفـاسي، تعبّـئ جـوف فمـي وتتسـرّب داخـل فتحتَي أنفـي، أشـعر أنّي بالفعـل قد غبـت عن وعيـي باختنـاق، والرّاهب مِن ورائـي يكلبـش عـلى مؤخـرتي ويرفع عنهـا ذيل ثـوبي، كانـت أمّي قد طبّقـتْ خرقـةً نظيفة ووضعتهـا بين وِركَـيّ حتّى تحجّم نـزول قطرات الدّمـاء الضريـرة التـي تقابل دنيـاي لأول مـرّة، لكنّه لم يكـترث، كبس بقضيبـه المتصلّـب على المنفذ السـليم المواتي كسيخٍ من حديـد متوقّد، ثـم ضغـط بقـوّة، ضربه بداخـلي ضربة عنيفـة، فبـدا وكأنّه سـقط على ظهـري بهـراوة ثقيلة، وللحظـة أفقتُ، اتسّـعت عيناي وهـو ينتهكني في مجـون، كأنّ وتـدًا مـن إسـفين قد أطاح بجسـدي مـن أولِـه لآخره، خرج صوتي مسرسـعًا مغلّـلًا باللا احتمال، لكنّه أسرع بسـدّ فمي، كان الوجـع أكـبرَ مِن أظلّ مغشـيًا عليّ بهذه البسـاطة، أحسسـتُ أنّي هشّـةٌ ووحيدة ومسـتهلَكة، أحسستُ كأنّ سـكّينًا حادّةً قد عاثت بأحشائي، فـصرتُ عرضةً للتشـظّي وعدم الثبات، كنت بحاجة لمن ينتشـلني من هـذا الـبرد الذي لحـق بأطـرافي، وكنتُ مفجوعـةً أكثر

مِـن أنّ هـذا الرّاهـبَ هو الـذي بات يشـاركني صُنْعَ قـدري الآن، يا للكارثـة! كيـف صار مكتوبًـا أن أقف على حافة الجـرح الأبدي في مثل هذه السّـن؟ لم تعد الأمورُ تسـير نحو اتجاهاتها الطّبيعية، يا للمسـخرة! هل سـأصبح سـلعة لا تُشـترى؟ وهـو مِن خلفـي يواصل السّـلخ، لا يكتفـي بمجـرّد الذّبـح فقط، بـل يحاول أن يبلـغ أعمقَ موطـنٍ للألم في داخـلي، ويُمعـن في خلـق لذتِـه مِـن خيـوط واهيـة باقيةٍ متسـاقطة من داخـلي للخـارج هي التـي توثقني بالحيـاة، يضغـط أكثرَ فأكثـر، يُغرقه باللّعـاب ثـم يدفعـه مـرّات ومـرّات، أئـن، يمزّق نهـديّ بأظافـره من النّشـوة، ويفـحّ، وصـوتٌ خافق يعلـو من جـرّاء الاحتـكاك، يضرب ويـضرب، ويجتاحه الهياج، فيحـاول أن يصل به إلى مدخـل الرُّوح، إلى أن تتسـارع نبضاتُ وطرِه، ثم يتراخى جسـدُه دفعـةً واحدة، وتتصلّب سـاقاه فـوق مؤخـرتي، وهو يبـخ في عمقي دفقـاتٍ مِن سـائله الدافئ؛ دفـء الفجيعـة الصامتة.

إنّ الأقـدارَ مُضحِكـة، يتحـوّل كلّ شيء في لحظةٍ غاشـمة إلى ضبابٍ يبـدو ألاّ انقشـاع لـه، كلّ ما تسـعى نحوه طفلـةٌ صغيرة لا يعـدو كونه أكثـر مِن محض سراب، تـدور الحياةُ في بطءٍ وألم، لكنّهـا أبدًا لا تتوقّف، حتّـى وإنْ كانـت الأمنيـة الوحيـدة أن تتوقّـف، فكيـف لا نصـدّق أنّ القـدرَ جـبروت؟ وأنّنـا قـد نعيش الباقـي مـن أعمارنا في لهفـة للرّحيل عـن الحيـاة؟ لم تعـد لي حيلةٌ في جـرح، ولا شـفاعة في ألم، كفّنـتُ بيدي كلّ أحلامـي ذلـك النّهـار البائـس، ودفنتُ نبـضَ الحيـاة داخل أرض الحظيرة الملوّثة بالاشـمئزاز، كان يبدو أنّي سـوف أعيـش الجرحَ الخالد،

وأنه سيلثّم سوادُ الدّمعِ عينيّ ما حييت.

في ذلـك النّهـار الرّمـادي طار نواحـي حـولي متبـدّدًا، وفي الحقيقة لم أكـن أبكي نفـسي، كنت أبكي عجـزي وقلة حيلتـي، لم أجـرؤ على أيّ انفعـال، فقـط رحتُ أشـهق وألملم بقايـا ثيـابي وبقايا عـزّتي وكرامتي، والرّاهـب يمسـح بقايـا سـائِله في الجـدار كيفـما يتّفق، ثـمّ يفـرّ خارج الحظيرة في انتشـاءٍ وفي ظفَر، أخذ يهرول بعيدًا عنّي في حركاتٍ هستيرية مليئـةٍ بالفـرح والعشـوائية، إذ بـدا أنّي أولُ انتصارٍ لرجولته المحبوسـة، أول انتصـارٍ حقيقـي، بعيـدًا عن قيـد المحرّمـات، من غـير ضجيج أو تربّـص أو لهـو، انتصـار صـافٍ، خـام، ذاقَ فيـه معنـى جديـدًا لتحقّق الذّات الشّـهوانية، رحتُ بعدَه أبكي بكثير من التوسّـل والاسـتجداء، حتّـى للبهائم التـي أخذت ترمقنـي في لا مبـالاة، أقول لها: سـاعديني عـلى لملمة نفـسي، لا تكتفي بمجرّد النّظـرة العابرة غـير المهتمّة، فقلبي الآن يفتـل جدائـلَ مِن وجـعٍ لم يكن ليعرفها على الإطـلاق، وكلّ قلاع اللّوعـة تـذوب في آهةٍ مكتومـة بلا مصير.

كان وجهـي مبللًا بالعرق، وكانت الرضوض تملأ جسـدي المتهرئ؛ الـذي لم يعد يخصني في شيء.

أذكـرُ ذلـك اليوم، بعـدَه مـات أبي، رأيت عينيه وهو يحتـضر، كان في عينيـه حـزنٌ، كأنّه عايشَ معـي نحري.

القسم الثاني

العثور

شاهين

قونية/ الأناضول -٦٤١ هـ

يقول مولاي «شمس»:

- النّـور والنّـار حروفٌ إن اسـتُبدلت جنـح المعنى وتضـاد، وإنّما كم بينهـما! إذا أراد الله إن يكـون نـورٌ كان، وإن أراد نـارًا تكـون، لذا؛ ليس يجـب أن يحـول بينك وبين الله بشرٌ، الرّوح سـيّدة نفسـها، فـإن رُوحك تحرّرت رأيت الله، ولا سـلطان لبشرٍ عليه، هو ذو السّـلطان والحسـب والعِشـق، كـما ينبغـي أن تحـرص أنّ تكون روحك شـفّافة، فـإن رأيت الله رأيتـه عبرهـا، إذ كيف يُمكـن أن ترى الله عبر وسـيط؟ الحقيقة دائمًا تسـكن الأعـالي، والظّافر من صنع مـن الحقيقة معبرًا، لا صنـمًا يعبده، أنـت تـاركٌ كلّ الحقائـق بعد موتك، والذي سـيبقى منك إلهام العِشـق نفسـه، فعِـش دُنياك صفـرًا، لا تحمّل كاهلك بأرقام غـير ذات جدوى، فـرّغ رُوحـك مـن أعبـاء الحـصر، وانطلـق إلى الملكـوت، كـن خفيفًـا فارغًـا، تصـل إلى عدمية الوجـود، وإن وصلـت، رأيت الله.

كنـتُ درويشـه الأمـين وخادمـه الطّائـع، وبرغـم عـدم قـدرتي على الإبصـار، كان يُـوكل لي المهام في كثيرٍ من الأوقـات، أهمّها أنّي كنتُ أعدّ لـه الطعام، وأرتّـل له القـرآن، وأحيانًا أغنّـي له من أناشـيد الدّراويش القُدامـى، كـما كنـتُ مسـئولًا عـن فرِاشـه ومضجعـه، كانت لـه غرفةٌ متواضعـةٌ عـلى سـقيفة خـان مـن خانـات شرق «قونيـة»، وكانـت له حصـيرة موسّـدة بالقـشّ يمـدّد جسـمه عليهـا ليـلًا، كنـت أرشّ ماء الـورد باهتـمام، وأكنـس الغرفـة كي تليـق به، وأتحسّـس الأشـياء التي اعتـدت أن أحفـظ معالمهـا، فـصرتُ مـع الوقـت بارعًـا في توضيـب غرفتـه والعنايـة بهـا، وكثيرًا مـا كان يطبطب على كتفي ويمسّـد شـعر

رأسي براحتِه ويقول:

- ما أخلصك في عالمٍ مليء بالمكفوفين!

وكانـت له عصا يتـوكأ عليهـا، يُطلقها أمام سـاقيه، ويتبعهـا، كانت لديـه القـدرة عـلى الإيـمان بـكلّ ما هـو غرائبـي، فمثـلًا هو يؤمـن بأنّ العصـا تعـرف طريقهـا، يُمكنهـا أن تـدبّ بـين تفاصيـل الـدّروب والشّـوارع وكأنّهـا تحفـظ الخرائـط، أكثـر ممّـا يفعل هـو، لـذا؛ فالعصا أمينـة، تُرشِـده للأمكنـة التـي تتـواءم ورُوحـه، تهديـه للتكايـا التـي يقبـع فيهـا الدّراويش يسـهرون اللّيـل يذكـرون الله ويمدحون عظمته وجلالـه، وكان يقـول:

- ذِكر الله خمر الدّرويش.

تجـوب بـه العصـا تفرّعـات المدينـة، فليلـةٍ يصطحبني لنجلـس في صحبـةِ إمـام يتحدّث في شـأن الدّنيـا، وليلةٍ ننضمّ لحلقة إمـام يتحدّث في شـأن الدّيـن والآخرة، كان مولاي «شـمس» منفتحًا عـلى كلّ الآراء والرؤى.

رغم هذا؛ كثيرًا ما عجزت عن صدّ الأذى عنه أو درأ العداوة.

في الطّابـق السّـفلي مـن الخـان الـذي يسـكنه، حانـة، يسـهر فيهـا الدّراويـش والمعّذبـون وذوو الهـوى والعاطفة طيلـة اللّيل، وينصرفون مـع هلّة نسـائم الصّبـح، بطبيعة الحـال، كان مولاي «شـمس» يسـهر بعـض الوقـت في الحانـة، يـشرب النبيـذ إن راوحـه مزاجٌ، ويسـتطعم مـذاق الجعـة إن بـدا لـه أنّ رُوحـه في حاجـةٍ إليهـا، اعتبره كثـيرون أنّه مجـرّد درويش متسـوّل يحطّ بين المُـدن والقرى طلبًا للنفع والـزّاد، لكنّه

كان يباغتهـم حـين يقـرأ كـفّ أحدُهـم أو كأس، مـرّة ناطحه صاحب الخـان، قـال له:

- اقرأني إن كان مكشوفٌ لك.

فابتسم مولاي وقال:

- لست مكشوفًا لي، وإنّما هو بحثٌ عن الحقيقة.

- فلسفتك تغلب على صدقك.

- الصّدق نسبيٌّ.

- والكشف أيضًا.

فسحب مولاي يده، وقال:

- أعطني كفّك إذًا.

ومـرّر أناملـه في بطـن كفّـه، ودمدم، قـال لي مـولاي بعدهـا أنّ كفّ الرّجـل بـدت كجحيـم مسـتعرّ، رأى النّـار وشـعر بحرارتهـا، ورأى «إبليـس» يجلـس على قارعـةِ طريـق، وأبنـاؤه يتقافـزون حولـه، كانوا عـشرة صبيـانٍ، فقـال مـولاي للرّجل آنـذاك:

- كم ولدًا أنجبت من السِفاح؟ عشرة!

بُهت الرّجل، شدّ يده بسرعة من بين أصابع مولاي، وهتف:

- وكيف لك أن تعرف؟

- كلّه محفورٌ على خارطة المصير.

- كذبت وإن صدق الكشف، الله لا يكشف لأمثالك.

ردّ مولاي:

- وإنّما الله بذرنا من حشاياه.

- من أنت كي تتطاول على الله؟

- الله جالسٌ يراقبنا، ولعلّه يحتسى معنا نبيذًا.

هبّ الرّجل، وهبّ معه رجالٌ آخرون، صاح أحدُهم:

- مال مدينتنا عمرها الدّراويش المجدّفون!

ولطم مولاي «شمس»، ثمّ تحفّز نفران آخران وأحكما تكبيله من وراء، حاولت أن أزود عنه فلم أفلح، إذ سرعان ما طوحني أحدُهم فسقطت على الأرض، وتخضّبت جبهتي بالدّماء، وهاجوا على مولاي، تكالبوا عليه واحدٌ بعد الآخر، انهالوا عليه ضربًا ولم يكن ينبس، تصوّرته مبتسمًا يرفع وجهه للسّماء في رضا، كان يؤمن بأنّ الدّفاع عن النفس لا يأتي إلّا عبر الاستغراق في العِشق، وأنّ الإنسان يجابه أخاه الإنسان عن سوء حكمة وتقدير، والمغفرة رُوح العِشق.

انتهوا منه، فألقيت بجسدي عليه، وتساندنا حتّى صعدنا إلى الغرفة، وسمعته يبتهل ويناجي الله، وكان وهو يتضرّع يشهق من فرط البكاء، فسألته:

- مولاي كيف احتملتهم؟

فقال لي:

- علينا أن نستسلم لإرادة القدر، ليس ضعفًا ولا سلبية، إنّما القوّة الرُّوحانية الحقيقية تكمن في الاستسلام والصّبر، إنّها تنبعث من

داخلك كلّما استسلمت أكثر، العالم من حولنا فوضوي ومضطرب، العامل الوحيد الذي يضبط استقراره وأمانه هو الاستسلام للجوهر الإلهي في الحياة، لذا؛ فالدّراويش الحقيقيون يعيشون في سلام دائمٍ وطمأنينة لا تفنى.

- لكنّهم أوغادٌ جاحدون يا مولاي!

- اسمع؛ في هذا العالم، لا الأحداث المتشابهة ولا الأحداث الآمنة، ذات جدوى، بل المتناقضات الصّارخة، هي ما يجعلنا نتقدّم خطوة إلى الأمام، في داخل كل منّا توجد جميع المتناقضات في الكون، لذلك يجب على المؤمن أن يلتقي بالكافر القابع في داخله؛ وعلى الشخص الكافر أن يتعرف على المؤمن الصّامت في داخله، وإلى أن نصل إلى اليوم الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الكمال، مرحلة الإنسان المثالي، فإن الإيمان ليس إلا عملية تدريجية، ويستلزم وجود نظيره: الكفر. إذ خُلق هذا العالم على مبدأ التبادل؛ فكلّ امرئ يُكافأ على كلّ ذرّة خير يفعلها، ويعاقب على كلّ ذرة شرّ يفعلها، لا تخف من المؤامرات، أو المكر، أو المكائد التي يحيكها الآخرون؛ وتذكّر أنّه إذا نصب لك أحدهم شركًا، فإن الله فعل ذلك، فهو المخطّط الأكبر، إذ لا تتحرّك ورقة شجرة من دون عِلمه، آمن بذلك ببساطة وبصورة تامّة، فكلّ ما يفعله الله يفعله بشكل جميل، إنّ الله ميقاتي دقيق، إنّه دقيق إلى حدّ أن ترتيبه وتنظيمه يجعلان كلّ شيء على وجه الأرض يتمّ في حينه، لا قبل دقيقة ولا بعد دقيقة، والسّاعة تمشي بدقّة شديدة بالنسبة للجميع بلا استثناء، ولكلّ شخص وقتٌ للحبّ ووقت للموت، وليس

مـن المتأخـر مطلقًا أن تسـأل نفسـك، هـل أنا مسـتعد لتغيـير الحياة التـي أحياهـا؟ هل أنا مسـتعد لتغيـير نفسي مـن الدّاخـل؟ وحتّى ولو كان قـد تبقـى من حياتـك يومٌ واحد يشـبه اليوم الذي سـبقه، ففي كلّ لحظـة ومـع كلّ نفس جديد، يجب على المـرء أن يتجدّد ويتجـدّد ثانية، ولا توجـد إلّا وسـيلة واحـدة حتّى يولد المرء في حياة جديـدة؛ وهي أن يموت قبـل الموت.

قلت:

– ومـا الـذي يُمكـن أن يتغـيّر في العـالم إن عاودنـا التجدّد مـرّة بعد مرّة؟

قال:

– لأنّنـا تـرسٌ كبير، نحرّك العـالم نحو الكمال، نحو الصّـورة الكُبرى التـي يجـب أن ينتهي عليهـا، وليس معنـى أنّ الأجزاء تتغير فـإن الكلّ لا يظـلّ ذاتـه، لأنّـه عندمـا يغـادر لصٌ هـذا العـالم، يولد لـصٌ جديد، وعندمـا يمـوت شـخصٌ شريف، يحـل مكانه شـخص شريـف آخر، وبهـذه الطريقـة لا يبقـى شيء مـن دون تغيـير، بـل لا يتغـير شيء أبـدًا أيضًـا، لأنّـه مقابـل كلّ صـوفي يموت يُولد صـوفي آخر في مـكان ما في هـذا العـالم، إن ديننـا هو دين العشـق وجميـع البشر مرتبطون بسلسـلة مـن القلـوب، فإذا انفصلـت حلقة منهـا، حلّت محلها حلقـة أخرى في مـكان آخـر، إنّ الأسـماء تتغير تـأتي وتذهب لكـن الجوهر يبقـى ذاته.

– وهل ثمّة جدوى من عشقٍ لا ينتهي لحقيقةٍ؟

– العِشـق الأصيـل هو الذي لا غاية من ورائـه، إذ لا قيمة للحياة من

دون عشـق في الأسـاس، لا تسـأل نفسـك ما نوع العشـق الذي تُريده، روحـي أم مـادي، إلهـي أم دنيـوي، غـربي أم شرقي، فالانقسـامات لا تـؤدي إلّا إلى مزيـد مـن الانقسـامات، ليـس للعشـق تسـميات ولا علامـات ولا تعاريـف، إنّـه كـما هو، نقي وبسـيط، العشـق مـاء الحياة والعشـيق هـو روح من النّـار، يُصبح الكـونُ مختلفًا عندما تعشـق النّار الماء.

ونحـن المتصوّفـة، بعضنا نارٌ، وبعضنـا ماءٌ، ما بالك لـو اختلطا فينا! أيـن يُمكن أن يذهب بنا العِشـق وقتها؟

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٢٨ هـ

(كلّ ما أعرفه هو أنّني لا أنتمي إلى هنا، وهذه النّشوة قد جاءت معي من حانة أخرى).

عندما مات أبي، رأيتني ورأيته في حلمٍ أشبه بكشوف الغيب.

عندما مات، كنّا في «قونية»؛ بلاد «الأناضول»، دولة «السلاجقة الأتراك»، وعاصمتهم، والمستقرّ الأخير لرحلةٍ بدت لا مستقرّ لها، كان «علاء الدّين كيقباذ» حاكم «الأناضول» قد وجّه دعوةً لأبي كي يُمارس التدريس في مدرسة «قونية»، فاستقرّ بنا المقام هناك، وبدا أبي قد نبضت فيه أمارات الحياة ثانية، كأنّما انبعث من جديد، ربّما لأنّ «قونية» تُشبه إلى حدٍ كبير بلادنا «بلخ»، كان أبي بارعًا في تدريس الفقه والعلوم الإسلامية، فصار تلاميذه مريديه، وازدادت أعدادهم يومًا من بعد يوم، ومن ثمّ أُسنِد إليه إدارة المدرسة بأسرها، وكُنتُ أحد تلاميذه حيث راح يبتدع مسائل الفِقه ويحلّلها ويميط اللّثام عن ملابساتها.

عندما مات، أُصبت بالذّهول، ليس لأنّي حزنت عليه فقط، وإن كانت غصّتي عليه ضاربة في الأحشاء، قدر ما شعُرت فجأة بالغُربة والفراغ، من بعد أمّي لم يكن لي غيره، ثمّ اليوم رحل كلاهما وتركاني أعاقر أزمنة الفراغ وحيدًا.

خرجت لأبي جنازةٌ لم تكن لمدرّس في مدرسة «قونية» من ذي قبل، فُجع عليه الجميع، وأدركوا أنّهم فقدوا عالمًا حقيقيًا.

قال لي بينما يحتضر:

- أوكلت لك نفسك، فاحرص ألّا يسكنها النكران والجحود، اعرف طريقك إلى الله بالعِشق، نجاة ابن «آدم» في العِشق.

وليلة مات، تقلّبت في الفراش طويلًا، إلى أن خلدت لنومٍ عميق،

وفي الحلـم، بـدا لم تعُـد النّهايـات تعنيه كثـيرًا، في الغالـب لم يكن يعنيه سـوى بدايتي، ربّما باتـت كلّ النّهايات- إليه - أمرًا نسـبيًا مجرّد التّفكير فيـه عبـثٌ، كان يتـوكأ - في اسـتنادة أقرب للتشـبّث بطوفٍ خشـب- عـلى كتفـي، وإن بـدت الشّـمس في حمرتهـا المزاجيـة الغاربـة نخـرج، نجلـس رفقـة أحدنـا الآخر عـلى شـطّ النّهـر في «بلخ»، وشرفـة البيت مـن الوراء تطالعنـا ونحن نسـامر النّهر، قـال أبي:

- ماذا تريد أن تصطاد اليوم؟

وغمـز بطـرف عينـه مداعبًـا، وتركنـي أرمـي صنّارتـه نحـو فضاء النّهـر، وانتظرنـا معًا.

- في القديـم، حـين فقدت أمّـك، قلت لنفسي أكفّ عـن الصيد، إنّما كنـت أنت الملاذ مـن الوحدة.

- تُرى يا أبي! لأيّ حدٍ أشبه أمّي؟

- لحدّ الكمال.

ثم هزّ رأسه في أسف وأكمل:

- اُنظـر يـا ولـدي، لقـد فرُغـت الدنيـا إلاّ منّـا، لم يعـد لنا غـير ذاك البيت...

ولوّح بإصبعٍ هزيلٍ للوراء...

- والتذكّر.. والصيد.

قـرص الشّـمس يغطـس في خطّ المـاء البعيـد، تتداعى قبالتنـا متون السّـماء النّهاريـة، فتسـبح ظـلال اللّيل - رويـدًا - بين أكـفّ الأفق

المفرودة، أقول والصنّارة لم تؤتَ صيدًا بعد:

- أُف..!

ينهاني أبي عن التعجّل، يقول في حكمة صاعدٍ إلى السّماء:

-الصّبر يفاجئك بالمعجزات.

فأصبر، أنتظر معه خروج أولى مكاسب الصنّارة، يحمل لي الهواء نسمات من حنين، وأنا أديم تأمّلي في جانب وجه أبي المليء بصفعات الزمن. لمَ عيناك شاخصتان في عبّ المياه؟ تُرى يا أبي ما الذي قد يسفر عنه صيد اليوم؟ مالك شارد شرود الموج؟ هل يحفل شرودك بالذّكريات؟ لو أنّ لي صبرًا في ذاك الملكوت كصبرك لأمسيت شائخًا دون الميعاد.

يهتزّ بين أنامله خطّ اتّصالنا بالنّهر، ترتجف يده قليلاً فأثبّتها بمسكة من يدي العفّية، نشدّ سويًا الصنّارة والموج يتلألأ، يظلّ أبي يلهث منفعلًا كلّما دنا صيدُنا من سطح الماء، ثم فجأة أغشى عيوننا بريقٌ لم يكن في بهائه مثيل، كانت نجمة أرجوانية.

نلمّ سويًا —وأنفاسي مُختَطفة- بدن النّجمة الرخو وندفئها في ثوبي.

- أبي إنّها نجمة حيّة.

- ومتى كانت النّجوم ميّتة؟ كلّما أفلت روح على الأرض سقطت نجمة من السّماء في مجهول النّهر.

أخذت النّجوم المتألّقة في السّماء تصطفّ أعلانا في منظومة قدرية وهي تطلّ على صاحبتها التي تضطجع في حِجري، كانت النّجمة

ترتعش بين ساقيّ كأنّها لم تعرف الدفء أبدًا، أو لعلّها تعزّيني فيمن فقدت! لا أدري! تخالط عليّ الأمر ان فأوشكت أن أنجرف نحو فضاء الذّكرى، وثمّة دمعٌ يتقاطر على النّجمة في حجري فتنتفض أكثر كما لو أنّها تُحيى من جديد، كم فقدتُ؟ ليس لي سوى حلم يتحايل بأواصر البقاء!

موج النّهر يتدافع نحونا مزدانًا باللّمعان، ومن صفحته تخرج هوام فردوسية مضيئة إضاءة ذكرى لم تبارحنا. قال أبي في وهن:

- تلك أرواح البحر تحتفل بتمام صيدنا.

ومضى يردّد مبتسمًا:

- كلّ روح آفلة نجمة في بحر.

وفي السّماء، تدور النّجوم دورة غير مسبوقة، يحتويني غديرٌ من سحر طالع إلى أعلى، يمسّ رُوحي والنّجوم، فأشعر بنبضها، ودفئها، وأروم صوب لذّة الإحساس بالبريق الذي أضاء الكون من حولنا.

- أبي.

أهزّه، لكن الابتسامة التي كست شفتيه جمدت، ورأسه تساندت على منكبه، وعيناه اللتان شردتا منذ قليل ها هما قد شردتا شرود الأرواح التي سكنت البحر.

مصفوفة النجوم بأكملها مضت تتساقط نحو البحر نجمة تلو أخرى، كأنّ العالم إلى فناء.

أفقت من نومي وقلبي مطمئنٌ، أدركت أنّ أبي إنّما استقرّ في حيّزٍ

أرحب، كانت الغُصّة فقط في أنّي لن أراه ثانية إلّا عبر أحلام متفرّقة.

بعد وفاة أبي بأشهرٍ قليلةٍ، التحقت بدرس الشّيخ «السّيد برهان الدّين محقّق ترمذي»، كان صديقًا لأبي، ومريدًا له، وفي الحقيقة هو من أرسل في طلبي، وحثّني على الانضمام لدرسِه، بدا شعُر بحاجتي للاستزادة من العلم والمعرفة، ولعلّه أدرك أنّي بموت أبي سأنقطع عن هذا، وكان قد انتقل منذ قريب من «قيصرية» إلى «قونية».

ربّت الشّيخ «برهان الدّين» على كتفي يومذاك، وقال لي:

- اظفر من تراث والدك بالنّصيب الكامل، ومثل الشّمس، ستنثر النّورَ على امتداد العالم.

وكان لمولاي الفضل في إشباعي بدروس الرّوح، درسًا بعد درس، يومًا بعد يوم.

والشّيخ «برهان الدّين محقّق ترمذي»، من السّادات الحسينية في «ترمذ»؛ التي أغار عليها التتار وأهلكوها، عندما جاء إلى «بلخ» في شبابه، أراد الاستقرار هناك، وعندما قابل أبي؛ سلطان العارفين، وكان عشق الحقّ غالبًا عليه، صار مريدًا له من القلب والرّوح، أدركت بعد فترة أنّه انتقل من «قيصرية» إلى «قونية» لرعايتي بناء على وصية من أبي، من أجل أن يتمّ أمري - وفق ما قال لي - على أكمل حال، وأصعد في سماوات الرّوح مثل مَلَكٍ من الملائكة، وأكون سببًا في حياة النفوس البشرية.

وصف الشّيخ «برهان» أبي قائلًا:

هو حُجّة الحقِّ، والواصل إلى الحقّ، والمُكمّل، والمتمم.

ثمّ يقول معتزًّا أكثر بشيخه:

- أرى الأنبياء والأولياء في اللّوح المحفوظ، أعرفُ كلّ واحدٍ منهم، وبعد «أحمد» المُرسلُ وُجِد كثيرٌ من الأولياء، لم يكن لأحدٍ منهم منزلة سيدنا «بهاء الدين»، ليس في هذا مُراءةٌ.

تقع مدينة «قونية» جنوب غرب «الأناضول»، وتعتبر من أقدم المدن التاريخية ومن أوائل المدن المأهولة في تاريخ البشرية، تشتهر بتاريخها العريق، ثقافتها المتنوعة، ثرواتها الطبيعية، ومدارسها الدّينية.

يحلو لي في أغلب الأحيان أن أتسكّع بين شوارعها ودروبها، أقف أمام قصر «سرايا» الذي أمر ببنائه السّلطان «علاء الدّين كيقباذ»، تسرح عيناي مع عظمة بنائه وروعة زخارفه، أشعر أنّ الأرواح تخرج من بين بطون القصر مغتسلة، تصعد إلى السّماء مطمئنة، وتعاود رجوعها آخر كلّ ليلٍ.

أتحسّس نصب «فاصلار» التذكاري، وأقول لنفسي: ماذا لو اجتاح المغول هذه البلاد أيضًا؟ هل سيبقى فيها قصورٌ أو أثر!

بحيرات «قونية» جمالها ساحرٌ وخلّاب، تعتبر موطن العشاق من طلعة الصّبح وحتّى المغربية، بحيرات «مكا» و»طوز» و»ميرام»، يجلس على ضفافها المغرمون والدّراويش، يبتهلون ويسامرون المياه، ينتشر فوق وجوههم رذاذ المياه المتطوّح من الرّيح، فتنتعش القلوب،

وتُولد من جديد.

وعلى ضفّة بحيرة «أوبروك» أجلس، أتأمّل أقواس قزح التي تلتمع فيما وراء خطّ اتّصال المياه مع السّماء، تعتركني الذّكريات، وألوان البحيرة تتبدّل بتغيّر ساعات اليّوم، ففي الصّبح لونها أزرق، وفي الظّهر أبيض، وفي العصرية أخضر، والمغربية يصبح لونها أرجوانيًا بلمسة الفيروز، أداعب بأنامل قدميّ سطح مياهها، وتمرح رُوحي بين أغادير العِشق الإلهي.

على ضفّة بحيرة «أوبروك» قابلت أولى زوجاتي؛ «جوهر خاتون»، رأيتها كأنّها طالعة من لوحةٍ فنيّة استثنائية، كانت جالسةٌ على كرسي من خيزران تتطلّع في متن المياه، يشفّ وجهها شجنٌ واغتراب، شعرها بلون الكُحل، ووجهها بلون المرمر، شدّني لها أثيرٌ مُعجز، فظللت سارحًا في ملامحها وبدت أنّها انتبهت، فهبّت من فورِها وغابت خلف أديم الغروب.

وباتت ضفّة بحيرة «أوبروك» ملاذي حين يستأسد بي الشّوق ويلعج في أحشائي، غابت أسبوعًا، حتّى ظننت أنّها مرّت على البحيرةٍ مرور الكِرام العابر، وفي اليوم الثّامن جاءت ومعها طفلةٌ صغيرة لم يتجاوز عمرها سنواتٍ خمس، أجفلتُ، وخطر في بالي أنّها ابنتها، فأصابني الغمّ، وعدمت إحساسي بالأمل في لحظة، وبدا على ملامحي، وكدت أنصرف، لولا أنّ والدة البنت جاءت، واصطحبت ابنتها وغادرت، وبقت «جوهر خاتون» جالسةً على ضفّة البحيرة، كمن تنتظر تجرّأ وجسارة، دنوت منها وعجز لساني عن فتح ثمّة

حـوار، ظلّـت توليني جانـب وجهها، لكـنّ ملامحها بـدت مطمئنة، تشـجّعت وبادرت بالقول:

- إنّنا البشر كثيرًا ما تتبدّل أمزجتنا كألوان هذه البحيرة.

بـدت أحسّـت أنّي فيلسـوف عاجز عن طرق سـكّة حـوار أكثر لُطفًا وشاعرية، فابتسـمتْ، ولم تردّ.

أطرقـت برأسي، مـا هذا الذي أقولـه؟ أيّ أمزجـة وأيّ ألـوان! ألهذه الدّرجة غلّ لسـاني؟

- أنا «جلال الدّين الرّومي» ابن الشّيخ «بهاء الدّين البلخي».

قالت:

- بالطبع سـمعت عنك، ليس أكثر من اسـمك ذيوعًا وشـهرةً، أنت مولانا.

طمأنني معرفتها السـابقة بي، فتحمّسـت أكثر، ودنوت التصقت بها، فأزاحت نفسـها قليلًا، وقالت:

- اسمي «جوهر خاتون»، أسكن غرب «قونية» لو أنّ لك مسعىً.

ثـم قامت برفقٍ وغـادرت، في اليوم التّالي فاتحت مـولاي «برهان» في أمرها، فأثنى على اختيـاري وقال:

- أعرف نسبها، أبوها رجل ميسور وأصلها عريق.

بعـد بضعـة أيّامٍ، كان عقد قراننا، في مسـجد «صـدر الدّين القنوي»، وهـو عبـارة عـن ضريـح مسـجد ومدرسـة وحمّـام، في حمّـام المسـجد تأهّبـت للزّفـاف، شـطّفت جسـمي ورُوحـي وقلت لأكن مسـتعدًا

للقاء «جوهر خاتون»، أحببتها حبًّا صادقًا، وأنجبت منها ولدين: «سلطان ولد» و»علاء الدّين شلبي».

كان ولداي يكبران يومًا بيوم أمام بصري، ولكنّ «علاء الدّين شلبي» كان عنيدًا، وفيه كِبرٌ وغرور، حدّ أنّه تطاول عليّ يومًا ولم يزل في سنٍّ صغيرة، بُحت لمولاي «برهان» عن الأمر، فتأسّى، وقال:

– ولدُك تسكنه وسوسة، عليك بالأئمة والمساجد.

طفت به على كلّ مساجد «قونية»، وشيوخها، مسجد «عزيزية»، مسجد «السليمية»، مسجد «شرف الدّين»، حتّى مسجد «الباب» الذي يقع على حدود قلعة «قونية» القديمة، ومسجد «أشرف أوغلو».

بلا جدوى، كان الصلف يكبر في عينيّ الولد كلّما نضج، الغريب أنّ كلّ الشيوخ والأئمة اندهشوا لكوني أنا تحديدًا، صاحب الولاية، متحيّرًا في أمر كهذا، قلت لأحدهم:

– وإنّما الأمر إذ يقع في يدك تعجز.

وأشار عليّ مولاي «برهان» بزيارة لصديقٍ من القساوسة في كنيسة «آيا ألنا»، رافقني، واستقبلنا القسّ بحفاوة بالغةٍ، وأجلسنا وطلب لنا كوبين من «الآيسون»، قصصت عليه ما كان من أمر ولدي، فضحك، واستطرد:

– وإنّما تلك طبيعة النشء يا مولانا، النّفس الفائرة والعقل المتمرّد، دعه يستكمل معرفته وعلمه ليكتمل حلمه، ساعتها ستهدأ رُوحه

وتنعقد سريرته.

- ولكن ابني الأكبر لا يُشبهه في شيء.

- تلك طبيعة أخرى من طبائع الإنس، من فينا يُشبه أخاه يا «رومي»؟

منطقه أقنعني، فبدأت أصطحب ولدي معي لدروس الشّيخ «برهان»، حتّى وإن كانت سنّه صغيرة لا تسمح، رغم ذلك، أدهشني بذاكرته وتساؤلاته واستعداده الشغوف بالمعرفة، وراح ولدي يحفظ الشّعر برُوحٍ وافرة الحماس، إذ كان سيّدي «برهان محقّق» مولعًا بالشّعرِ أكثر من أبي، بشكل خاص كان ولعه شديدًا بـ«سنائي الغزنوي»، لذا؛ أحبّ ولدي شعر «سنائي» بدوره، وبات مُولعًا ومفتونًا بالشّعر في دروس مولاي «برهان».

واظبت على رفقة الشّيخ «برهان»، والاستماع لدروسِه، وحفظ أشعاره، عامًا من بعد عام، وولدي يكبر وسط تلاميذ مولاي، ولمّا أحسّ بأنّي أتممت منهجي واكتمل بنائي الفقهي والعلمي، قال لي في خلوةٍ من خلواته التي كان يطيب لي الجلوس فيها:

- أي روحي ونور عيني، برغم أنّك بذلت جهودًا في تحصيل العلوم، وصرت مُشارًا إليك بالبنان، اعلم أنّ وراء هذه العلوم علمًا آخر، هذه العلوم قشرٌ له، وقد آثرني والدُك بمفتاح ذلك العلم، ومطلوب منك تحصيل ذلك العلم.

كنت قد صرت مريدًا له، لصيقًا، حبّه سكن أعماق روحي، وبين يديه كنت كفانٍ يتعلّم دروس الأبدية والخلود، تشرّبت على

يديـه فضائـل العلـوم اليقينيـة، ولُقّنت طرائـق السّـلوك وآداب العلماء والمشـايخ، تثبّـت بيـدي يومًـا بعـد يـومٍ، ولم يتركني في عـرض الحيرة، بـل صبر عليّ كأنّي ابنه، وعندما شـعُر باكتمال ولايتي سـجد شـكرًا لله، وطـواني على صـدره، وقبّلنـي في جبينـي، وقال:

- أنـت في جميـع العلـوم العقليـة والنقلية والكسـبية لا نظـير لك في البـشر، وصرت المشـار إليك بالبنـان لدى الأنبيـاء والأوليـاء في أسرار الباطن وسرّ سـير أهـل الحقائق ومكاشـفات الروحانيين، مـأذونٌ لك أن تبـاشر هدايـة الخلائق وإرشـادهم والأخـذ بأيديهم.

ولطالما كان يشـدّد عليّ ترك الدنيا وعدم الانشـغال بهـا، أو الانخداع بمظهرهـا الـبرّاق، إذ المحبّـة لا تُبقي ولا تـذر تعلّقًا بالدّنيـا، وإذا أحبّ الإنسـانُ ربّـه وعشـقه كان قُوتـه ذِكـرَه، فهـو معشـوقه الأوحـد، ولا يشرك في حبّـه شيء.

أذكر أنّه أوصاني قبيل وفاتِه بردحٍ:

- مخالفة النفسِ شرطُ القربِ، فكلّ اسـتجابة للنفـسِ بُعدٌ عن الحقّ، وبقـدرِ المخالفـة يكون القـربِ للمحبوب، احذر، إذا صالحت نفسـك صرت في حـربٍ مـع الله، وإذا كانـت مخالفـة النفـس شرطًـا، فإفناؤها ضرورة، بحيـث تبدأ الـولادة الجديدة، ويتحقق السّـالك بـ(موتوا قبل أن تموتـوا)، إنّ لُـبّ العبـادة هـو إفنـاء النّفـس، وبقيـةُ العبـادة ليسـت سـوى القـشر، ومـا لم تفن عـن هـذا الوجود، فلـن تحصل عـلى وجود مـن وجـوده تعـالى، فمُـت قبـل المـوتِ، وادفـن نفسـك في قـبر مخالفة النفـس وابتهج.

وكنّا نسير نتفقّد تفاصيل العالم، وبدا كأنّه أدرك جُلّ المعرفة وجوهرها، وحثّني على التريّض، قال إنّ الرُّوح إن تتريّض تصحّ. ومن أهم الرياضات الصّوفية التي حضّني مولاي «برهان» عليها؛ الصّيام، الصّيام بترك ما سوى الله، لا ترك الطّعام والشّراب فحسب، أو ترك الحلال والحرام، بل أن يترك السّالك كل شيءٍ دون الله، حتّى يخفّ جسده بما فيه من ثقل الرّغبات، ويتحول هذا الجسد من سجنٍ إلى سراجٍ ومصباحٍ يُضاء بنور القرب والمحبّة، فالصّيام يحقق الهدوء والأناة والصّبر.

قال وهو يبتسم:

- علينا أن نهدأ قبل أن نتكلم، علينا أن نتروّى قبل أن نُقدم على إحداث أيّ أمر من الأمور، على الإنسان أن يتوق إلى الحقيقة مثلما تتوق السّمكة إلى الماء، ليس فقط أن تتوق إلى غدير أو جدول، بل إلى محيط، وهكذا يمكن للسّمكة أن تتحول إلى تمساح، ولابدّ من بحرٍ لكي تغدو السّمكة تمساحًا.

ذات يومٍ حضرته سيّدة؛ صارت مريدة له فيما بعد، سألته:

- إنّك في الصّبا قد أكملت الرّياضة والمجاهدة، فما معنى أنّك في آخر العمر لا تصوم ويفوتك أغلب الصّلوات؟

فقال:

- يا بنتي، نحن مثل جمال الأحمال، حملنا الأحمال الثقيلة وذقنا شدائد الزّمان وقطعنا الطّرق البعيدة والطّويلة، واجتزنا مراحل ومنازل لا حدود لها، وأسقطنا صوف الوجود ووبره، فصرنا ناحلين

ونحيفـين وغـير مرغـوب فينـا، وأصبحنا تحـت الأحمال الثقيلـة قليلي الأكل ضيقـي الحلـوق، والآن رُبطنـا لأيّام قليلة لأكل الشّعير وعندما نسـمن نُذبـح في عيـد الوصـال، لأنّ الأضحيـة الضعيفـة لا تصلح في مطبخ السّـلطان وتسـمّن دائمًا.

ومـولاي «برهـان» يـرى أنّ الشّـيخ الصّـوفي والمرشـد والمعلـم، هو الـذي يُـدرك المعنـى الحقيقـي للإسـلام، وهـو حامل رسـالة العشـق والمحبّـة، إذ يقـول:

- كتـاب الله باطـن الشّـيخ، الكتابُ هو المعنـى الذي تـوارى فيه، لا يُعلّـم الشّـيخ الأسرار فحسـب، بـل هو الـذي يوصلـك إلى كلّ شيء، فالشّـيخ مثل شـجرة عظيمة للدّين، جذورها عنـد الله وفروعها تظلّل البـشر، وعـلى المريـد أن يطلب ظـلّ الشّـيخ، ليكـون ملجـأ يظلّله من شـمس الدّنيـا الحارقـة، والشـيخ مثل المـرآة تنظـر إليك بقـدر ما تنظر إليهـا، وعـلى المريـد ألّا ينظـر إلّا إلى شـيخه، إذ بينه وبين الحـقّ لا يبقى قيد شـعرة.

علّمنـي مـولاي «برهـان» أنّ العلمُ حجـابٌ، إذ بعد أن يتمّ السّـالك معرفـة العلـوم بكافة أنواعهـا يصـير مبتدئًا في طريـق السّـلوك، وكرّر عـليّ غير مـرّة:

- لتكـن جوهرتـك هـي أنت، أنت أنـت وأنا أنـا مُحال، أنـت أنا وأنا أنت وصال، وإنّ ذِكر الله يغدو كاملًا عندما ينسى الإنسان كلّ شيء إلّا الله، وعندمـا يكتمل ذكر الله يحصل النسـيان لغـيره، فكلمات المحبوب حيـاة، على المريد أن يشـغل نفسـه بقراءة القـرآن، وترديد كلـمات الحقّ

على لسانه، ومتى ما فرغ من هذين العالمين؛ عالم الظّاهر والباطن، صار حيًّا يرى الحقّ.

لم يكن مولاي يقيم وزنًا كبيرًا لقواعد الجرح والتعديل التي يهتم بها أهل الحديث، ولا يرى أنّها مدعاة للافتخار كما هو الشّأن قديمًا، فهذا المذهب عنده غيرُ مُرضٍ، إذ أنّ المعرفة الحقيقية تكمن في معرفة الله، والمحروم من هذه المعرفة يظل محجوبًا عن الحقيقة، ولا يمكن أن يكون يومًا ما عارفًا، أما العارفُ فمن اعتنق مذهب (حدّثني قلبي عن ربّي).

ظللت محتفظًا بكلماته ذكرى، في صحائف يتناقلها أولادي لأحفادي، تُرشدهم وتهذّب أرواحهم، أخفّف بها رُوحي من حينٍ لآخر:

- «الرّوح من نور عرش الله مبدؤها، وتربة الأرض أصل الجسم والبدن، قد ألّف الملك الجبّار بينهما، ليصلحا لقبول العهد والمِحنِ، الرّوح في غربةٍ والجسم في وطنٍ، فارحم غريبًا كئيبًا نازحَ الوطن».

- «أحياني بحَياته وأنارني بنُور ذاتِه».

- «البدن يفنى ويموت والرّوح لا يفنى ولا يموت».

- «الأُنْسُ مَعَ اللهِ نُورٌ سَاطِعٌ، وَالأُنْسُ مَعَ مَا سِواهُ سُمٌّ قَاطِعٌ».

- «الْبُهْتَانُ عَلَى الْبَرِيءِ أَثْقَلُ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ مِنَ الأَرْضِ وَقَلْبُ الْقَانِعِ أَغْنَى مِنَ الْبَحْرِ».

- «الذّكرُ خروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف

وشدّة الحبّ».

- «الشّوقُ نورُ شجرة المحبّة والعشق ثمرتُها».

قلت لولدي بعدها بسنوات:

- انضج وابتعد عن التغيّر وامض مثل «برهان محقق»، وصرْ نورًا، وإذا ما تحرّرت من نفسك، صرت كلّك برهانًا.

بعد سنواتٍ، استقامت رُوح «علاء الدّين» كثيرًا، لكنّه حزن واعتكف عندما مات «برهان» مولاي، حزنه كان أكبر من حزني، وقال لي في حسرة:

- مات الذي أطعمني الشّعر والتصوّف.

بعد وفاتِه، وشيئًا فشيئًا، حللت مكانه في المدرسة، زاولت العمل في دروس الوعظ والفقه، وكانت حلقة تلاميذي تتّسع، طرقت دروبًا جديدة في علوم التصوّف والإسلام، بل إنّي اختلقت دروبًا لم تكن من ذي قبل، فتألب عليّ بعض الأئمة والمشايخ، ظنًّا أنّي أفتري على علومهم وفقههم، لكنّي في خطبةٍ أمام جميع أئمة ومشايخ المدرسة قلت :

- إن الله إذ أنزل كتابه فإنّما أنزله للتدبّر والتفكّر، واجتراح الحجّة بالحجّة، والعلم بالعلم، أنزله ليمضي بنا نحو تطوّر ابن «آدم»، لا لنمضي به على علّات زمانه وظروفها، في الكتاب كلّ آيات التقدّم، وإنّنا كي نُبقي على مساحات الأمان لا نخوض في المسائل التي أوجب الله علينا الخوض فيها، الشرع موضوع، وإن كانت أصوله في الكتاب، ومن خصائص البشر التأمّل والابتداع، هذا ما خُلقنا

لأجلـه في المقـام الأوّل، فكيـف بـالله لا نطـوّر مـن مسـائلنا إن كان الله نفسـه أمرنا به!

لكـنّ الحـرب دامـت تسـتعرّ نحـوي، فنُفيـت لبعـض الوقـت إلى «دمشـق»، بأمـرٍ من حاكم «قونيـة»، تراءى لـه أن يلطّـف الأجواء كيما تهـدأ النّفـوس الفائرة، ويسـتتبّ الأمر، ومن ثـمّ يجوز أن أعـود في فترة صفـا، وفي «دمشـق»، التقيـت بالإمـام الأكبر «محـي الدّين بـن عربي»، أهـداني كتابـه «الفتوحـات المكيّـة»، أخـذت أنهـل مـن علمـه الوفير، واتّسـاع رؤاه، وتطـوّرت بداخـلي محاسـن الجانبـين؛ جانـب المعرفـة، وجانـب العرفـان، وكـم كانـت العقـول الدّينيـة في «دمشـق» عظيمة! هناك تعرّفت إلى خبايا السّـلوك الفقهي، وتمرّسـت في اسـتبيان جواهر العمـل الصّوفي.

لم أعـد إلى «قونيـة» إلّا بعـد مـرور أعـوامٍ أربعة، عندما أرسـل ولدي «سـلطان ولـد» خطابًا يُبلغني فيـه أنّ حبيبتي «جوهـر خاتون» رحلت عن دنيانا.

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول -٦٤٠ هـ

(طريقُ التّصوف سبيلُ كسيري القلوب،

المشيحين عن العداوات والأحقاد).

عـاودت الرّحيـل، وكان العـالم قد بـدأ يتغـيّر، تحيّر مـولاي، ولكنّي سُـكنت بيـأسٍ لا يماثلـه يـأسٌ، طفت بـين المُـدن، يرافقنـي طيـف «كيميـا»، سرت تحـت المطـر لا أكـترث، شـاهدت الثلـوج تتطاير من خلـف أسـنّة الجبـال، نمـت في أحضـان المجذومـين، ولم أر الله في رؤيا لسـنواتٍ، لعلّـه ظـلّ غاضبًا منّي، فقـد هجوته وتشـاجرت معه، قلت لـه: إنّ عشـقك وهمٌ.

في ليلـة مـوت «كيميا» توسّـلته، انتحبـت ورجوته أن يهبـط، لو أنّك هنـا عُد بهـا إليّ، لـو أنّك عاشـقي لا تُفجعني.

في هـذه اللّيلـة كِدت أفقد إيماني بسـائر المقدّسـات الرُّوحية، اشـتعل البيـت، فجـأة وجّت كُتلـة من النّـار، راحت تتصاعد لأعـلى، انتشرت تلتهـم مسـاحات الأفـق، وبـدت غاضبـة، بـدت كأنّهـا مبعوثـة مـن عنـد الله لتعذّبنـي، كانـت النّـار تتراقص تحت سـجف السّـماء، تشـبّ وتتراقـص بجـذل، ولم تكـن لتشـبع، لم أسـمع صراخ «كيميـا»، كأنّهـا انمحقـت في لحظـة، صرخـت، صحـت به:

- هل أنت غافٍ؟

وكأنّـما لم يُنصـت لعـذابي، حاولـت اقتحـام النّـار والدُّخـان، دون جـدوى، عزلوني عـن موضع الحريـق، تكالبوا فوقـي، ولم أزل أصرخ، حجـزوني فلم أدخل لإنقـاذ حبيبتي، تمزّق جسـدي، تناثر مع صراخي إلى أشـلاء، وبـدوت أعـوي، النّـار في أحشـائي أكـبر، دعـوني أرافقها، ولكنّهـم قيّـدوني بأياديهـم، وأُرغمـت على مراقبـة النّـار وهي تطقطق عظـام البيت.

وعندما أطفئوا النّار، لم يكن قد تبقّى من جسد حبيبتي جزءٌ واحد، وقد ذابت.

❋ ❋ ❋

قالت لي «كيميا»:

سأحكي لك حكاية يا «شمس»، عن ملاك وإنسان وسهم.

السّهم في يد ملاك، والسّهم يعرف طريقه القدري إلى قلب إنسان، لكن؛ عن طريق الخطأ، كذلك ربّما عن طريق صدفة قدرية أو مداعبة من صديق، رشق السّهم.

في بداية المساء، ولسان من الشّفق أحمر اللّون يمد ذراعيه واقفًا يباعد ما بين جسديّ النهار واللّيل المتلاحمين، انطلق السّهم.

لم يكن هناك مجالٌ للخطأ، فعلها ملايين المرّات، هي حرفته الوحيدة في السّماء، أن يحمل جعبته فوق كتفه ويجوب الأرض بحثًا عن المستهدفين ثم يرمي سهامه فتصيب القلوب، لكن هذا اليوم، على الرّغم من أنّه يثق أنّ الهدف كان أمام بصره، كما لم يكن منشغلًا عنه، ولا فاقد التركيز ولو لثانية، انحرف السّهم، فتح فمه مندهشًا: كيف انحرف؟ دعك عينيه جيدًا، ثم أطلّ برأسه مرّة أخرى، ووجد أنّ المشهد لم يتغيّر، لقد انحرف، هكذا، وكأنّ يدًا خفية بدلّت مساره، وجده فجأة رقد في قلب بنتٍ صغيرة، كان يريد أن يصيب السّهم صبيًّا يقدّر معنى العِشق، لا بنتًا قلبها لم ينضج بعد، غير أنّ الرّيح لاعبته، أو ملاكًا آخر داعبه، أو القدر بنفسه، إنّما قرّر أن يحيد السّهم عن طريقه، ليستقرّ في قلب البنت.

قامت الدّنيا، السّـماء الهادئة فوقه امتلأت بالغيـوم والرّعد والأضواء، الأمطـار تنـذر بالـشّر، إنّهـا تسـقط على رأسـه كـما الإبر، بسرعـة هبط نحـو الأرض واحتمـى بجـدارٍ طينـي مـن جـدران بيـت مـن البيوت الخانعـة التي تنبثـق في المدينة.

كنـت بنتًـا صغـيرة عندمـا سـقط السّـهم في قلبـي يـا «شـمس»؛ فأحببتـك.

وضحكـت «كيميـا»، مـلأت ضحكتها فـراغ العـالم بالـورد واللّون الأبيض.

* * *

غـافٍ ضوءُ القمـرِ فوق عيـدان الذرة المشـبّعة بالنـدى، وضحكتكِ يـا «كيميا» تسـتطيل وتعبّق المـدى، تنعس رموشُـكِ بين العيـدان التي تلامـس حنينـي إليـكِ، والله ينازعنـي فيـكِ، كـم أخشـى أن تأنَسي له وتنسـيني! وتلقي بي يابسًـا كعـود ذرة جـاف حُبس نبضُه بـين العيدان السّـامقة، إنْ كان القَـدَر يا «كيميا» أن يشـاركني الله فيـكِ، فاهبِطْ يا الله لو اسـتطعتَ، اهبِـط، وسـوف أتركها لك.

يرافقني طيفُها الشفيف في غيبة الرّحلة، أسمعها تهمس في أُذُني:

- لو أنّ اللحظات الحلوة تطول...!

فأستدير نحوَها مبتسمًا وأنا أحدّقُ في طيفِها.

في شـوارعِ النّـور داخـل عينيـك يا «كيميـا» أطـوف، أراقـب وأرى وأتيقّـن، أحـاول لملمـةَ مـا تبقّى مِـن أطنان الإنـس الذين تاهـوا فيهما، وأكنس تـرابَ الزمن المُهدَر، أدور حافيًا كمجنـون في الميادين الصّاخبة

في عينيـكِ، يـا جنّـة تَخفـى عـن كلّ العيـون إلاّ عينـي، بيننا يـا «كيميا» أسـطورةٌ فريـدة، تجعل الكـونَ بـأسره مجرّد شـارعٍ صغير نجوبـه معًا.

بـين المُـدن والوديـان والأراضي أفترش شـوقي وأتمدّد، تحـدوني كلّ الذكريـات الأليمـة، أحـاولُ أن أتمـلّى في خريطـة التحـوّل مـن رَجـلٍ لرَجـل بداخلي، فأجـدني سرعان ما أخيـب، أتوه، أحـاول أن أتبيّن كلّ التضاريـس التـي صنعهـا الماضي، فأتـألمّ، يرفـض خيطُ المـاضي وصلَه بخيـط القـادم، تظلّ مسـاحةٌ معتمـة راكدة ما بـين الزّمنين، وأشـعر أنّ ثمّـة رحلـةً أخـرى للعاشـق بداخلي، رحلـة معلّقـة، ككلّ رحلـةٍ كان وجعُهـا بغـير نهاية، في نفـس العاشـق القديمة، إنّـما لم تنتهِ بعـدُ، رحلة يمـدّ معها الحـزنُ خُطـاه ملازمًـا، يغمس في قلبـي أصابعَ مِن شـطط، ويـؤرّخ لألف جـرح، ألف همّ، فتحبو داخـل الأوردة والشرايين نيرانٌ لا يطويهـا زمـن ولا تحايـل، وهناك على المدى البعيد مَرسـىً، أشـعر به يَغـرق معي، تضيـق الّدنيا بدونك يـا «كيميا»، أنادي على المَرسـى، على حُلمـي الأخير، يتبـدّد النداءُ فوق أشـواكٍ منثـورةٍ في الطّرقات، وتلوح الأشـواق المعطّرة بالعذاب.

مـا الـذي خانَنـا في الحقيقـة حبيبتـي؟ هـل هـي الطّريـق؟ هـل هـو الظـنّ؟ سـوء الاختيـار؟ هـل هـو الله؟

هـل تُهنَـا حقـاً في الـسّراب؟ أم في لحظات الغيـاب؟ هل صـار محرّمًا استشـعار أيادينـا للـدفء؟ هـل صحيـح البـكاء فـوق أطـلال الماضي محـرّمٌ كذلـك؟ مـا الحـلالُ إذًا؟ أن يُربـط دعاؤنـا بالمحـال؟ أن نُصلَب لاعتناقنـا مذهـبَ اليقين؟ تعـالَي يا «كيميـا»، تعالَي نبكي فـوق ضريح

الحّب، تعالَي نتفقّد معًا ما آلَ إليه المصير.

يزعـم مَن يعرفنـي إنّ دمعي عزيز، لكنّني أبدو وكأنّي سـأغطّي الدّنيا بدمعـي الآن، أيّهـا الدّمـع، كُـن ذكراهـا وأغـرِقِ الأجـواء، كـم تمنيت أن تُولـد بعينيهـا، وتَفنـى فـوق أكفّها، كـم تمنّيت أن تكون هي نفسـها دموعًـا لي، فـلا أبكـي عـلى الإطـلاق كـي لا أخسرهـا، تظـلّ راقـدةً بوجـداني، وكـم تمنّيـت أن تسـيل ملامحنـا فنراهـا بـين أيادينـا، وأراها تتداخـل عينًـا مـع فم، فـلا أعـرف إنْ كانـت ملامحهـا أم ملامحـي! لا أعـرف إنْ صرنا بـشرًا أم جنًّا، مجذوبين يهيمان بـين الكواكب والنجوم، نـذوب بعيدًا عـن هذه الحيـاة، نُنقَش فـوق كلّ وجوه العشّـاق، نُنقَش كحكايـةٍ قدَريـة مقدّسـة، نبلـغ حدّ الـلا معقـول، نفـرش أذرعَنا على الكـون، نسـكن الحُلـمَ المسـالم، نبحـث عـن وطـنٍ بديـلٍ للفضيلـة يا «كيميـا»، نـترك كلّ المَشـاهد السّـوداء في بـلاد المـوات ونمـضي، دون حـدود، دون فواصـل؛

ودون أجساد.

* * *

الشـمسُ كانت تنسـلّ بتؤدةٍ متواريةً متلفّحة برؤوس الجبال البعيدة، وأنا أسـير حذاء نهرٍ صغيرٍ كسـته الثلوج.

الأمـواجُ تَجنـح مِن منتصـف الخيط المتهـادي نحو الشّـمال وتضرب الشـطّ في وهَـنٍ وفي تكاسُـل، ثم سرعان ما تتفتّت وتعـاود الانبثاقَ من نقطة الوسـط كطيرٍ يأبـى الكلل.

أستقرّ في حانةٍ قُرب «قونية».

في قلبِ السّماء القريبة يجوب الطيرُ محاذيًا بصري يبحث عن موطن، في نفسي مانعٌ لا أستسيغه يَحول بيني وبين الاعتراف المطلق، في الواقع أجهل تفسيرَ كلّ ما يحدث لي، إنْ لم يكن الاعترافُ واجبًا فالأقلّ أن أفعل ولو مِن باب أن يستريح ضميري، كيف شاهت صورة الله التي ارتُسمت على جدار قلبي؟

إنّما لا أعرف! ثمّةَ شيءٌ ما، قيدٌ ما، يجعلني أكتفي بأن أَدفن رأسي بين أحجار النرجيلة وكأس النبيذ الأحمر، ولعلّني أغلَب الظنِ أخشى أن أفقِد ما تبقّى من عِشق في صدري، لكن هل يُمكن أن تعود لي يا الله؟ ما الذي يُمكنه أن يغلّب فضيلةَ الغفران لديك؟ هل آتِي صوبَ الحقيقة باسطًا قلبي للعِقاب؟ أم أترك الجرحَ للوقت حتى يلتئم؟

قبعتُ أسحب أنفاسَ النرجيلة حَجرًا تلو الآخر، وأحتسي الكأس واحدةً وراء الأخرى، قبعتُ حتّى علا صوتُ آذانِ الفَجر يجلجل: الصّلاة خيرٌ مِن النّوم، الصّلاةُ خيرٌ مِن النّوم.

همهمتُ في بالي: الصّلاةُ خيرٌ مِن الكرب.

كرجُلٍ كهلٍ بدأتُ في النهوض، وكأن ساقَيّ أثقلهما عبء الألم، قلتُ لنفسي في أسى:

- وكأنّي رجل عنده ألف عام!

انفرجتْ زاوية فمي عن ابتسامةٍ مشبّعة بالحرقة، مالي أقولها بصيغة

المبالغة! أنا بالفعل رجلٌ ناهَزَ الألف عام، وربّما أكثر.

فمـي يفـوح بالخمر، إنّـما لا بأس، الله يحـبّ الخمر، وإلّا مـا وعدنا بها في الجنّـة، ببطءٍ توضـأت، وببطءٍ اسـتنفدتُ طاقة مؤجلـة، كان الوهَنُ رفيقًـا اعتياديًـا في تلـك العزلة، ولكنّنـي أشـدّ وهَنًا وأنـا أختبئ داخل أسـمال ثـوبٍ بالٍ مـن صوف.

أدس قدمَيّ في القبقاب، ثم أخرج إلى المسجد.

في غبشـة الفَجـر كلّ التفاصيـل سـاجية، كانـت قدماي تتحسّـسـان موضـع الـوطء عـلى الأرض، والمسـجدُ قريب، ليس أبعد من خمسـين خطـوة، وبضعـة كلابٍ ضالّةٍ تتوارى وراء حوائط البيـوت، إنّما نباحُها ظَلّ يصاحبني بطول مسـافة الوصول إلى المسجد، وكان خانعًا نباحها، كصريـرِ بـابٍ قديـم لم يُفتَـح لسـنوات، وفي الجوار شـجرةُ جمّيـزٍ هائلة تحتضـن ثلاثة أزيـار ماء وهبَهـا صاحبُها للسّـبيل وللمارّةِ العطشـانين، وبامتـداد الـدرب أزقّـة متفرّعة تتلفّح بظلمـةٍ داجنة، وريـحٌ تهب نحو وجهـي ناعمةً تستوقفني قليلًا.

يحتـل المسـجدُ ناصيتـين، يدخل القليلـون بعـد أن ينحنـوا ليخلعوا نعالهـم في تكاسـل، كانـوا يغالبون النعـاسَ وبعضهم يتثـاءب بالفعل.

لـتروا هيئتي الهزيلـة، الواقف أمامكم لم ينم منذ ليالٍ! لربّما يُشـعِركم هذا بنوع من النشـاط، في النهاية قد تتوسّـدون أسرّتَكم لطلوع شـمسٍ جديدة، وأتوسّـد أنا قهري وإحباطي لطلـوع يأس آخر.

بطـن المسـجد مـن الداخـل ممتلئـة بالـشّروخ، كانت تهبط مـن أعلى لتنتهي عند حواف الحُصر المفروشـة وكأنّها تنسـل أسـفلَها، أحسسـتُ

أنّ جـدران قلبـي مكدّسـةٌ بمثـل هـذه الـشروخ، لكـن شروخ الجامع تصلـح للترمّيـم، أمّـا شروخ قلبـي فلـن يرممّها عـلاجٌ ولا زمن.

سـبحتُ في خضّـم المصلـين، تمايلـتُ مـع الإمـام، وهمهمـتُ في التسـبيح، ووددتُ لـو أنـزع قلبي وأطهّره مـن الألم والجحـود في رحاب هـذا الإيمان، تسـح مِن عينَـيّ دموع، ينـصرف المصلّـون ولا أنصرف، يدعـوني إمامُ المسـجدِ بعينيه أن أفعـل، وفي غير توقير، لا أعـيرُه انتباهًا، وأظـلّ مقرفصًـا ووجهـي للمنـبر، شـاردًا، مفعَـمًا باكتئـابٍ وغُصّةٍ في جـوفي، تتململ الصّـورةُ أمام عيني الغائمة، وشـبح الإمـامِ يدنو مِنّي، يجلـس قبالتي، يسـند راحتَـه فوق ظهـر كفّـي، ويقول:

- انتهت الصّلاة يا درويش.

- يستريح قلبي هنا أكتر.

أُهمهِـمُ متنهّـدًا، يخلـو المسـجدُ إلّا مِنّا، يطـوّع الإمامُ حبّاتِ المسـبّحة بـين أناملـه، فتجـري لأسـفلَ كقطراتِ مـاءٍ صافيـة، يتفرّسـني قليلًا، يقـترب مِنّـي، لكنّني أجوب عينيه بنظـرةٍ حيرى، فيبدو وكأنّه شَـعر بي بشـكلٍ مباشر، انعقد حاجبـاه، كأنّني تشـكلّتُ كليّةً صوبَـه وتعريّت، لاح في ركن فمِه المغطّى بشـعيرات شـاربه الكث وشَـعرِ ذقنه الأشعث ظلُّ ابتسـامةٍ، بعدَها اسـتدار بكلّ جسـده نحوي وحملق فيّ للحظة قبلَ أن يردف:

- كلّ القلوب تسـتريح هنا يـا مولانا، المهم ألّا تكـون الرّاحة طارئة، لابـدّ أن تريح قلبك وتسـتريح بخلاصٍ تام.

- في قلبي همّ لا خلاص منه!

- كـن صادقًـا مـع نفسـك ومع قلبك تسـتريح يـا مولانا، واسـتعن بالله.

كـدت أقـول لـه إنّما ليس يحـيّرني وليس يبعـث في فؤادي الحـسرة إلّا الله، الذي عشـقته، وتخـلّى عنّي.

وبغـير أن يصافحني الإمـام أو ينظر لي ثانيةً اسـتدار واتّكأ على عصاه واسـتقام ناهضًـا، ثم مضى فجلـس تحت المنبر في سـكينة، فقـرّرتُ أن أغادر.

ثمّـةَ طيـورٌ تشـق الأفقَ مشقشِـقة، وحركـةٌ خفيفة أخـذتْ تروج في شـوارع «قونية»، بـدوتُ متثاقـلَ الخُطَى، وقلـتُ لنفسي:

- لابد أن أستعيد الله بداخلي.

وأطرقـتُ قليـلًا، ثـم جعلـت الدّمـوع تسـحّ مـن عينـيّ، لمـاذا تأتي العـودة إلى النفـس مباغتـة هكـذا؟ ولماذا العـودة إلى النفس تشـبه كثيرًا الانـزلاقَ في منحـدرٍ وعـر؟

لم أكـن أعـرف أنّنـي رديءٌ ومسـتهلَك لهـذا الحـدّ، وكالشّريد رحتُ أمـضي وسـط الشّـوارع والبيـوت والأزقة، كوافـدٍ جاء من عـالم الحلم والأسـى، أجلـس عـلى كلّ المقاعـد أمـام البيـوت، أجلس عـلى مقهى يَفتتـح يومَـه، لا أحـد جالـس عليـه، وصاحبه يهـرول يتفقّـدني بعينيه مِـن عـلى مقربـة وقـد حملتا دعـوةً لطلـب مـشروب، أحتسي فنجانيْن مِـن «الزنجبيـل»، أطلب اثنـيْن لأنّ «كيميـا» كانت تحب أن تشـاركني شُربَ «الزنجبيـل»، أنتظِـر أن تشـاركني شُربَـه الآن، أتطلّع إلى فنجانها الصّامـت، أقلبه بمحتـواه فيُغرِق المنضـدة، يخالني صاحـب المقهى قد

جُننتُ لا محالـة، حتمًا بتُّ مجنونًا، سيأتي هـا هنا في كلّ مسـاءٍ منذ الآنَ وينتظـر، ولـن يعـرف أحدُهـم مـاذا أنتظـر، كلّ مـا سـيعرفونه أنّ هذا المجنـونَ قبيـلَ الفَجـر سـيغادر، ولـن يعرفـون أنّي سـأظلّ أتسـكّع في الشّـوارع كقـطٍّ مِـن دون مأوى.

كقطٍّ فَقدَ كلّ حواس المثابرة.

همـت عـلى وجهـي، كان الأسـى قـد ضرب في روحـي لحـدّ الفناء، وذات مسـاءٍ، قوبلـت مـن جُنـد السّـلطان، كنـت مُقعيًا تحت جـدارٍ، وكانـوا يقبضون عـلى الدّراويش والشـحّاذين، الذين سـكنوا أحشـاء الشّـوارع بـلا حيلـةٍ، ضربونـا بالسّـياط، ثـم وجـدت نفسي أُقتـادُ في جنازيـرَ جهنميـةٍ، رحـت أتمـلّى في وجـوه النّـاس، كانـوا لا يبالـون، وراحـوا يتابعوننـا بأعينهم في غلَبـة، ولكن «كيميا» كانـت هناك، تطلّ من بـين قامـات النّخيـل ثمـرةً بِكر.

وكان ثمّـة ضـوءٌ واهـنٌ يـسري في خلايا رُوحـي، يجعلنـي أرى ولا أرى، يعـزّز غريزةَ الاستكشـاف، بـل يُمعن في ضبابيته حدّ التّشـويش على ذهنـي، ويخلـق معاناةً مسـترة، وهـدوءًا مضنيًا.

هو اللّيل والقدر، هو اللّامعقول إذًا موعدي مع الرّحيل.

أنينُ السّـماءِ يتمثّل قهرًا يلتهم ملامحي، أستسـلِمُ في خطواتي بجسمي المنهـك -المترامـي بين عـوالمَ وأخـرى- بين صفّـين من الجنـود، أرمق أسـنّة الجبـال الدّانية التي تطلّ على السّـماء بلا حواجـز، كأنّ بها تدعوني لتقرّبنـي من الله أكثر، أشـعر أنّ اللهَ على بُعد خطـواتٍ قليلة هناك فوق، أراه وأعشـقه، ولكنّي في حاجةٍ إليه الآن، ولو كان غاضبًا منّي حتّى، في

كلّ ليلـةٍ مـن لياليّ الباردة هنا كنتُ أتحدّثُ إلى الله، أتعشّـم أن يسـمعني ويسـتجيبَ لدعـواتي بأن يجمعنـي و«كيميا» معًـا ثانية، دون مسـافاتٍ ولا حـدود، بعيـدًا عن ضجيـج العالم وبلاهتِـه، يجمعنـي و«كيميا» في خلوتنـا المختلسـة التـي تـشرف عـن كثب عـلى موطـن الوجـدِ الغافي بقلبينا في هدوءٍ وسـكينة.

أختـزل كلّ المشـاهد التـي تعـترك بداخـل المـاضي أثنـاء انقيـادي القهـري، لم أزل أسـمعها تدنـدِنُ ليـلًا في لحظـات الوداعـة والهـدوء الممتـدّة لمطلـع الصّباح، تُـرى أين هـي الآن؟ أصـارت روحًـا نافقة أم طيفًـا سـيداوم زيارتِـه لي! كنّا نجلـس في وداعة العالم بعـد منتصف كلّ نهـار، تحـوّط رقبتـي بيدِهـا، ننفلت في الغنـاء، وقـد ننفلـت في البكاء، فتشـاركنا الإحسـاسَ عيـونُ النخيل بسـماحتها وهدوئها العـذب، قد ترتمـي بـين ذراعـيّ فأتخلّـل شَـعرها بأناملي وهـي تتنهـد قائلة:

- ليت لحظاتنا الحلوة تطول قليلًا!

فأقول:

- كلّ اللّحظـات الحلـوة، كلّهـا يا حبيبتـي، يُمكن أن تتحـوّل مثلنا، شـيئًا عارضًـا في مهب هـذه الحيـاة البائدة.

فوق جسـدي تهبط السّـياط، ألتفِـتُ نحوهم وأوليهم نظـرةً حارقة، كانـوا قـد أخـذوا يتبادلـون جَلْـدي بالكرابيـج، والبيوت تتـوارى عن بـصري، لم يكـن غـير اللّيل هـو الذي يلـفّ ذهني.

وذكريات الأمس.

* * *

أفتحُ أهدابي، ينجلي الظّلام بعض الشيء، وثمّة شعورٌ بألم غائر ينخر كلّ عظمة في جسدي، ألم لا يحتمل، لا يجعلني قادرًا على فتح فمي، أبدأ في التلفّت حولي بعينيْن رؤيتهما ضبابية، غرفة رطبة، ضيّقة، وضوء شحيح ينفذ خلال فتحةٍ في أعلى الحائط، ليست نافذة، مؤكّد هي فتحة خصّصت لتغيير جو الغرفة.

حاولتُ النهوضَ، فلم أستطع، بدا المكان رطبًا كقبر، خانقًا وكريهَ الرائحة، تحسّرتُ على حالي، كيف تُفخّخ لنا الأقدارُ خطواتِ حياتنا؟ يا له مِن قدَرٍ عابث جاء بي لهذا السّجن! تحاملتُ على ساقي، وغلبت الألمَ وأنا أحاول النهوض، رحت أتسنّد على الجدران، متحاشيًا النتوءاتِ اللعينةَ التي تبرز كلّ بضعة أشبار، وغبار تَداخل في أحشائي، فبات التنفّس عسيرًا، وكان عليّ أن أعيد ترتيب الحقائق في ذهني، وأجترّ الوقائعَ كاملة، ربّما منذ بداية حياتي البائسة، للمنعطف الذي أَلقى بي وسط كلّ هذه الفوضى.

بعد ثوانٍ، كان الباب الموصد قد بدأ يخروش، انفتح، وعلى مرمى ضوءٍ نافذٍ آتٍ مِن خلف ثلاثة أجساد ضخمة ميّزتُ معالم الغرفة، حوائط متآكلة، وقاذورات ملقاة في الأركان، استدرت نحو الأشباح الواقفين يسدّون الباب، لم ألمح تعبيراتِ وجوههم المختبئة في ظلال مترامية على كلّ الجدران، إنّما دنا واحدٌ ورفعني في سهولة ورماني نحو مدخل الغرفة، وهو يقول في نبرة عنيفة:

- هيّا، تمّ العفو عنك.

الجدران، الجدران لا تُبقيني في محيط الذّكرى، سرعان ما تمنحني

قهـرًا فأتلفّـتُ حـولي كمعتـوه، ربما كان الخـوف من المصـير، لكن متى كنـتَ تخـاف يـا درويـش؟ أنـت تعيـش بـين الجـدران طيلـة حياتك، متـى انفلـتَّ مـن الأسر، ولـو كان الأسرُ اختياريًا حتّى، إنّـما متى كنتَ تخاف؟

أخـذتُ في سـحّ الدّمـوع كخاطـئٍ يتـوب، بـدا الله يتكشّـف ثانيـة، وبـدت روحـي تعاود رحيلهـا، كانت الجـدران تتقلّص حـولي، تضيق ويضيـق معهـا تنفّسي، ولا منفـذ ضـوء، ولا منفذ.

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣٣ هـ

أرى أبي يداعِبُ مزمارَه وهو مستندٌ على كتف شجرة الأثل، إنّما ابتسامةٌ شاحبة ترتسم فوق شفتيه، يتطاير النغمُ المُستدعَى مشبّعًا الأجواءَ الهادئة، كما تتطاير نحوي هوامُ زهورٍ رقيقة تمرح في الهواء، أحاول استقبالَها فوق راحتي، وإغماض عينيّ عن ماضٍ بعيد، والاستمتاع قدْرَ ما أوتيتُ بملمسها الناعم فأشعر بها تذوب بشفافية على جِلد كفّي.

كنتُ نصفَ نائمة، نصفَ حالمة.

قطرات مطر تتهاوى عليّ من السّماء، تتهاوى برفق، تدغدغ حواسي.

أراني طفلةً بنفس العباءة المتهرّئة وفي يدي عروسٌ من طين نتراقص أنا وهي على نغم مزمار أبي. ضُمّني يا أبي واعزفْ لي مِن مزمارك، امنحْ روحي بعضَ القداسة، دعني أجاور تلك الومضاتِ البعيدةَ الطليقة في غياهب السّماء.

لم تكن ثمّة علاماتٌ أستدّل بها على المنطقة التي يمرح فيها ذهني الآن، فالأصوات التي تطنّ بداخله على الدّوام لا تهدأ ولا تهجع، تلازمه في صحوٍ أو في نوم، أصوات لا يمكنني تفسيرها أو فهمها إلاّ على النحو المتوجّس، فلا أعرف هل أهزّ رأسي لأنفض عنها التشتّتَ أم أدع نفسي على منتصف الاتزّان فيما بين اليقظة الحقيقية والغفوة الحسيّة؟ وبطريقةٍ عشوائية يخيّم عليها شيء من خمول ترتدّ رأسي إلى الوراء آلاف المرّات، فيرتدّ إلى الوراء كذلك كلّ العالم مِن حولي، أتململ بجسدي الفوضوي الخامل على حصير من القشّ

مفـروش فوق سـطح البيـت وتهفـو نفـسي إلى الإدراك الواضح.

يـا لهـذه القطـرات الناعمـة! تتسـاقط مـن أعـلى وتتحسّـسـني تمامًـا كأناملِ حلـم نـاءٍ، كنـتُ عطشـى، وخلايـا جسـدي بأكملهـا تحاول تـشرّب مـاء المطـر الـذي يلعقـه لسـاني باسـتعذاب وشـوق، وزفرات الحلم السـاخنة تلفح شـفتيّ، فأرتعش مثل ارتعاشـةِ ذكرى مشوّشـة، تجـوب فيّ التأوهـات، التنهّدات المتقطّعـة، وهمس الحلم بداخـل أُذُنيّ، تنفتح عيناي ببطء وأحاول تلمّس سـكّة ما للهروب من تلك المسـاحة التـي تختلط عليّ فيهـا رؤى الأحـلام بوجيب القلـب، تصطّف حبّات المطـر قبالةَ عينَيّ، تسـبح في خشـوع، تتوقـف الصّورة فأتمعّـن في تأمّلٍ بطـيء هذه القطراتِ التي تحوّم في المسـاحة أمـام بصري كمصفوفة من سـحر تتراقـص، كأنّها تخلّـت عن جاذبيـة الأرض فجأة، وكانت تشـدّ نحوهـا دمـوع عيني، فتمتـزج القطرات بهـا، أدقّـق في حوافهـا البرّاقة غـير المسـتوية، وظـلال كلّ التفاصيل مِن ورائي تنعكس على سـطحها الأملـس الصـافي، فتبدو كخليـطٍ مِن وجوهٍ متشـابكة الملامـح، كما لو أنّها شـظايا مـن زجاج متكسّر رقيقة تهيم أمـام العين، تلمـع فأغمِض عينَيّ، تسـتكمل قطرات المطـر - بعد قليل- تهاويها، تحـطّ فوق رقبتي وصـدري وتتجمّع بـين ثنايا ملامحي فتسـتقر.

الصبيحـةُ بـاردةٌ برودًا لذيذًا، شـعاع شـمسٍ وحيدٌ يختلس لـه مَعبرًا داخـل فلول الظّـلام. بالأمس حـين أمطـرتْ، كان مطـرًا خفيفًا، ترك فوق أسـنّة الأشـجار وأكـفّ الزّهور نـدىً أخذ في التقاطـر نحو أرض القريـة. أصـوات العصافـير صاحبة الأشـجار وهي تنفـض البلل عن

ريشـها كمعزوفة من وجد. رحت أتأمّل ظهورَ الصباح وكأنّ عشـقًا قد شـفّ جسـمي، انحنيتُ فوق سـور السّـطح وتنهّدت، تطلّعت إلى المـدى المـشرّب بحمـرة الشّـفق، شـعرتُ أنّي أهيـم في عـالمٍ مِـن غـرامٍ نـادر، لكـن هل يحـقّ لي ذلك؟

رحـت أحـدّق في فـراغ، وبضـع حمامـات تتكـئ عـلى حافّة السّـور وجنـب وجههـا يـضيء كـبراءة مـن عـالم آفـل، خدهـا يشـبه كثـيرًا انعطافـة قلـب، بـل أكاد أجـزم أنّ عـروق وجههـا تنبض كقلـبٍ يافعٍ بِكـر، وسـحابات أمامي على الأفق غارقة في سـبات منـذ الأمس، كانَ مشـهدها كفيـلًا بإثـارة جوارحي الكامنة في تعاسـة وخمـول، تخرج منه أحمـال عشـقٍ حديـث النّشـوء، قلـت لنفـسي في خفوت:

- لماذا ترك الرّب العالم يشيط لهذا الحدّ؟ هل يئِس منّا؟

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٥ هـ

حدّثني يا مولاي، ائتمني سأحفظ الأسرار، إنّ المدينة اليوم تسكنها الحيّات إجلالًا لمعنى الحقيقة السّاكن في دربك، أهدروا دمك يا سيّدي وما شفع لهم غرور ولا كِبر، أعلم أنّك سامحتهم، لطالما كنت كذلك، يتريّض السّماح والعفو في فؤادك دونما مقابل، إنّي أسمعك، حدّثني، ولا تبخل عليّ.

عندما قابلت مولاي «شمس» منذ أربعة أعوامٍ، كنت أجلس أسفل شجرة «قيقب» في ناحيةٍ غير مطروقة من المدينةً، واستشعرت حركة على رقبتي، فانتفضت، ولكنّي عجزت عن تحديد هوية الزّاحف الذي يمرح على جسدي، ثمّ فجأة أحسست به، وقال بصوتٍ عميق:

- لا تخف، إنّه مجرّد جرذ.

وسمعته يتحدّث مع الجرذ، وكأنّهما صاحبان، فاندهشت، حاولت تكوين صورة في ذهني عبر صوته، فلم أستطع، غير أنّي جلست ثانية، فجلس جواري.

وظلّ ساعةً أو يزيد صامتًا، حتّى ساورتني الشّكوك، سألته:

- هل أنت حقيقي؟

فضحك، وقال:

- الحقائق لا تُدرك كاملةً، لعلّك أنت نفسك مجرّد رُوح سارحة.

- أنا درويش.

- ومَن فينا لا يحمل درويشًا في قلبه؟

ثـمّ وضـع يده عـلى رأسي، ذُعرت، ثـمّ بعد لحظة اسـتكنت، إذ ربّت بأناملـه عليّ يطمئننـي، ثم همهم:

- في قلبك غرامٌ.

- ولوعةٌ.

قلت، فأكملت أنامله استشعارها على رأسي، واستطرد:

- لا بأس، بعض اللّوعة مشارف طريق للحقيقة.

بدا كأنّه يهذي، صحت فيه:

- اتركني لخلوتي.

فقال:

- أنـت وحيـد، لم تبـدأ خلوتـك بعد، ومـا أكـبر الفرق بـين الوحدة والخلـوة! الوحـدة مُخادعـة، تخيّـل لـك أنّك تسـير عـلى درب العشِـق الحقيقـي، ثم تجـد أنّك تائه، أمّا الخلـوة، فهي ديدن الدراويـش، إذ أنّك عـبر خلوتك لا تشـعر بالوحدة عـلى الإطلاق، فابحث عـن مرآتك في رفيـقٍ، لو الله في داخلك فلن ترى نفسـك إلّا من خلال شـخصٍ آخر.

- لكنّي مُرهق وعاجز ويائس.

- مهـما حـدث في حياتك، ومهـما بدت الأشـياء مزعجـة، لا تدخل ربـوع اليـأس، وحتّى لو ظلت جميـع الأبواب موصدة، فإن الله سـيفتح دربًـا جديـدًا لـك، احمـد ربك، من السّـهل عليـك أن تحمـد الله عندما يكـون كلّ شيء عـلى مـا يـرام، فالصّـوفي الدّرويش لا يحمـد الله على ما منحـه الله إيّـاه فحسـب، بـل يحمده أيضًا عـلى كل مـا حرمه منه.

- حرمنـي مـن النّظر وصـبرت، ولكنّه حرمني من العِشـق، ألا ترى أنّ الله يقسـو علينا كثيرًا!

- إذًا اعشـقه، إذ لا يعنـي الصّـبر أن تتحمـل المصاعـب سـلبًا، بـل يعنـي أن تكـون بعيـد النظـر أيضًا، بحيـث تثـق بالنتيجة النهائيـة التي ستتمخض عـن أيّة عملية. مـاذا يعنـى الصّبر؟ إنّـه يعنـي أن تنظر إلى الشّـوكة وترى الوردة، أن تنظـر إلى اللّيل وترى الفجـر، أمّا نفاد الصّبر فيعنـي أن تكـون قصير النّظـر ولا تتمكّن من رؤية النتيجة، إن عشـاق الله لا ينفـد صبرهـم مطلقًـا، لأنّهم يعرفـون أنّه كي يُصبح الهـلال بدرًا فهـو يحتـاج إلى وقـت، لقد خلـق الله المعانـاة حتّـى تظهر السّـعادة من خلال نقيضها، فالأشـياء تظهر مـن خلال أضدادها، وبـما أنّه لا يوجد نقيـض لله، فإنّه يظـلّ مخفيًا.

- ولمـاذا يُتعِـس الله بعضنـا ويُسـعد البعـض الآخر؟ لمـاذا يمنح هذا البـصر ويمنـح ذاك العِشـقَ؟ أرى سُـكارى زنادقـة يرفلـون في النعيم، وأنـا أعيـش معذَّبًا.

- لعلّـه منحـك البصيرة، ثمّ لا تحكـم على الطّريقة التـي يتواصل بها النّـاس مع الله، فلـكلّ امرئٍ طريقته وصلاته الخاصّـة، إنّ الله لا يأخذنا بكلمتنـا بـل ينظر في أعـماق قلوبنا، وليسـت المناسـك أو الطقوس هي التـي تجعلنا مؤمنين، بـل إن كانت قلوبنـا صافية أم لا.

- حاولت السّفر سعيًا إليه، وما اهتديت.

- مهـما كانـت وجهتك، يجـب أن تجعـل الرّحلة التي تقـوم بها رحلة في داخلـك، فإذا سـافرت في داخلك فسـيكون بوسـعك اجتيـاز العالم

الشاسع وما وراءه.

- لكن قلبي لم يزل مكتويًا بنار العِشق المفقود.

- لكي تولد نفس جديدة يجب أن يكون ألم، وكما يحتاج الصّلصال إلى حرارة عالية ليشتدّ، فالحب لا يكتمل إلّا بالألم.

- ولكنّي لم أعرف اسمك بعد يا مولاي!

- وهل تفرق مع الدّراويش الأسماء، فقط تفرق المعاني، فمعنى الله واحدُ ولو تعدّدت أسمائه وصفاته، إنّما على كلّ حال، سمّاني الله «شمسًا»، أنا «شمس الدّين التبريزي».

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٣٥ هـ

(جراحاتُ الهوى تُشفي، كدوراتُ الهوى، تُصفّي

بُروداتُ الهوى تُدفي، ونِيرانُ الهَوى رَيحانْ).

«قونيـة» بلـون الموت، بلـون الرّمـاد، «قونيـة» بعد «جوهـر خاتون» خابيـة، لا حياة فيهـا ولا رُوح، انصرفت عـن دروسي واعتكفت زاهدًا عـن كلّ شيء، أتريّض بالصيّام كما أوصاني مـولاي «برهان»، وأُغويت بحبّ الموسـيقى، كنـت أجلس في مكتبتـي باليومين الكاملين أسـتمع إلى أناشـيد الدّراويـش وموسـيقاهم، وفجّـر هذا في داخلي طاقـةً ملحّةً لنظـم الشّـعر، ووجدتني مندفعًا أسـجّل ما ينبـذر في خاطري:

طوال النّهار واللّيل لحنٌ

نيرُ هادئ

غناء مزمارٍ

لو خبا نذوي

ومضيـت أحفـظ الأشـعار التـي أكتبهـا، قـد أخـرج عـلى ولـديّ فيسـتغربان هيئتـي، لكنّهـما يسـتمعان لمـا أكتـب بإعجـاب واندهاش شـديدين:

مناخل هي الأيّام كي تصفى الرّوح

تكشف النجس وكذا

تُبين النّور لثلةٍ يرمون

بهاءهم إلى الكون

يصفّق «علاء»، يهتف مشدوهًا:

- منذ متى كنت شاعرًا يا أبي؟ ولا كأنّك سيّدي «برهان الدّين».

فأقول له:

- اسمع فقط، هذا ليس أمرًا طارئًا، إنّها طاقة كشفٍ كُبرى.

لا رفيق سوى العشق

طريق دون بدء أو نهاية

يدعو الرّفيق هناك:

ما الذي يمهلك حين تكون الحياة محفوفة بالمخاطر؟

ووجدتني أمتطي فرسي وأذهب إلى المدرسة في شغفٍ، تقودني حماسة لم تكن من ذي قبل، الموسيقى في رأسي، والشّعر يمسّ شغاف فؤادي، وعباءتي ترفرف باتّجاه الرّيح، تخضّ قدما الفرس بطن الأرض، وينفجر الغبار من تحتي، ويقابلني تلاميذي في المدرسة بشوقٍ عظيم، بدا أنّهم ينتظرون محاضرةً جديدة، لكنّي فاجأتهم، وقلت:

- اليوم سنسمع الشّعر.

فقال أحدهم:

- ما كنتَ يومًا يا مولانا حافظًا للشّعر.

فقلت:

- إنّما هذا شعري الذي أبدعته.

ثم رُحت أُنشِد:

لو أنّ روحًا لديك احتسبها

أرخ لها أن تعود بكلمة واحدة

من حيث جئنا الآن آلافٌ من الكلمات

ونأبى أن ننصرف

نظر تلاميذي بعضهم لبعضٍ، فجلسوا يصطفّون أرضًا، وأرخوا آذانهم لمزيدٍ من الشّعر، وطأطئوا رؤوسهم وقال واحدٌ:

- لا تتوقّف يا مولانا، أزدنا بالله.

حبست في صدري هواء العالم، وأكملت:

هل الحياةُ لتفنى يهب الله أخرى!

مجّد المطلق وسلّم بالمقيّد

العشق نبع فانغمر

كلّ قطرة تنفصل عمرٌ مستجدٌ

وذاع عنّي أنّي مُسست، هجرت التدريس لأجل الشّعر، فقالوا أنّي صرت درويشًا، وقالوا أنّي صرت مجنونًا، وقالوا أنّ موت «جوهر خاتون» بدّلني، فسُكنت بشيطان الشّعر من بعد اتّزان وتعقّل، غير أنّ ولديّ كانا يساندانني بعزيمة مُخلصة، وعن قناعة، إنّما أدركا أنّ بصيرتي ارتقت، وأنّي بلغت آمادًا من العِشق لم أكن قد بلغتها قبل ذلك، ثمّ باتا يجالسانني ليستمعان لشعري، إذ جاء على هوى في نفسيهما، إذ أنّ أحدهما كان مفتونًا بالشّعر عن طريق مولاي «برهان الدّين»، والآخر شغفّه العِشق في سنّ الاختمار بالغرام.

في هذه اللّيلة أوقدنا نارًا، كان الجوّ باردًا، والعالم فارغٌ، ولا يسير في الشّارع نفرٌ، في حديقة البيت جلسنا، حطبٌ مشتعلٌ يتوسّطنا،

ولفحـة من ذكريـات تداعب خيالنـا، زفـرت والذّكريـات تتداعى، وتذكّرنـا «جوهر خاتـون»، فبكينا جميعًـا، ووجدتني أُنشِـد:

حسبت أنّي حكّمت نفسي

فتأسّيت على زمانٍ قد مضى

آخذًا في اعتباري شيئًا واحدًا أعلمه

لست أدري من أنا

وثـارت شـجوننا، أدركـت أنّ الحيـاة حافلـةٌ بالمعطيـات الدّالـة على كـمال الألم، نهضـت، أفرغت مـا في جوفي، وكانـت ملامحي ترتعش من اسـتحواذ الذّكـرى، صرخت:

- أين «جوهر خاتون»؟

ورفعـت رأسي للسّـماء، عاتبـت الله، قلـت: كم مـرّةً أعاتبـك وتصرّ عـلى تعذيبي!

وخيّل لي أنّي هشٌّ، إذ اسـتهلكتني الشـجون، سنّدني ولداي ودخلت إلى مكتبتـي، في هذه اللّحظة أدركت أنّ الحياة تحتاج إلى شـخصٍ يُكمل مـا انتُقـص في الـرُّوح، لا الكتب ولا الشّـعر ولا التصـوّف بقادرين أن يتمّمـوا العِشـق الإلهي، كلّنا بشـكلٍ أو بآخر نعشـقه، ولكنّ ثمّة شـيئًا ناقصًـا، في الـرُّوح منافذ طالما قاومنا الإحسـاس بها، تلـك تفتقد رفيقًا، تلـك المنافـذ يُمكـن أن يشـغلها صاحـبٌ، فتعود الـرُّوح تكتمـل، آه، أشـعر بالفراغ والوحدة والألم.

قال لي ولدي «علاء»:

- أما آن لك يا مولانا أن تتزوّج امرأة تعوّض فقدك!

فقلت:

- إذا وُجدت كان، إنّما هذه أشياء تأتي ولا تؤتى.

يتحوّل العالم مع الوقت إلى إشارات، إشارات واهنة، تحتاج إلى تركيزٍ روحاني حازمٍ كي يُمكن أن نوفّقها ببعضها البعض، لا يُمكن لأحد أن يرى ما تراه عينك، بل لا يُمكن لشعورٍ على وجه الأرض أن يوازي شعورك تجاه المحسوسات التي تُدركها رُوحك، وقد تجد نفسك فجأة عاجزًا وواهنًا وهرمًا ومكسورًا، أجل ما أقرب الرُّوح الوحيدة للهشاشة، من قبل، حاولت أن أجسّد روحي عينًا تُشرف على الوجود من أعلى، بلا جدوى، لم أصل إلى الحقيقة بعد، لم أصل إلى جوهر الكون، من نحن؟ هل نحن أبناء «آدم»؟ أبناء «قابيل» أم «هابيل»؟ ماذا لو أنّنا أبناء «إبليس» غير الشرعيين؟ ماذا لو أنّنا -بالفعل- مجرّد كائنات ترعى داخل حلمٍ كبير، ثمّ فجأة يستيقظ العقل الأكبر، فنجد أنّنا شظايا غائبة في أديم الفراغ والعدم! لعلّ الله فكرة في نهاية المقام، فالله لا يُمكن تفسيره، فقط يُمكن الشّعور به، ومع أنّه لا يُمكن تفسيره، الإيمان به يفسّر كلّ شيء.

في الصّباح، لم أكن قد خرجت من مكتبتي، ولكنّ وجدت «سلطان ولد» يطرِق عليّ البّاب، ويستأذنني، أذنت، اقترب قليلًا منّي وهو يبتسم، وقال:

- أبشر يا مولانا، مُريدة تُريد سماع أشعارك.

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول –٦٤١ هـ

(من أنا؟ ومن أين جئت؟ إلى أين أسير؟ لماذا؟ كيف؟).

منضدةٌ خشبيّة متهرّئة، ودرويشٌ ضريرٌ اكتشفته مصادفةً عبر بحثي عن خلاءٍ آمن لرُّوحي. استطاعت «قونية» خلال عامٍ أن تُعيد لي الله في قلبي، أن تجعله يستعمرني كما استعمرني من ذي قبل، بالشّوق والعِشق، هُنا في «قونية» كانت الإشارات قويّة، أنّ رفيقي الذي طالما بحثت عنه ورأيت وجهه في المنام ستلتقي طريقه مع طريقي في «قونية»، هُنا لا توجد حُجب أمام الأرواح، سالكةٌ بأمره، وواصلةٌ إليه، وعبر عامٍ، باتت صورة «كيميا» في رأسي كأنّها حياةٌ جميلة عشتها في زمنٍ بديل وعالمٍ موازٍ، في كونٍ آخر لفظني لكونٍ أكثر إشراقًا وقُربًا من الله، هُنا أباح الله لي نفسَه، فاستطعت أن أملكه في أكثر من رؤيا وبأكثر من مجازٍ.

في اللّيلة الماضية، حضرتني رؤيا مُخيفة، وإن بدت صادقة، كنت أكلّم الله، وكان يداعبني بأقوالٍ مرِحة، ثم وجدتني أنحدر فجأة، تسلسلت بجذعِ شجرةٍ معلّقة في السّماء، وتحلّقني أبالسةٌ صغارٌ، ناشدت الله، إذ فزِعت، لكنّ غيمًا ومطرًا ورعدًا حجزوني عن رؤيته، راح الأبالسة يدبّون أظافرهم المسنونة في حشايا جسدي، وراحت الدّماء تنهمر منه إلى أحشاء الأرض في الأسفل، ووجدتني بعدها أنسلخ، كأنّي رُوح تنفصل، وثمّ رأيت جسدي مقبورًا ورأيت أفاعيَ تبكيني، وملاكًا يحسّس بيدِه على قبري.

أفقت من حلمي وقد أدركت أنّ موتي قريبٌ، لكنّي لم أعتدّ، الموت سيُجلسني على العرش جوار معشوقي، ساعتها لن أعرف الألم ولن أعرف اليأس، ساعتها فقط يُمكن أن أتغزّل فيه صراحة،

دونما حرجٍ.

خارج الحانةِ ريحٌ تصفّر، وأنا أجلس على منضدةٍ يقبع فوقها كأس جعة ونرجيلة، يجلس جواري درويشي ومريدي «شاهين»، تقابلنا في عرض خلاء ولكنّه لم يُفارقني من وقتها، كان ضريرًا إنّما لديه قدرة إعجازية على استكشاف بواطن الأشياء، ولديه قدرة أكبر على الصّبر، بدأب وإخلاص يتحمّلني.

اقترب منّي صاحب الحانة، أضاف على المنضدة كأسًا من الجعة، وقال:

- أما آن لك يا درويش أن ترحل عن حانتي؟

- وهل تراني عبئًا عليك ما دمت تأخذ أجرك؟

قلت، فحدجني بنظرة غيظ، وقال:

- والله لا أعرف من أين يأتيك المال؟

- مال الله لا ينفد.

دنا منّي، اشتممت رائحتِه التي تُشبِه الخلّ، كشف عن صفٍ من أسنان صفراء اسودّت أطرافها، همس:

- الزّبائن يتهامسون يا درويش، آراؤك لا تعجبهم، يرونها جانحة ولا تليق بالدّين، بصراحة أخشى على نفسي وعلى الحانة منهم، وأنا رجلٌ مؤمن ومسلم، أرى أيضًا أنّه لا يصحّ ما تدّعيه عن الإسلام وعن رؤاك المزعومة بشأن الله.

- إذا أردت أن تُقوي إيمانك فيجب أن تكون ليّنًا في داخِلك، ثمّ

كـي يشـتدّ إيمانـك ويصبـح صلبًـا كالصّخـرة يجـب أن يكـون قلبـك خفيفًـا كالريشـة، فـإذا أُصِبنـا بمـرض أو وقعـت لنـا حادثة أو تعرضنـا لخسـارة أو أصابنـا خـوف بطريقـة أو بأخـرى، فإنّنـا نواجـه جميعًـا الحـوادث التـي تُعلمنـا كيـف نصبح أقـلّ أنانيـة وأكثـر حكمة وأكثـر عطفًـا وأكثر كرمًـا، ومـع أن بعضنا يتعلم الـدّرس ويـزداد رِقة واعتـدالًا، يزداد آخرون قسـوة، إن الوسـيلة التي تمكنـك من الاقتراب مـن الحقيقة أكثـر تكمن في أن يتسـع قلبك لاسـتيعاب البشريـة كلّها، وأن يظـلّ فيـه مُتسـعٌ لمزيـدٍ مـن الحبّ.

صاح:

- عُدنا للتجديف.

اسـتدار لي بعـض الزّبائـن، لعق أحدهم شـفتيه في تحفّـزٍ، وهتف من على المنضـدةِ المجاورة:

- والله لا أعـرف كيف يُمكن أن يجتمـع الدّرويش بالخمر! تصومون وتصلّـون، ومع ذلك تشربـون الخمر كالبِغال.

ردّ «شاهين»:

- احذر في الحديث مع مولاي.

ضغطت على كتفه فسكت، وقلت له:

- إن الصّـوفي الحـق هـو الذي يَتَحمّـل الصّبر حتّـى لو اتُّهـم باطلًا، وتعـرض للهجوم من جميع الجهـات، بل لا ينبغـي أن يوجِه كلمة نابية واحـدة إلى أيٍّ مـن مُنتقديـه، الصوفي لا ينحي باللائمـة على أحد،

فكيـف يمكـن أن يوجد خصـوم أو منافسـون أو حتّى «آخـرون» في حـين لا توجـد «نفـس» في المقـام الأول؟ كيـف يمكـن أن يوجد أحد يلومـه في الوقـت الـذي لا يوجـد فيـه إلا «واحدًا»؟

قال الرّجل يُخاطب صاحب الحانة وهو يرفع صوتَه:

- ألم تسـتطع أن تطـرد هذا المخبول من حانتـك! إن كنت عاجزًا عن طـرده فدع لنا هـذا الأمر.

أحسسـت برجفـة «شـاهين» وهـو جالـسٌ تحـت قدمـيّ، لكنّـي اسـتدرت للرّجـل أقـول:

- إذا أراد المـرء أن يُغـير الطّريقـة التـي يُعامله فيها النّـاس، فيجب أن يُغـير أولًا الطّريقة التي يُعامل بها نفسـه، وإذا لم يتعلم كيف يُحب نَفسـه حبًـا كامـلًا صادقًا، فلا توجد وسـيلة يمكنه فيها أن يحـبّ، لكنّه عندما يبلـغ تلـك المرحلة، سيشـكر كلّ شـوكة يلقيهـا عليها الآخـرون، هذا يـدل عـلى أنّ الورود سـتنهمر عليه قريبًـا، كيف يمكن للمـرء أن يلوم الآخريـن لأنّهـم لا يحترمونه إذا لم يكن يعتبر نفسـه جديـرًا بالاحترام؟

تخشّـب الرّجـل، طـوح كأس نبيـذٍ في يـده واقـترب منّـي، مصمص شـفتيه في عصبيـة، وحـطّ يده عـلى ظهري:

- تأدّب يا عدو الله.

- وهـل تعـرف الله كي تتّهمني؟ إن الله مُنهمـك في إكمال صُنعك من الخـارج ومـن الدّاخـل، إنّـه مُنهمك بـك تمامًا، فـكُلّ إنسـانٍ هو عمل متواصـل يتحـرّك ببطء لكن بثبـات نحو الكـمال، فكُلّ واحـدٍ مِنا هو

عبارة عن عمل فنّي غير مُكتمل يسعى جاهدًا للاكتمال، لذا حاول أن تكتمل، واعرف الله عن قرب، إنّ الله يتعامل مع كلّ واحدٍ مِنا على حِدة، لأنّ البشرية لوحةٌ جميلة رسمها خطاطٌ ماهر تتساوى فيها جميع النقاط من حيث الأهمية لإكمال الصّورة.

- أنا مسلمٌ أحبّ الله وأعرفه أكثر ممّا تعرفه.

صاح، فقلت:

- من السّهل أن تُحب إلهًا يتصف بالكمال، النّقاء، والعظمة، لكن الأصعب من ذلك أن تُحبّ إخوانك البشر بكلّ نقائصهم وعيوبهم، تذكّر، إنّ المرء لا يعرف إلّا ما هو قادر على أن يُحبُّه، فلا حكمة من دون حبّ، وما لم نتعلم كيف نُحبّ خلق الله، فلن نستطيع أن نُحبّ حقًّا، ولن نعرف الله حقًّا.

- أنت درويشٌ فاسق قذر!

- إنّ القذارة الحقيقية تقبع في الدّاخل، أما القذارة الأخرى فهي تزول بغسلها، ويوجد نوع واحد من القذارة لا يُمكن تطهيرها بالماء النقي،وهو لوثة الكراهية والتعصّب التي تلوث الرُّوح، نستطيع أن نُطهر أجسامنا بالزُهد والصّيام، لكن الحبّ وحده هو الذي يطهّر قلوبنا.

- إذًا؛ سأطهّرك.

وتناول كأسًا من الجعة، وأفرغها فوق رأسي، هززت رأسي في أسى، ولكنّي ابتسمت، وقلت له في أسف:

- إنّهـا الحيـاة، عندما نخبركم بالحقائـق تزدادون غـرورًا بنواقصكم، وكلّـما أحببناكم، كرهتمونا.

- وهل تحسب أنّك بلغت الكمال بزُهدك؟

- أوتعـرف مـن هو الإنسـان الكامل؟ هو الـذي إذا سـمع انتقادات الناس لم يُبـد انزعاجًـا، ولم يتميّز غضبًا.

- ما أسهل أن نجد مثل هذا الإنسان!

- هـل تظـن ذلـك؟ اسـمع إذًا الحكاية الآتيـة: في مجلسٍ من مجالس الصّوفيـة راح أحدهـم يُطيـل حديثـه عـن الأسـماك، فارتـاب أحـدُ الجلـوس بمدى معرفته وقـال له متسـائلًا: أتعرفُ السّـمك حقًّا؟ قال الرجـلُ: كيـف لا أعرفه وقد قضيـتُ كلّ عمري في أسـفار البحر! قال السّـائلُ: فـاشرح لنـا أمـره وفصِّل لنـا وصفه. قـال الرجل: ما أسـهل هذا، السّـمكُ حيـوانٌ شـبيهٌ بالجمل وله قرنـان! قال السّـائل: صه أيها الأحمـقُ، أنـت لا تفـرّق حتّى بـين الثّـور والجمل، فلا عجـب أن تجهل صفة السّـمكِ. وهكـذا هم النّـاسُ في العادةِ، إنّهم بـلا تمييز وبلا عقل، وبنـاء عـلى ذلك كلّه، قـرّ الرأي منّـي ألا أطلـب إلّا الإنسـان الكامل.

وبدا لم يعِ، فانسحب الرّجل مهزومًا.

ففكّـرتُ بينـي وبين نفسـي: لابـدّ أنّ رفيقي رجـل الحلـمِ موجودٌ في مـكان مـا عـلى وجه هـذه الأرض، فـلا يُعقـلُ أنّ العـالم المحتشـدُ بهذا العـدد الهائـل من البـشر، يخلو من إنسـانٍ واحدٍ فقط، وهـو الذي أتمنّى لقاءه.

كيرا

قونية/ الأناضول - ٦٣٤ هـ

أصرّت أمّي على تزويجي، تقدّم إليها «آزار»، فوافقتْ.

قلت لها:

- ولكنّي لا أريده.

فقالت:

- ألم يكن حبيبًا قديمًا!

- كان يا أمّي، ولكنّ طبائعنا تتغيّر مع الزّمن.

- لقد وافقت وانتهى الأمر.

لا أعرف ما الذي أصابني تجاه كلّ الرّجال! بالأمس؛ أحببت «آزار» للثمالة، واليوم، أبغضه بغضًا لا مبرّر له غير حادثةٍ قديمة.

ورغم ما يكتنف الزّواجَ مِن ملابسات، إلا أنّ الزّفافَ بدا مفتعَلًا، بل بدا زفافًا تقليديًا، في الفسحة الممتدة أمام بيت «آزار»، هُيِّئت المقاعد والحُصر على الأرض، تراصّ الخلق أمامي مكدّسين، اُبرِمَ العقد في كنيسة «آيا ألنا» في المدينة، وها أنا في انتظار الدّخول غير الآمن.

رحتُ أدير في الوجوه وجهي المرهق، كانت كثافة النّاس تغزو عقلي فارتجفتُ كجرذٍ في مصيدة، وفي المدى وراء الأفق ابتسامة حزينة، قال لي «آزار»: ما أحلاكِ! لقد كبرتِ يا «كيرا».

أجفلتُ، داعبتُ الخاتمَ في إصبعي وأنا متوجّسة، مرتعدة، ورغم عَرَقي الموشِك على إفساد زينة وجهي، كان الصقيع يثلّج أطرافي، ما الذي دهاني فأوقَعَني في الشّرَك؟ هل هو حقًا شَرَك؟ أم أنّ اللحظاتِ

الأولى مـن كلّ إحسـاس دائماً لعـوبٌ ومراوِغـة؟ كان بصري يرحل إلى هنـاك حيـث أخدود مِن لون القمر الفضّي يتمسّـح بالمسـاء، والقمر كأنّـه أخـذ ينصهـر وراء سُـحُبِ حـيرتي، آه، مـال كلّ شيء يرحـل مع البـصر؟ فلا المَشـاهد تمسـكها عـينٌ واعيـةٌ مدرِكـة، ولا المَشـاعر تبقى راسـخة، التسـاؤلات أسراب ملوّنـة، ومضـاتٌ تضوّي للحظـةٍ بارقة في ظـلام اللّيـل ثم تـذوي كشـهبٍ نافقةٍ، المَشـاهد ترحـل دون هوادة، المشـاعر تعـترك في بـأس، تـذروني ريـاح مقبلة مـن قلب عتمـة رأسي كَثَـرىً يتبـدّد في الهـواء، يا وجـلي! كأنّـما لم أذُق الحـيْرةَ قبْلًا!

كان «آزار» يجـوس في حـيرتي بعـينٍ حائرةٍ، وكانت عمائم القساوسـة السّـوداء متراصّةً أمامـي، وكانت الورود المعلّقة خلفـي ذابلةً مكفهرة، كأنّها تشـعر بـما يتوافد عـلى رأسي مِن قلق.

وكان أبي واقفـاً بـين الحشـود، يبتسـم، ويدعوني للطمأنينة، شـعرتُ أنّـه جـاء خصّيصًـا لطمأنتـي، كان يجاهد اسـترضائي وربّما كان يشـعر بنـوع مِـن ذنب لأنّـه تركني وحيـدةً وصعـد إلى السّـماء مبكّـرًا، حيث أصرّ أن يشـارك في إحيـاء زفافنـا بنفسـه، وقفَ وسـط الطبّـالـين وبقية «الزمّاريـن»، وبنشـوةٍ مجروحـةٍ راح ينفُـخ المزمـار، فتصاحبـه قرعات الطبّالـين عـلى أغشـية الطبـل السّـميكة، لاح القمرُ هـذا المسـاءَ باهتًا، رهيفًـا، وهـو يُطِـلّ علينا ثانيـةً مِن عرشـه في السّـماء بأسـى، تمامًا مثلما كان أبي يرمينـي وفمُـه منتفِخٌ مـع عزف المزمار، كان نقـاشٌ خفي يدور بـين أعيننـا: - سـامحيني. - هذا يـا أبي اختيـاري. - هل أنتِ مجـبَرة؟ - عـلامّ؟! - كـم أودُّ إسـعادَكِ! - أعـرفُ يـا أبي.. أعرف.

عمائـم الجالسـين ترتخي فـوق أعينِهـم مِن نشـوة العزف، تُسـكرهم العـصيّ التـي توقِـد أفئـدةَ الطبـل، البنـاتُ ينزلـن يتضوّعـن رائحاتٍ آتيـاتٍ مع إيقـاع الزَّمـر والطّبـل، يحطـن خصورَهـنّ بِطُرَحٍ مشـدودةٍ بنعومـة وإثـارة، تغطـي جفونُهـنّ أعينَهـنّ التـي تتبـدّد نظراتُهـا فـوق الأرض في كسـوف، يُرْعِشـن أفخاذَهنّ في خجلٍ وفي ارتباك، تضطرب ابتسـاماتُهنّ مـع مسّ نظرات الجالسـين المباشرة البجاحة لأجسـامهنّ، وتبـدو سـيقانُهنّ وكأنّها سـتتعثّر فـورًا مِن فـرط التوتر، وكنـتُ أحِس أنّ معظمَهـنّ ممّـن يحاولـن غوايةَ شـابٍ لم يتزوج بعـدُ لِطـرْق أبوابهنّ، وهُـنّ يتبارَيْـن في الرّقـص وكأنّها حلقةُ نِـزال، كلّ واحـدةٍ تكالب إبرازَ مقدرتِهـا عـلى الرّقص وعـلى الإغراء، يهتممـن بتوضيح زائـد لمفاتنهنّ لكـن في حيـاءٍ وفي تَحفُّـظ، ويصفّق لهـنّ الرّجـال، يدنون مِـن بعضهنّ ويركـزّون في نظـرة إعجـاب صريحة، فيـزداد الإيقـاعُ اتقانًـا، ويأخذن يتمايلـن، فيتمايـل أبي ونشـوةٌ مِـن حزنٍ تسـتحوذ عـلى إيقاعِـه، وتروح عينـاه لأبعـد مِن إحسـاس المحيـط، ولا يكتفـي، لا يترك العـزفَ ولو كان حتّـى ضيـف شرف الليلـة القادم مِن عـالم آخر، يسـتمدّ طاقتَه مِن بـذرةِ تَجنٍّ يحـس بها في أحشـائه.

يميل المشـهد وأنا أتأمّل عريسي، كان منتشـيًا أيضًا، إنّما نشـوتُه بدت كنشـوةٍ عابـرة، مجـرّد لحظـةٍ شَـعر فيهـا بـذروة التملّـك والاسـتحواذ والظفر.

كـؤوس «الرّمان» و «اليوسـفي» تلف على الخَلق، والشّـموع تضيء ليـل العتمـة، تحشر عينَيّ بتألّقهـا، فيقابلها دمعٌ شـحيح، لا يكاد يبين

مِـن أعـينٍ زَخْرَفَتْهَـا المسـاحيق، ووجه برّجتـه رتـوش التأهّب لليلةٍ أخـيرة في حيـاة الأنثـى بداخلي.

ينـذِر الوقتُ بقرب موعدي مـع قدَري، موعدي مع حضـن «آزار»، بمحتـواه الكامن مِن التسيّد والاشـتهاء والغـرام القديـم، أمّي تصفّق وفي عينيهـا دمـوعٌ، واحـدةٌ مِـن البنـات تدعـوني للرقـص وتجذبنـي للمشـاركة، فأرفـض وجسـدي كلّـه يرتعـش، تنفـرط أجسـام الناس حولنـا كانفـراط حبَّاتِ مَسبحة، فينفرط تمالكي وتضطـرب سريرتي، برفـق يتناول «آزار» مِرفقي، ثم يشـبك أصابعَه كلّها بأصابعي، أرتعش أكثـر، للحظةٍ تمـرق في أعصابي شرارةُ جذل، وأنا أتذكّر لمسـاته القديمة إيّاهـا، تنحسر كلّ الأصـوات مِـن حـولي، أتلفّتُ فـأراني واقفةً بـرداءٍ أبيـضَ وسـطَ عـالمٍ مِن عـدم، تغيـب الوجـوه والمعاني والأحاسـيس، ثـم يبقـى بقـرارة نفسي شـعورٌ ما بالوحـدة، وأبـدأ في التـآكل كحَطبٍ حشحشـته نارٌ ليتحوّل ببطءٍ إلى رماد، كانت التّسـاؤلاتُ متضارِبةً وما أشـعر بـه يتبايـن تبايـنَ قطـراتِ الزّيت على صفحـة ماء، هل سـلكتُ دربًـا مِـن نعيـم.. أم دربًـا مِن جحيم؟

يتبعنـا الجمـع المحتفِي المجامِـل، يهلّلون، ونحـن نترك ببـطءٍ وعنايةٍ وبحـذر وبكثير مِن ارتباك سـاحة العُرس، وبعض البنـات يحملن ذيلَ فسـتان الزّفـاف الأبيـض كـي لا يتّسـخ مِـن تـراب الأرض، كان باب البيـت على مقربـة، تطايرتْ أعـلى مِنّا حبّـات الحلوى والمِلح، شـعرتُ أنّ الأرضَ رخـوة، سـتنزلق بداخلهـا قدَمـي قبـل حتّـى أن أبلـغ باب البيـت، فرحتُ بتثاقُلٍ ومشـقة ألضـم الخطوةَ بالأخـرى، وكلّ

المَشـاهد مِن حولي تتفكّك كلعبـةٍ أزليّةٍ، لم أعد قادرةً عـلى أيّ حراك، فتوقفـتُ لبُرهـة، تسـاءلتُ مَن سـيجمّع قِطَـعَ اللّعبـة مرّةً ثانيـة ويعيد تشـكيلَ المشـهد؟ لكـنَّ يـدَه كانت تسـحبني مِـن دون أن يشـعر أحد، وقـد حاولـتُ أن أتحاشـى نظـرةً مباشرة مِـن أمّـي التـي اتّخـذتْ رُكناً قَصيـاً عنـد آخـر جـدران المنزل وعـلى وجههـا يتّضـح الفـرحُ الملفّق، فكـم أشـعر بهـا تتطلّع إليّ في شـوقٍ حقيقـي وافتقاد مسبّق!

وودّعنـا كلّ الجمـوع، قبّـلَ «آزار» يـدَ كبـيرِ القساوسـة، فعاجلـه بتمتماتٍ وتلاوات ومسَّـدَ رأسَـه، ثم أغلق باب البيـت خلْفَنا، حاولتُ أن أحتفـظ بنظرةٍ أخـيرة مِن أبي، الذي سرعان مـا ذاب مختفيًا في الأفق، كانـت الطّريـقُ حتّى الغرفـة طويلةً، مرهِقـة، قطعتُها معـه في وقتٍ بدا لي مِلًّا شـاقًّا للغاية، وكان المنـزل خاليًا تمامًـا، وكأنّ كلّ الحياة لابد وأن تؤجَّـل لصباحٍ جديـد، إلى ما بعـد هذه اللّيلـة المجهولة.

تفارقنـي لحظـات التخبّـط، وأواجه الحقيقـةَ الجليّة، في غرفةٍ واسـعة وِسْـعَ التشـتّت، وأنامله تعبث بساحبِ الفسـتان، ينحدر بها في هوينى إلى تحـت، لينكشـف له ظهْـري المرصّع بقشـعريرةٍ داخليـة، يلثُمُه لثمةً خاطفة، ويهمـس في أُذُني:

- أما زلتِ خائفة منّي يا «كيرا»؟

خَيّـم بعدَها صمـت، رنين متوّجس يلِـح على عقـلي، وتَراقُص لهب الشّـمعة الوحيـدة في الغرفـة، الأحمـر الواهن، يسـحبني إلى تيهٍ نسـبي، كـم أشـعر الآن أنّنـي عبثـتُ حقًّـا بمسـتقبلي! هـل بـات «آزار» هـو الفـارس الأخـير الـذي إليـه أكون؟

كان جانـبٌ متواطـئ مِن عقلي يتوق للمسـاتِه، جانبٌ معتـم، مبهَم، لكـنَّ لذعةً أحسسـتُ بها وهـو يدعكُ بيديـه كتفي، تنـصرف مِن أمام بـصري كلّ العراقيـل، أريـد أن أبـدو هادئـةً كفايـة لتجربـة الإغـراء المصطَنـع، وأود مـع ذلـك أن أبـدو متأهبـةً للافـتراس، لا حيلة أخرى لي، يـتردّد صوتُ أمّي الحـازم في رأسي: لقد أصبـحَ مكتوبك يا «كيرا»، فكـوني طيّعةً ولا تخجـلي منه.

الغرفـةُ تتعجّل اللحظـاتِ القادمة، ولمسـاتُه مراوِغـة، ناعمة، يختلط بلمسـاته حدّا الرغبةِ والاسـتحواذ، وبِنَهَم شـديدٍ يبدأ في تقبيل رقبتي، فأستسـلِم وقلبي خافـق، أغمضُ عينَيّ، كـي أتجاوزَ قسـوةَ اللّحظة.

تورّطـتُ بـما يكفـي لأن أتكـسّر تمامًـا، لـن أدع الخـوف يقـود زمـام اللّحظـة، هـل هـذا الـذي يـأتي متخفيًّـا في السّـكون هـو الجحيـم؟ الجحيـم النهائـي المطلـق؟ ليكن، هـل هذا الاختنـاق الثمـل دليلٌ على رغبتـي في البـكاء؟ ظلال السّـتائر المترنّحـة تجعلني لا أعـي التفاصيلَ جيّدًا، ولمسـاته تسـوقني لمتاهةٍ غير معتـادة وكأنّي منوّمة، لا يفعل شـيئاً غـير التنفـس في رتم شـبِق، ولا أفعـل إلاّ الانسـياقَ وراء رغبتِـه برغبةٍ جريحـة، واستسـلام بـدأتُ في اسـتحلابه مِـن رونق اللّحظة، يكشـف عـن جسـدي بإزاحـة ملابـسي قطعـةً قطعـة، ونهنهتـي الخافتـة تدفعه لأن يتشـبّثَ مِـن ورائـي بفمِـه فـوق رقبتي أكثـر فأكثـر، ورائحة عبقة لبخـورٍ تـأتي مِـن لا مـكان، يتداخل لسـانُه مع أنسـجة جِلـدي، تفوح مِـن خلفـي رائحةُ شـهوتِه، وهـو يفح فحيـحَ الاسـتثارة، وعصّابة مِن نشـوةٍ تدعو بصري لأن يتعثّر بأرجـاء الغرفة، فتدور، وتـدور، كدوامةٍ

تسـحبني دون إرادة، وشرر يتصاعـد مِنّـي متجاوبًـا مـع سـخونة أنفاسـه الملتصقة بظهْري، أحاول أن أنطلق غـيرَ مبالية، تتحوّل النهنهة إلى «سرسـعة» مكبّلـةٍ بوخـز مِـن عالم بـدأتُ للتـوّ الرّحيلَ عنه، أشـعر بـأنّ هنـاك أكثر مِن رَجـلٍ يكمنون بداخلـه ويتنازعـون غوايتي، تقول أمّـي خُلقـت المـرأةُ لرَجـلٍ واحـد، وأعجـب مِن عـدد الرجـال الذين يراودوننـي الآن! كأنّ جسـدي سَـلكَ عـدّةَ طُـرقٍ، أو كأنّني في خضم كابـوسٍ أهوج، سـأترك نفسي ليدِه التـي تطوّحني فـوق السّرير، الذي يهتـز، وأنـا ممـدّدةٌ فوقَـه عاريـةٌ كإصبـعِ شـمعٍ يتدحـرج فـوق سـطح سـاخن، وكاهتـزاز السّريـر كان هـو يهتـزّ، يـدي تطوف ظهـره ليهدأ، يُفـرغ المجهـودُ كلّ طاقتِـه، فيتوقّف مسـترِدًا الأنفـاس، يرفع عينيه عن وجهـي ويتطلّـع فيّ قليلًا، أبتسِـم في ألمٍ هامسـة:

- اهدأ.

حـدّقَ في وجهي، ثم أصرّ على اسـتكمال مشـواره، أخذ ينهج فوقي، بـدأت اللحظـةُ في التبـدّل، وبدأ جـو مِن الإفاقـة يتسـلّل بداخلي، وقد بـدا لي أنّ عينيـه قد ازدادتا احمـرارًا، وانفعاله قد علت وتيرتُه، توسّـلتُ إليه:

- اصبر.

لكنّـه لم يكن يُنصِت، ولم يكن ينظر لي، كانت عيناه تنظران في تشـتّتٍ وعصبيـة فيـما حولنا، كنـتُ أريـد أن يترفّق بي قليـلًا، كانت تجربـةٌ مِن سـخطٍ مكـين، أود أن تكتمل بداخلي، تَخشّـبَ فوقي، بـدأ صوتي يتّخذ شكل الاستجداء:

- قلت اصبر..

قلبي غـاج بخوفٍ مباغت، جذبتُ الغطاءَ على جسـدي، لكنّه شَـدّه بعنف، صاح:

- ابعدي الغطاء.

ملامـحُ أخـرى، جديدة، راحت تتشـكّل أمام عينـيّ، جعل يتضخّم ويتحوّل إلى كائنٍ تملأه قسـوةٌ مستهجنة، شـعرتُ بأنّه يجاهـد في تجاوز هـذه اللّحظة للحظـةٍ أخرى دون النّظر إلى راحتـي أو مَدى ما أبلغه مِن تمتّـعٍ حقيقي، بـدأتْ رجفةٌ تتمكّن مِن جسـدي، ضممتُه لي في إشـفاقٍ وحَـيْرة ورحـتُ أتحسّـس ظهْـرَه، حاولـتُ أن أغمِـضَ عينَيّ حابسـةً دموعـي حتّـى لا أحِـس بهذا الصّخـب المباغـت، لكـن دون جدوى، رعشـةُ جسـدي فاقت كلّ حـواسي، وغلبت محـاولاتي في تـرك نفسي، فأخفقـتُ في اسـتدراك هذا التغيّر، صِحتُ بأنين مشـبّعٍ بالشـكوى:

- أرجوك، على مهلك.

أشاح بوجهه في انعدام تركيز، وهو يغمغم:

- ولا كلمة.

صدَمنـي، فلم أعْتَـدّ، رماني بنظـرةٍ نارية، وراح يسـتكمل انقضاضَه عـلى جسـمي بغير أن يكـترث لي، تأوهتُ، بدت روحي كبِركـةٍ مِن ماء جسء، لـن تحرّكـه دوّامـاتُ رغبتِه، كـم اقتربت مِـن وهمٍ مخـادِع! إنّما يختلـج صـدري الآن بتوتـر ويـزداد فيّ شـعور بالإحباط، بحـذرٍ دفعتُه عنّـي وقلت:

- ما الذي يدعونا للتعجّل، اتركني لا أحتمل.

استقام فوقي مرتكزًا على ركبتيه وعضلاتُه تنتفض، وكان العَرَق يتقاطر من جسده:

- سنفعلها الآن.

قلتُ وأنا أنتحب:

- لكنّي خائفة، إنّها ليلتي الأولى معك.

قفَز مِن فوقي، عيناه أطلقتا إصرارًا فتّتَ كلّ ما تبقى بداخلي مِن تودّد وتحفيز وضرب ذراعَ السرير النحاسي بقبضة يدِه في عصبية مفاجئة، فأحسستُ بانبعاجه، في وجل انكمشتُ، بعدَها تقدّم وحاصر ذراعيّ بكلتا يديه ثم نشَب أظافرَه في لحمهما وأنا لستُ مكتمِلة الفهم، ولوَاني ثم دَفَعني أمامَه، فجثوتُ مرغَمةً والأنينُ انحشر في حلْقي، تمنيتُ أن تكون هوجةً طارئة لكن ما بدا بعد ذلك بدا توكيدًا لحافز السّيطرة لديه، وقد تشبّثَ بظهري، وراح يباشر وطرَه خلال كلّ منافذي، بغير أن يعتدّ بوجعي أو استيائي، ناشدتُه متضرّعةً وأنا أشهق في وجع:

- ماذا تفعل؟ إنّي أتألّم!

تمادَى، فأخذتُ أجهش في وهَن، وقد دنوتُ من الإغماء، لم أستوعب بما يكفي لرد فعلٍ متعقّلٍ متقن، إنّما إنْ كانت هذه هي التعاسة فلتكن، هذا اختياري.

حاولتُ أن أتشرّب الألمَ بغير متعة، حاولتُ أن أستعيد التوازن، استسلامي يُشعرني بأنّها لحظةُ موتِي، وهو يَخرج من خلفي العسيرِ محاولًا الدخولَ في الأمام الأكثر عُسراً لتكتمل ليلتُه، حاولتُ أن أبدو

جامـدةً حيـث أعـرف أنّ جسـدي لـه أهميـةٌ أكـبر مِن هـذا، وهـو مِن ورائـي يكابِـد بجمـوحٍ لعين، وشـبق رهيب يسـطو عليه، كانـت أمّي تعتقـد أنّه سـوف يعـاني معي، ليتَها تـدرك مَن يعـاني الآنَ مـع الآخر؟

رؤوسٌ سـاطعةٌ تنبعـث أمـام عينَـيّ، ليلهـو كيـف يشـاء، وأنـا مستمسـكةٌ بحـرف السّريـر كحَجـرٍ لا روحَ فيه، تعجّبـتُ كيف يخدم شـهوتَه بمثل هـذا التحيّـز دون الرجـوع لي؟ ألسـتُ زوجتَـه الأبدية؟ ألسـتُ جسـدًا يبغـي ذاتَ التحـرّر؟ إنْ كنـتُ طائعـةً بنصـف وعيي، فهـذا لأنّي عاجـزةٌ عن الحراك، عن التفوّه، سـابت كلّ أجزاء جسـمي، أين اللمسـات العاطفيـة؟ هل غـادرتْ بسرعـةٍ واسـتحالت إلى طَرقٍ عنيـفٍ عـلى كلّ أبـواب روحـي؟ كيـف أسـاومه وأنجو بهذا الجسـد؟ لا أعتقـد أنّـه قد يَقبل مسـاومةً تحت أيّ ظـرف، ولا مِـن أيّ نوع، كان هـو الـذي سـاوَمَني قبْـلًا بلُطفٍ زائـف، الآن بـاح لي الواقع بـسرّ هذه الشّـخصية، وتجرّدَ هو نفسُـه بكلّ تشـوهاتِه، آه كيف استباح تعذيبي؟ مـا هـذا الخـور؟ هـل أستسـلم لهـذا النّـوم؟ لا.. لن يبكينـي رَجـلٌ أيًّا كان، سـأحتمِل.. سـأحتمَل.. سـأ.. حـ.. تـ..

وهـو يلقيني عابثًا عـلى الأرض، كنتُ كذبيحةٍ تَم نحرُهـا، لكنّه كان يهلّـل، يصيـح، لم تكن صيحةَ نشـوة، ولا صيحةَ إتيان، لم يكـن الدّفء الـذي شَـعر بـه قـد ألمّ بي، بـل كانـت انتفاضـةَ بـردٍ قـارصٍ هـي التي انتابتنـي، وهو يلـوّث أناملَه بالدّم السـائل بين فخذيّ، ثمّـةَ نوعانِ مِن الـدّم، دم الرُّوح، ودم الجرح المسـتهجن، وكلاهما اسـتبيحا.

يرفع أناملَه لأعلى، على ضوء الشّمعة المتأرجح يتفقّد ما آلَ إليه

جسـدي، وبنشـوةٍ صارخةٍ يجري حولـه ويبدو كمنْ يبحـث عن أيّ أحـدٍ ليطلعـه على ظفـره المؤكـد، يبدو كمنْ ينبـش عن منفـذٍ ليطير إلى الخارج، والحروف تكسّرت بين شـفتيه، تأمّلته بانكسـارٍ مضاعف، ولم أكـن أصـدّق أنّ روحي أصبحتْ نقاطًـا مِن دمٍ تتناثر عـلى يديه الآن!

في الصّبـاح؛ كان راقـدًا بجـواري كخِرقةٍ مبتلّةٍ هامدة، راحت أشـعةُ الشّـمس تتسـلّل مِـن بـين ثقـوب النّافـذة، وتترامـي عـلى الجـدار، ثم تراوغنـي لكـي تتمكّـن مِن عُنُقـي، تفرّسـتُه طويـلًا، وغُصّةٌ محبوسـةٌ منـذ ليلـة الأمـس في حلْقي، مـا زال منظره وهو يعبث في شـاربه عقب انتصـارِه المزمـع يـلازم عينَـيّ، لم يكـن يُجـدي بعدهـا سـوى الصّمت الموجـع، هيّ ليلـةٌ أولى، وقاتلـة، هيّ ليلةٌ مِـن همٍّ واشـمئزاز، وصدمةٌ عظيمـة، لم أكـن أظـنّ أنّـه سيفسـد بشـططه وجنونـه كلّ ما هـو بريء بداخـلي! وهـا هـو نائـمٌ كشـيطانٍ وديع، يـا للعبـث! لم يفكّـر حتّى أن يقبّلنـي ولـو قُبلـةً على خـدّي شـكرًا وامتنانًـا بعد مـا انتهـى، أو حتّى يُبـدي القليـلَ من الأسـف على مـا ارتكبـه في حقّي، فقط أخـذَ يتباهي قليـلًا بدمي المـراق فوق أصابعـه، دمُ الشّرخِ الذي تسـبّب فيه بداخلي، وتَمـدّدَ عـلى الفِـراش، وغـطّ في نـومٍ، مبـاشرة هكـذا، كذلـك بغير أن يزيـل آثـارَ دمي مِن يـده، وكأنّها عمليّـة آلية رتيبة وخلصت، تسـاءلتُ هـل اختلطـتْ عليه المسـاعي ليلـةَ أمـس أم هنـاك غوايةٌ بديلة لـديّ لم أكن أعلـم أنّها ستسـلب تركيـزَه واتّزانَـه؟ ليتني...

لم أنَـمْ منـذ أمـس، ظللـت محدّقـةً ببلاهـةٍ وذهـول في الوجـوه التـي كانـت تبـزغ أمام بصري، وجـوهٌ أعرفهـا، ووجوهٌ لا أعرفهـا مِن صُنع

خيـالي، وغلالةٌ ثقيلةٌ مِن تنهـدات الفَجر تخترق أنفـاسي، وآهةٌ تائهةٌ تقبـع في صـدري، حملنـي الأمـس مِن عـالم قـاسٍ لعالم لـه قسـوةٌ أكثر جنونـًا، قسـوة مضاجعة روحي بهذا الانحطاط أشـدّ ألمًـا مِن مضاجعة جسـدي، كيف جسر على وطء ما ينبغي ألّا يُستباح؟ ومِـن أول ليلة! لكنّنـي مـا زلـتُ عـلى قيـد الحيـاة، مـا زلـتُ أتنفس وإنْ كان تنفسي عسـيرًا، أشـعة الشّـمس الشـحيحة تحطّ على صـدري وتُثقِـل أنفاسي، كنـتُ في حاجـةٍ للصّحـو، لم يكـن هنـاك مَن يبـالي بهذه الفـوضى التي نجمـتْ داخـل كياني غيري، كنـتُ في حاجة للتمعّن في شـظايا روحي التـي تناثـرت مِن حـولي، وأن أجاهد الاسـتكانةَ محاوِلةً لململمـةَ ما تَبقَّى، غـير أنّ معدتي متقلصة، وكلّما أوشـكتُ على التقيؤ عليـه وعلى الفِراش وعـلى كلّ التفاصيـل، ينهاني التسـاؤل: وهل يسـتحق؟ هيّ مجـرّد ليلةٍ وانقضت، بائسـة، وسـخة، أو مؤلمة، لكنّها انقضـتْ، كان عليّ أن أفكّر قُدُمًـا في الحيـاة الأخرى التي ينبغي أن أعيشَـها بائسـة.

لـن أُغـرِق نفْسي في إنسـانة بالية لم يعد لهـا وجود، لابـد أن أُقدّ نفسي مِن جديد، سـأنهض الآن، أتشـطّف مِن كلّ قـاذورات الأمس، وأنتبِه، بـذات الدّرجـة التـي انتبـه لها عنـد تمزيقـي، لمحاولـة الفكاك مـن هذا الفـخّ، تكفيـه ليلةٌ واحـدة مِنّي، لن ينال سـواها، أنا التـي قدّمتُ نفْسي بـلا إرادة حقيقيـة، وأنـا التي قبِلتْ على نفسـها هـذا الدّورَ المُهـين، وأنا أيضًا مَن سـتحلّ نفْسَـها مِـن أيّ التزام.

المـاءُ الفاتر ينعش جسـدي قليلًا، أتدلّل تحته كقطـةٍ منفعلة وأغمِضُ عينَـيّ عن كلّ مهاتـرات الأمس، محاوِلـةً القبضَ عـلى أنثى كانت

بداخلي، القبض على بقايا منها عساني ما زلتُ محتفِظةً بها، أدعكُ بيدي كلّ زوايا الجسد البائد، وأتحسس مع ملمس الماء ورغوة الصابون دبيبًا مِن قهرٍ يجد له مسالك داخل كلّ كياني. هنا، والماء يجرف شيئًا مِن أحمال الأمس، آنَ لي البكاء، بعيدًا عن موطن الفجيعة وجسده اللزج، آنَ لي القليل مِن الرثاء، ليس أمامي الآن إلاّ محاولة إسعافِ ما أبقاه مِن روحي دون النّظر للجزء الذي يُبس فيها، والماء يغرف من همومي ويزيح، كيف هُنتُ على نفْسي؟ كيف سمحتُ له بهدر كبريائي؟

صوتُ الماء يشوشر على أثارة من اعتزاز قد تخلّفتْ في جوفي بعد غروب الأمس، فمضيتُ مع فكرة أنّني قد ضِعت، الضّياع المؤكد الذي لا فكرة بعدَه ولا مناص منه، على عجلٍ انسللتُ في ثوبٍ محتشم، وقلتُ لنفْسي ضياعًا بضياع، ليس بعد تعاستي الآن تعاسة، ليفعلْ ما يشاء، لكنّني سأهجره، الآن، دون مقدمات، ولا اعتبارات، سأمضي عن هذا البيت المدجّج بالغموض والحيْرة والرِجس، أقلّه حتّى يعلم الجميعُ أنّ هذا الزّواجَ مجرّد لوثة طارئة، ولتحترق الكنيسة، وليحترق القساوسة، سأمضي، قبْلَ حتّى أن يفيق أو يشعر بهول المصيبة، سأتركه في يوم الصّباحية، كدليلٍ على حقارتِه وبُغضي، سأنزل السلالمَ مهرولِة، قد أتعثّر في نزولي، قد أشعر به وبلهاثه مِن خلفي كأنّه مارد قاسٍ سيثِب عليّ فأجده أمامي، لكنّني مُصِرةٌ على الهروب، لم يعد فيّ ما يثنيني عن عزمي، لم يعد خوفٌ ولا تحفّظ، فقط نِقمة كبيرة عليه وعلى هذا البيت الموبوء الذي لم أمضِ به سوى ليلةٍ مِن مهانة، فأيّ أهمية؟

تتسـارع دقاتُ قلبـي، متزامِنةً مـع تَسـارُع أقدامي، لن أحـاول خلْقَ مـبررات، المـبررات موجودةٌ بالفعـل أكثر ممَّا يتخيّل، بـدا أنّني أرى كلّ هـذه المعالم للمـرّة الأولى، كلّ الذّكريات التي يحتشـد بها جوفُ عقلي، إنْ أخطـأتْ قدمـاي السّـبيلَ فهـذا أوان التصحيـح، انزلقـتُ بما يكفي للعـودة مـرّةً ثانيـة إلى أعـلى، إلى الفتـاةِ الأولى التـي لوثَتْهَا يـدُه اللعينة، إنّـه كابوسٌ مفزِع، سـأتخلّص منه الآن، وسـأرجو الـرّب التخلّص مِن كلّ آثـاره، هيـا.. انـزلي.. غادري هذا المنـزل.. لا تبكِـي.. لا وقت الآن للبكاء.

تتلاحق سـاقاي في دروبٍ متلاحمة، يتشـنّج جسـدي، سأسـلك كلّ دروب هـذا البيـتِ لو اضطررت، لكن سـتهديني قدمـي في النّهاية إلى طريـق الخروج بكلّ تأكيد، تستشـعر أنامـلي كلّ نتـوءات الحوائط، وأنا أترنّـح كغمامـةٍ ضالّة، أصطـدم ببعـض الأواني التي تعـترض طريقي، وصوته الكاسـح يـتردّد في عقـلي: ولا كلمة.

دفعـتُ بنفْسي خارجَ حـدود الـدّار، كانت الشّـمس تجذبنـي للبعد عـن المـكان، والبيـوت البعيـدة تتلهّـف خطـواتي المسرعـة، والحقـول المطموسـة تحـت لون الأشـعة الذهبـي تفسِـح لي طريق الهـروب، وأبي يلـوّحُ لي مِـن بعيـد، يطمئِنُني، يحتويني كشـاطئٍ يحتضن موجـةً تائهة، يسـتغرق النّظـر إليّ منتظـرًا، كأنّـه لم يـزل يحمّل نفسَـه الذّنب!

رحـتُ أركـض، آه يـا أبي كيـف أداري مـرارةَ المَهانـة والقهـر؟ آه لو تعلم كيـف مزّقني بالأمـس؟ أرجوك تنـاوَلِ المزمارَ واعـزفْ لي قليلًا، اعزفْ لي نغمةً شـجية طويلة تُسـكن العاصفَ في قلبي، تمايل، سأتمايل

معـك، سـأكتفي بأن أتابع خشـوعك بخشـوعٍ مماثِل، حـرّكْ أناملك الحسّاسـةَ بـين الثقوب وسـدّ تأوهاتِهـا، وتعالَ سـدّ هذه الثقـوبَ التي تفشّـتْ في كياني أيضًا، كُلّي ثقـوب، كُلّي جروحٌ لن تندمـل، تعالَ جوارَ أُذُني وأطلـق النغـمَ الـذي ينتقـل بأعصـابي إلى دنيـا أخـرى، آه يـا أبي، اعـزفْ، أخمِـدْ هـذه النـيرانَ التي تلتهمنـي دون رحمة، ظلّلنـي بحنانك إيّـاه، كـي أسـتطيع أن أجمـع مـا تبقّـى مِـن ابنتـك، قِـفْ بي عـلى حافة الوجـد المفقـود، وأطلِـقْ أنـينَ الآلـة الكامِـن، وحتّـى لا أدري إلى أيّ شـوق سـيقودني، سـوى أنّ اختـيارَ عزفِـكَ في رأسي سـيكوّن انفصالي عـن واقعي المـؤلم، تـآزَرْ معـي في نبشي عن ظـلّي الأبيـض القديم، هل تـدري يـا أبي أنّـك كلّما وضعـتَ أصابعك في جـروح المزمار تلمّسـتُ بـك مسـاحةً مـن هيـام لا توجـد إلاّ هنـا؟! اعـزفْ، لكـي ينطـق هذا الصّـوتُ المـشروخ في داخـلي ولا يستسـلم للرّيـح الغـادرة، اعـزفْ لا لأنّي هـذه البنـتُ التـي كانت تتأمّلـك من بعيد مـن ذي قبل، أيّـامَ كان للعـزف معنـى، لكـن لأنّي أرغـب كثـيرًا في اسـتعادتها، اعـزفْ حتّـى أتيقـن مِـن أنّي ما زلـتُ حيّة.

وثمّةَ طوقُ نجاةٍ يلوح في الأفق..

في انتظاري.

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول -٦٤٢ هـ

(الإيمانُ والحبُّ يجعلان الإنسان بطلًا، إذ يصرفان عن قلبه جميع المخاوف).

إنّ السّعي وراء الحبّ يغيّرنا، فما من أحد يسعى وراء الحبّ إلا وينضج أثناء رحلته، فما إن تبدأ رحلة البحث عن الحبّ، حتّى تبدئين التغيّر من الدّاخل ومن الخارج.

إنّ الماضي تفسير، والمستقبل وهم، إنّ العالم لا يتحرّك عبر الزّمن وكأنّه خط مستقيم يمضي من الماضي إلى المستقبل، بل إنّ الزّمن يتحرّك من خلالنا وفي داخلنا في دوائر لا نهاية لها، إنّ السرمدية لا تعني الزّمن المطلق، بل تعني الخلود.

لا يعني القدر أنّ حياتكِ محدّدة بقدر محتوم، لذلك فإنّ ترك كل شيء للقدر وعدم المشاركة في عزف موسيقى الكون دليلٌ على جهل مُطلق، إنّ موسيقى الكون تَعُم ّكلّ مكان وتتألف من أربعين مستوى مُختلفًا، إنّ قَدركِ هو المستوى الذي تَعزفين فِيه لحنك، فقد لا تغيرين آلتُكِ الموسيقية، بل تُبدّلين الدّرجة التي تجيدين فيها العزف.

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٣٥ هـ

(قلت للعشق ذات ليلة: أصدقني القول،

من أنت ؟ قال: أنا الحياة الباقية وأنا العمر

المتكرّر).

رائحـة مكتبتي خانقةٌ مكتومـة، والكتب من حولي متناثرة بعشـوائية مُفرطـة عـلى الأرض، ألوّح بيدي لابني «سـلطان ولـد»، فيُغلق الباب خلفـه ويخرج، بعـد قليل، أخـرج، وكانت جالسـةً في الفناء تنتظرني.

وجهُها قمريٌ وعيناها شمسـان، ينسـدل فوق رأسـها شـالٌ أسـود، تأمّلتهـا وأنـا أقـترب منهـا، وكان النّـور مـن خلفهـا يداعـب قسـمات وجههـا، راعنـي انبعـاث الألم والحـزن مـن رُوحهـا بهـذا الشّـكل المفضـوح، عندما لمحتني نهضت، وبإشـارة من يـدي دعوتها للجلوس ثانيـة، أذعنـت، فجلسـتُ في مواجهتهـا، قالت:

- مولانا، ما جئت إلّا لما شاع عن علمك ووصلك مع الله.

- كلّنا واصلون بنهاية الأمر.

- أنشد لي شعرًا.

ابتسمتُ، وقلت لها:

- ليست هكذا تؤخذ الأمور، بعضُ التعارف خيرٌ.

- أنا «كيرا»، مسيحية.

قالت، فرددت عليها:

- عند الله يتساوى البشر، الفرق بينهم طاعة واحتساب.

ثـمّ ناديت على «سـلطان ولد» ليناولنـي دفتر الأشـعار، طالما جاءت محبّـة فلتظفر ببغيتها، إنّ الشّـعر في النّهاية تريـاق للأرواح.

تتلكأ بعض اللّيالي حتّى الشفق

كيما يُؤذّن القمر للشّمس أحيانًا

فكن مثل قادوس مُترعٍ جرَ دروب الظّلام

من بئره ثم يصعدها إلى النّور

أحسست بدمعة طفرت من بين جفنيها، بدت تحمل شكوى، وتنتظر أن يشاطرها فيها أحدٌ، فأكملتُ:

عيوننا ما تراك

لكن عُذرًا لنا: فالعيون ترى مظهرًا

لا حقيقة ولو أنّ لطيفة هذه المنزلة

ترجى دوامًا

أدرج على الأرض عاري القدمين وأذهلها بالدّوار

فهي حبلى بالمرح و البراعم

ربيع مصطخب يرتقي نحو النّجوم

والقمر ينشده ممّا يدور

أنصت إلى الأطياف داخل القصائد

دعها لتأخذك حيث تريد

اتبع تلك الإشارات الباطنية

ولا تُخلف مقدّمة منطقية

يرجع اللّيل حيث أتى

كلّهم عائد عند وصولك

احك لهم كم أحبّك

فجـأة؛ شـبّت ناهضـةً، وأولتنـي ظهرهـا وبـادرت بالمغـادرة، لكنّها التفـتّ لي ثانيـة، وقالت:

- سامحني يا مولانا، هذا أكثر ممّا تحتمل روحي.

استوقفتها، وعندمـا نهضت مـن ورائها أستكشـف، وجدت عينيها مليئتـين بالدّموع، شـعُرت بولدي «سـلطان ولد» يتلصّـص من بعيد، رميتـه بنظرةٍ فانسـلّ إلى الدّاخـل، قلت لها:

- على الرّوح أن تغتسل بعشق الله.

- وأين هو الله وسط هذا الخراب؟

- إنّما الخراب خراب أرواح لا أجساد.

- أجـل يا مولانـا، إنّ روحي خربـة، ولكنّي اسـتمتّ كيما أُصلحها، بـلا جدوى.

- انـصرفي إلى الله في خشـوع وقناعـة، كفيـل هـو بإصـلاح الأرواح الخربة.

- هل تعرف يا مولانا...

ثمّ صمتت قليلًا وهي تستدير لتغادر، لكنّها قبل أن تغادر قالت:

- إنّ الله أكبر كذبة كذبناها.

ظلّـت كلماتهـا تـتردّد في رأسي، لم أكـن أعـرف أنّ الإنسـان يُمكن أن يتعثّـر لهـذه الدّرجة، ما جـدوى انشـغالنا بالتصوّف والفقـه والعلم إن كان العـالم لا يتغيّر! فطالما الإنسـان مُغرق في تعاسـته، لا شيء من العالم يتحـرّك للأمـام، الدّائـرة مغلقـة إذًا، والنّوافذ في السّـماء مُوصدة بوجه

ابـن «آدم»، ومـا نحـن إلّا مجـرّد حصى لا يُدرك بسـفح جبـل الزّمن، يدور الزّمـن، ولا يعتبرنا.

في فجـر هـذا اليوم، خرجـت إلى الخلاء، ركبت فرسي وتركتها تسـير بي، صلّيـت تحـت شـجرةٍ عنـد حـدود المدينـة، وكانـت حقول الـذّرة مـن حـولي تترامـى كألّا نهايـة لهـا، تحبس الشّـمس من خلفهـا، وتترك أضواءهـا تخـرج مذبوحـة، دامية، كانـت روحي قـد أصابهـا قليلٌ من الخمـول، فبرغـم كلّ شيء؛ لم أنـس «كيرا».

عُـدت للمنـزل، عبرت وسـط وديـان وحقـول وأشـجار وحدائق، شـعر «سـلطان ولد» بمـدى الضّيق الـذي يعتمل في روحـي، فقال لي:

- أأجهّز لك إفطارًا يا مولانا؟

يعـرف أنّي لا أفطـر منذ خمس سـنوات ويزيـد، أصوم دونـما انقطاع، لكنّـي؛ في مبـادرةٍ غريبة، قلت:

- حسنًا.

رفـع حاجبيه، ثمّ انصرف يلبّي رغبتي، نظـرتُ من نافذة المكتبة، كان الفناء مسـفوحًا تحت أشـعة الشّـمس، وكانت يدي ترتعش ارتعاشـة لم تكـن من قبـل، بلعت ريقـي، إذ لعلّ الهواجـس بدأت تعـاودني، ولعلّ الفـراغ القديم يُولـد من جديد، ويتوّغـل في روحي، أحسسـت أنّ آهة مكتومة تلهج في أحشـائي.

الله معنى أم حقيقة؟

مـرّة أخـرى تخالجنـي الهواجـس، كلّـما ظننـت أنّي بلغـت الـذُّرى، ألفيتنـي سـقطت مـن حالـقٍ، وكلّـما عشـقتُ، انقبـض قلبـي.

بعـد أيّـام؛ زارتنـي «كـيرا» مجـدّدًا، إنّـما هـذه المـرّة، كانت قـد انتوت أن تكاشـفني، وألا تضـنّ عـليّ بـسرًّ، جلسـنا في الفنـاء، كانـت فرسي تحمحـم مـن داخـل حجـرة الإسـطبل، خـرج «عـلاء الدّيـن» وناولها حزمـة حشـائش، فأخـذت تصهـل في انسـجامٍ وهـي تفـرك الأرض بقدميهـا، «كـيرا» سرحـت قليـلًا مـع صهيـل الفـرس، وقالت:

- ما الذي يميّزنا يا مولانا عن هذه الفرس؟

- النّـور يـا «كـيرا»، النّور، هـذه الفـرس لا تعرف الله، لأنّها ببسـاطة لا تفهـم الفـرق بين الخطأ والصّـواب، لا يُمكنها أن تعشـق، إلّا بالقدر الـذي تمنحه لهـا غرائزها.

- غرائز الإنسان أشدّ فتكًا وشرًّا.

- ولكنّ الإنسان قادرٌ دومًا على كبح غرائزه.

قصّـت لي حكايتهـا مـع «آزار»، ومـع الرّاهـب، هروبهـا ومـن بعدِه الكـرّ والفـرّ اللّذين تعرّضت لهما، لولا تدخّل كنيسـة «آيـا ألنا» وإجبار «آزار» عـلى تطليقها.

ظلّت تغـادر وتعاود زيارتها كلّ بضعة أيّـام، وانصرفتُ للتفكير فيها دونًـا عن كلّ شيء، الشّـعر والتصوّف والرّياضة، حتّى الله، حسـبي أنّ «كـيرا» بدت لي نسـخة طبـق الأصل من عشـقي لله، ولكـن؛ على هيئة بشرية.

في زيارتها الأخيرة لي كضيفةٍ، صارحتها في جسارةٍ:

- «كيرا»، تزوّجيني.

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣٥ هـ

بيـتٌ جديد على قلبـي، ملء محبّة وصفـاءٍ، تدعوني السّـلالمُ الحجرية الطّالعـة للسّـطوح إلى الاسـتئثار بروحـي، تنعطـف إلى أعـلى انعطافـةً طفيفـة، أنعطـف معهـا فتنعطـف دماغـي عـن كلّ المعانـاة القديمـة، الشّـمسُ ترقـد في انتظاري على سـطح البيت تدعوني للتفـاؤل، تفرش أذرعتَهـا فوق الحصى والسّـور وفوق رأسي، تدغدغ أحاسـيسي كطفلةٍ مرحـة، أنسـاقُ خلف الأمـل الذي تبثـه، خلـفَ طالعٍ جديـد، صباح جديـد، أتّكـئ عـلى السّـور الواطـئ، أحتضـن بعينَـيَّ كلّ مسـاحات الزّمـن المُبـاع، إنّما ما كلّ هذه الحرقـة؟ هل كان يبدو التحـرّر بعيدًا لهذه الدّرجة؟!

أُمسِـك طـرفَ مـرآةٍ متكـسّرة، أرفعـه نحـو وجهـي، بـدوت وكأنّي مِـن عـالمٍ آخر، كم يبـدو وجهي شـاحبًا، كأنّي نقشٌ باهت عـلى جدار، وجـه حزين، متمـرّغ في اليأس، كأنّـما لا تُفارقني خيبـات الماضي، متى تسـتريح رأسي من شـعور الخيبـة والإذلال؟! وهناك عـلى المدى المزهو باللّـون الأخـضر لا يكتمـل زمـنٌ ولا يسـتمر حُلـم، أقِف كـما بدوتُ تمامًـا منـذ قبـل، ناقوسًـا يحـذّر المسـاحاتِ الخضراءَ مـن خطـر القهر الدّاهـم، ولكـن رنينه خافت، متقطّـع، كأنّي على حافة أمكنـةٍ غير آمنة، أليـس مـن طريقةٍ للقبـض عـلى كلّ اللّحظات البريئـة الهاربة؟

سـأصارح «الرّومـي»، سـأقول لـه أنت فكـرةُ الرّجل الكامـل، أنت مبتَدى عشـقي الـبريء، لن تجد مَن هـيّ أدفأ منّي، أو أصـدق منّي، لن تجـد حتّى أنثى تشـبهني في شيء، بل لن تجـد حدوتة لذيذةً تعيشـها إلاّ بـين يدَيّ، فأنا مَن سـتجعلك وليًـا في محراب هواي، أنا مَن سـتجعلك

ربيعًـا لتتجـاوز خريفَ أيامِـك، أنا التي سـأُوقد مِن روحـك اليانعة قمـرًا يتـلألأ في عينيـك، فأمنحـك البهجةَ والسّـعادة والفـرح، حبيبي أنـت مجرّد حكايـةٍ ناقصـة اكتمالُها يكـون فقط.. لـدَيّ.

أدخـل غرفتي الصغيرةَ فوق السّـطوح، تتسـكّع فوق أرففه الخشـبية كُتُـبٌ ورسـومات اصفـرّت أوراقهـا، أتناولهـا جميعًـا في انقضاضـةٍ واحدة، تهوي برميةٍ مسـتخفّة فوق الأرض، يتراقص لهب المشـعل بين أنامـلي، سأشـعلها، دفاتري الجديدة سـيكتبها «الرّومي»، لكنّ المشـعل سرعـان مـا يوهـن مـع ارتعـادة يـدي، ثـم ينتابنـي بـكاءٌ حـارق أخذ يفـرّغ القليـل ممّا يعـترك بداخلي، مالي مشـتّتة هكذا؟ هـل لأنّي أوغلتُ في تذكّـر المـاضي دفعـةً واحـدة؟ تجـرف دموعـي روحـي، وتكنـس بعـض فضـلات الذّكرى، هـواء مشـبّع بالطمأنينـة ينفذ عـبْرَ روحي، فتجتاحنـي السّـكينةُ غير المنتظـرة، أتقرفص عـلى الأرض، أحـاول أن أعيـد إيقـاد روحـي، فـأرى لمحةً مِـن بريق أخّـاذ تضوّي أمـام بصري، كان وجـه «الرّومي»،كحُلـمٍ أخَذَ يتوّهج رغم عتمـةٍ تراكمت في عقلي، شـظايا مِن مـرآةٍ متهالكة تتنـاثـر فيها حـولي، تتلاقى انعكاسـاتُها بخيطٍ مـن بريق، فتبـدو كلّ بدايات الأشـياء العقيمة وكأنّهـا نهايات، وبعض نهايـات تحيـد نحـو بدايـات أخـرى، دائرة مِـن تخبّـطٍ أحـاول الانتقالَ داخل حدودها إلى نفس شـكلي المبدئي، فِطـرتي الأولى، حروف مبعثرة لا تتبلـوّر إلى كلـمات محـددة تجيـش فيّ، تنحرف عـن دلالاتهـا المعتادة، تتداعـى كما تتداعى كل السـمات المؤطّـرِة لهويتي، فأشـعر وكأنّي قطعةٌ مِـن صلصال تعجنهـا أناملُ الحـيْرةِ والذّهول، تضغط مِـن كلّ جانب،

فأبتعد عن مشهد روحي غير الثابت، أجاهد أن أستريح قليلًا، قليلًا، أنغمس في سكونٍ لذيذ، أفتح عينَيّ على رؤيا مِن بُعدٍ خاملٍ في روحي راح يدنو ويدنو، ويُشعرني أكثرَ فأكثر بالطّهارة، تهمس الفتاةُ القديمة -التي أصبو لاستعادتها- داخلَ رأسي:

- هه.. ماذا ترين؟!

فأقول:

- أرى...

ثم يتعطّل صوتي، أستمِعُ لها في توّحدٍ وشجنٍ وافتقاد، افتقاد مؤلم، أُكمِل وعيناي تسرحان نحو زمنٍ أولٍ بريء:

- أرى الحُلمَ يُقبِل على المدى من جديد.

وأضحك في نفسي بحرقة، وهل عانَى مثلما عانيتُ في هذه الحياة أحد؟! حاولتُ أن أتحصّن خلف تخيّلِ مستقبلٍ أكثرَ براءةً ووضوحًا مع «الرّومي».

أرانا جالسيْنِ تحت ظلّ العشق ننجرف خلف الحديث العذب بالسّاعات، فينقضي النّهار ويحفّنا المساء بمجيئه السلس، أسمع ضحكاتِه وهو يداعبني في خيالي:

- أريد أن أبدو أكثر واقعية معكِ.. أشعر أنّني مجرد مجازٍ في حياتك.

أحدِّجُه بنظرةٍ مستنكرة متدلّلة، أقول في هيام:

- إن كنت أنت المجاز فأخبرني أيّة حقيقة بعدَك في الحياة؟!

- كم جميلةٌ أنتِ!

أشيح وجهي عنه في خجلٍ ودلال، ثم أقول:

- إنّه الحبّ فقط.

- كلّا، أقسِمُ أنّكِ أجملُ مَن رأيت، لو يسعفني الزّمن لصنعتُ مِن ملامحك خريطة للوجود.

كلماتُه منتقاةٌ مِن لغةٍ لم أكن أعرف شيئًا عنها. مجرّد وجودي جوارَه يورّثني هذا الشّعورَ المستأثر بالألفة والتلاؤم، الحقل الشّاسع الذي نجلس في ركنٍ منه عند السّاقية مطرّزٌ بزهر القرنفل، وفرسه تصهل في تدلّل، وفي الأفق القريب ضبابٌ يمحو كلّ حدود الذّهن، يصنع عالمًا هلاميًا مِن استقطابٍ حِسّي وتفرّد.

يميل «الرّومي» ميلًا طفيفًا ثم يقطف عودًا من أعواد القرنفل، يخامرني الشّعورُ بأنّي في صحبةِ كلّ أزمنة العشق الغابرة عندما أستنشق رائحةَ القرنفل، عجيبٌ هذا الزّهر! لا يشبه زهرًا آخرَ لا في لونٍ أو رائحة، أعواده الرفيعة التي تزيّنها رؤوسه المدببة المنفرجة للخارج وكأنّه شامخٌ شموخَ الغرام ذاتِه، لونه البني الدّاكن كأنّما آلافُ التفاسيرِ قد توقّدت مِن جدارٍ معبدٍ أثري، يناولني «الرّومي» عودَ القرنفل فأتحسّس به أنفي، أودُّ لو يسحبني لعالمه.

- حبيبي، كيف يُمكن أن نفسر العشق!

- عشقنا!

- العشق عمومًا، هل هو إحساس بالآخر يختلف من واحد لواحد، أم طبيعة من روح الرّب نفخها فينا لمّا نفخ روحه!

- آه حبيبتي، أنتِ العشق كلّه، روحك معنى العشق.

ثم يلتقط منّي عودَ القرنفل ويدسّه في فمِه ويجعل يمضغه قائلًا:

- هكذا يكون العشق حقيقيًا.

ويلامس بأنامله جبهتي فأحسّ كأنّ النّسيمَ يوشوش لأريج الزّهور، تنتشي أوراقها الرقيقة وتفرّخ حولنا ألوانًا بلورية، غمسَ عينيه في نهر عينَيّ وأنشدَ أغنيةً داخل عقلي، ثم أضاف وهو يلوك القرنفلَ في فمِه بجدّية واستعراض:

- وهكذا تعيش روحك بداخلي إلى الأبد.

أستلقي برأسي للوراء فتتخلّلني رائحةُ القرنفل، كم تشبهك يا حبيبي! تشبه كلّ الدّغدغة التي تقتحمني في وجودِك.

التصقتُ به، جلسنا متسانديْنِ على بعضنا البعض، نظرتُ نحوه، ناجيتُه: كنتُ أنتظرك، أنتظر هذا الفَجرَ الذي يطلع مع مجيئك.. قرص غمازتيك على رحِم قلبي.. وجهك الخلاّب.. صبوة العشق.. كنتُ أنتظر رفيفَ جناحيك في سمائي.

تخلو الدّنيا مِن الضجيج، تنداح كلّ الأصوات، عدا صوته الذي يرنّ في أُذُني:

- ما أجملَ السكينة!

يمسّ بشفتيه رقبتي، نتوارى خلف أعواد القرنفل والهدوء وخلف حبّنا، أستعذبُ قُبلتَه الحانية، نختلس لنا وهلةً خاطفة، لا تراقبنا مِن خلالها الأعينُ ولا الأماكن، كدتُ أنهل من العسل الذي يتقاطر

مِـن توقّـف اللّحظة بيننـا، لكنّني كنتُ أعـرف أنّنا محـاصَران، مع أنّ الحقـلَ فسـيحٌ والسّـكون يحدونـا، إنّما أشـعر أنّي مـا زلـتُ مراقَبة، عينا أمّـي معلّقتـانِ في بنـدولٍ أَعلاَنـا، وصـوت «آزار» يرنّ في أذني، أسـمع أبي، أشـعر بـه في ركنٍ مجاور، أسـمع وقْـعَ أنفاسِـه، ضحكاته العصبية وتحذيراتـه الغاضبـة، صياحـه العـالي، الرّاهـبُ واقـفٌ يختبـئ خلـف شـجرةٍ قريبة يبتسـم ابتسـامةً متشـفيّة ويداعب بأنامله قضيبَه، الماضي يتأرجـح عـلى المـدى وبطنه مثخـنٌ بجـرحٍ عريـض، يتدفّق منـه خيطٌ غزيـرٌ مِـن دمـاء، لا لسـتُ آثِمـة، دَعوني قَليـلًا أتجـرّع مِن هـذا الغدير العـذب، دَعـوني لسـتُ آثِمة، أنـا أحِب.

فمهـلًا يـا «رومـي»، قد أتعـرّى بين كفيـك، قد تـرى هذه الإنسـانةَ التـي تبتغـى التحـرّر، مهلًا واتـركْ لي زمـامَ نفْسي ولـو للحظة.

- لماذا تبتعدين عنّي يا «كيرا»؟

صدِّقنـي لسـتُ أنـا مَـن ترتجـف تحت يـدِك وتمـضى عنـك بوجهها بعيـدًا، إنّهـا تلـك الفتـاةُ التـي قيّدَتهـا التقاليـدُ والأعـراف، الخطـأ والصـواب، والمـاضي البعيـد، فعـلامَ تعاتبنـي؟

ازدرتُ لُعَـابي، اعتدلـتُ عنـه وحدّقـتُ في عينيـه، أنـت في مكانـك المختـار في فـؤادي، ولكِـن دَعنـي مبدئيًا أنزلـق إلى عينيك كـي نندمج مِـن الجذور، بعدَها ليأتِ كلّ إحسـاسٍ بمقتضَى الحالة المسيطرة، كيفما تكـون، وأينـما تفـضي، أنت لا تعلـم أنّني أطلـتُ وقـوفي في الشّرفة كلّ هـذا الزّمـن القاحـل فقط لأجـل انتظـارك، فكيـف تتّهمنـي بالابتعادِ عنك ؟

غدونـا اثنـيْن ثانيـة، كان القرنفـلُ يسـتدير برؤوسـه الضّئيلـةِ خلف خطواتنـا، تنشـع عيونـه دمعًا للفـراق المؤقـت، يهمـس لي: في جوفه أنا أرقـد .. رائحـة منـك ورائحة منّي.. فاسـتكيني بداخله كما اسـتكنت.

الطيـورُ التـي كانت تزقزق منذ قليـل، طوتْ أجنحتَهـا وغفت، كان يسـير بجـواري بفرسِـه وبـرودةٌ تحـوي كفّـه، لسـتُ أعـرف إنْ كانت هـذه بـرودةَ يدي أصـلًا؟ لماذا تـصرّ على التشـبّث بيدي طالما لا تشـعر بـدفء؟ هَـبْ أنّني جُننـت، إنّما لا علاقـة بينك وبين ما أشـعر الآن، لا توّصـف الحـالاتِ يا حبيبـي بآنيتها، إنّهـا تتضمّن ما هو أفـدح، ماضيًا سـحيقًا، ألمًا كامنًا، فِكـرًا مذبذبًا. رغم براءتنا، تجتاحني أحيانًا لسـعاتٌ مِن مَشـاهدَ قابعـةٍ في ذهني، فهـوِّنْ عليك، لسـتَ أنـت الدّافع لتقلّبي مِن حـينٍ لآخر.

كان واجمًـا، ونحـن نجتاز الخـضرةَ واللّحظاتِ الحلـوة، لم يكن ينظر لي، ولم يكـن فمُـه ينفرج ولـو عن تنهيـدةٍ سريعة، كان مستسـلمًا لنقطةٍ بعيـدةٍ تشـدّ بـصرَه لهـا، تململـتُ تحـت ضغـط كفّـه عـلى يـدي، يبدو أنّـه بـلا درايـةٍ أو انتبـاه يعصرها ببـطء بين أصابعـه، تأوهـتُ، توقّفَ، اسـتدار بعينيـه نحوي شـاردًا ثم أفلـتَ يدي منتبِهًـا في اسـتدراك وقد بـدتْ عليـه علاماتُ الأسـف:

- أنا...

- لماذا اتّهمتني بالبُعد عنك يا رفيق قلبي؟

بان شبحُ ابتسامةٍ شاحبة على ثغره، وقال:

- حبّي لك أعظم من مجرّد اختيار.

ضممتُ يدَه في يدي أكثر، وقلت:

- أنت اختياري المطلق.

- وأنتِ منتهى بحثي عن الله.

زفـرتُ زفـرةً حارة، طـار بصري نحو السّـماء، وكانـت ذكرياتٌ تمور في عقلي، استـدرتُ نحوَه هامسـةً وأنـا أحـاول إدارة دفّة الحوار:

- هل سنعيش عمرنا كلّه سويًا؟

بـدا قـد بوغِـتَ، لكنّـه فطِـن لمحاولتـي في سرعـة، احتـواني بعينيه، استوعَبَ محاولـةَ تنقيـحِ اللّحظـة مـن عـبء تقلّبـاتي، ابتسَـم بهـدوء وهمهـم:

- سنفعل يا حبيبتي، سنفعل.

دنوت من شـفتيه، توتّرت ملامحه وأخذت شـفتاه ترتعشان، شبكت شـفتيّ بشـفتيه، دارت رأسي، انغمسـتُ في عـالمٍ مواز، سـاحت خلايا عقـلي، وانصرفتْ شـجوني في لحظة، قبض عليّ بشـفتيه أكثر، وشـدّهما داخـل فمه، كانـت عينانا مغمضتـين، لكنّه همس:

- إنّما الزّمن بأسرِه خُلق لأجل أن نلتقي.

مولانا جلال الدّين الرّومي

٦٣٥ هـ

(عندما أحسست بالحب أول مرة بدأت أبحث عنك، كنت أعمى، لم أكن أعرف أنّ العاشقين لا يلتقيان، لأنّ كلّ واحد منهما يسكن الآخر للأبد).

رغم تحفّظات البعض؛ ومنهم قساوسة كنيسة «آيا ألنا»، تزوّجنا.

وأنجبت منها «أمير العلم شلبي»، وابنتي الوحيدة «ملكة خاتون».

***

استقرّ فؤادي معها.

أحببت الخروج معها، نمتطي الفرس، ونركن حيث نشعرُ بالسّكينة والهدوء.

في هذا النّهار، جُبنا شوارع المدينة.

العصافيرُ نائمة، لا صوت لها في كُتُلِ الأغصان المتشابكة أَعْلَانا.

كان ظلّها -ومصابيح الإنارة ممتدّة في الشّارع الطويل كطابورين متوازيين- يسقط فوق ظلّي. في منتصف النّهار، تهجع المدينة، خاصة في لحظة القيلولة، لا يبقي غير الأحبّة المتفرّقين داخل شوارعها المتوارية.

بَدَوْنا كفرعيْن فارّين من شجرةٍ طافية في صفحة سماء، لا تقوي الأرضُ على حملنا، فكنّا نسير وكأنّنا نطير، بيننا وبين سطح الأرض مساحةٌ من الهواء. أناملها تحاول لمسي، فأقبض عليها ولهًا.

- تعالي نجلس.

على سورٍ حجري مختبئ عن الأعين خلف تعريشة من شجر قصير القامة كثيف الأوراق نجلس، تضمّني في عينيها وتهمس وقد راح جسمي يرتجف:

- بحق المسيح! لماذا ترتجف هكذا؟

أتنهّد، تسـقط عيناي لأسـفل وأشـبّك أصابعي في بعضهـا البعض، ولا أرد.

- لو تُكاشفني عن دافع خوفك!

- أنا نفسي لا أعرف سببًا!

- لعلّك تخاف منّي..!

أرمقهـا متمعّنًـا، على العكـس، أنا خائف عليـكِ، خائـف ألاّ تطول نعمـة الحبّ الذي نعيشـه هذه اللحظة، أخشـى من الأقـدار، من تجربة هـذه اللذّة التي أشـعر بها معـكِ الآن.

أخـذتْ يـدي، كانـت تقلّـب عينيهـا في وجهي بحثًـا عـن أيّ تعبيرٍ شـارد، لكنّـي كنـتُ متطلّعًـا إليهـا، ولم أحـاول سَـحْبَ يـدي رغـم برودتهـا، لعلّهـا شـعرتْ بهـذه الـبرودة التي تنقلهـا لها يـدي، إنّما كنت أتطلّـع إليهـا في شـجن، تسـاءلتُ مِن أيـن خرجتِ؟ كيـف ظهرتِ في حيـاتي فجـأة؟ بهـذه المباغتـة غـير المنتظـرة؟ الغريـب أنّكِ لا تشـبهين أيّ حلـم مـن أحلامـي، ولا أيّ تصويـرٍ محتمـل، الأغـرب مِـن هـذا أنّنـي أشـعر بأنّ هناك قاسـمًا مشـتركًا فيما بيننـا لا يمكنني اسـتيضاحه بالتحديـد، وكأنّي في الحقيقـة لم أكـن أنتظـر لحيـاتي سـواكِ.

قالت:

- غامرت معك، لا تنس، وأشعر بالأمان رغم كلّ شيء.

وضحكتْ.

كانت قسماتُ وجهِها تنُمُّ عن شرودٍ تسلّل لها منّي كأثيرٍ غير

ملموس.

ولكـن في الحقيقـة عـليّ أن أعـترفَ أنّني التقيتـك من قبل يـا «كيرا»، كلّ مـا فيـك يؤكد هـذا، في زمنٍ ما.. مـكانٍ ما.. حلمٍ مـا.. أجد هذا في تعبيراتك.. عينيك.. ملامحك المتسـائلة.

قالت:

- أكثر ما يخيفني أن أصحو.

- وأكثر ما يخيفني أن نغفو.

فاحتضنتنـي، وراح يرتسـم حولنا شـعورٌ جديد، بدأت بـرودة يدي تتبـدّد، وبـدأ جو مِـن عذوبةٍ يتسـلّل إلى نظرتها لي، مِلـتُ وأصبحتُ في مواجهـة عينيهـا مبـاشرة، جعلـتُ أتأمّل تفاصيـل وجههـا التي كانت تنبسـط. دعينـي أصـف لـك مـا يختلـج في قلبـي، أحببتُـكِ منـذ أول لقـاء، لا تَسَـلي لمـاذا؟ ولكـن هـذا التوّحـد قد يجـيء بغير أن نحسـب لـه حسـابًا، أنتِ الخيـالُ الـذي لم يُعـدّ سـلفًا، ولم يطرأ بذهنـي مطلقًا، هـل تدركـين أنّ الحـبّ في سـنّي حماقـة؟! تعرفـين، والله حماقـة كبرى، اتركينـي إذًا لهذه الرعشـةِ وليدة هذا الإحسـاس الأخّاذ، علينـا ألاّ نبدّد هـذه اللّحظةَ هبـاء، لأنّ اللّحظـاتِ القادمةَ قطعًا سـتكون مختلفة وربّما غـير مأمونـة، فاحتوينـي بعينيكِ لأبعـد مدى، خذينـي مِن هـذا العالم القبيـح واصعـدي معـي فوق.. هنـاك.. حيث عـالم لا بشر فيه سـوانا، تحسّـسي خلجاتِ فؤادي بيديك المفعمتين بالإحسـاس، دعيني أتفتّت بداخلـكِ.. دعيني.

أضـاءت الأشـجارُ ونفضـتْ عنهـا النعـاسَ كأنّـما بُعِثـتْ بعـد رقادٍ

طويـل، رحيق شـفتيها يفـوح محمّلًا برغبـة محتجزة، وكعصفـورٍ مبلّل رحـتُ أقشـعرّ بـين يديها، لمسـاتُها تختـزن جـلال الوجد بأكملـه، ومن فـرط سـعادتي وددتُ لـو أرتمي على صدرهـا، عَلَنًا، لكـن حولنا بعض المتلصصـين، حولنـا المفـرداتُ الصاغيـة، والتفاصيـل المؤرقـة، كانت لمسـة يدِهـا وحدَها كفيلةً ببث الرعـدة في أوصالي، وكأنّ سـلك كهرباء عريانًـا قـد مسّـني، قلت لنفسي: لم أعـد خائفًا يـا «كـيرا».. لم أعد.

شـدّتني مِـن يـدي ونهضنـا، مشـينا بـين الأغصـان في هـذا الجـو الاسـتثنائي ويدُهـا تحتوي يـدي، كنّا قـد طلعنا لفوق بضـع خطوات، ولم تعـد أقدامنـا تلامـس واقعيـة المحيـط، همسـتْ في أُذُني:

- أحبّك أكثر ممّا أحبّ نفسي، لهذا غامرت.

اختبـأتُ مسرعًـا في قلبي مِن وجَـلي، اعترافهـا الأول المعلن صراحةً بحبّـي، يا لانتشـائي! وأنا.. أنـا أحبّك أكثر ممّـا تتخيّلين.

قالت في توّجسٍ ممتلئ بالغرام:

- تُرى، هل يكفي الحبّ فقط؟

- وأيّ حاجةٍ لغير الحب؟

تطلّعـت لي مبتسـمة، كانـت عيناهـا تخـبراني بـكلّ مـا يصطخب في أحشـائها، وغبطـةٌ ناعمـة تسـتحوذ على قلبـي، لكنّها همسـتْ بدلال:

- أحتاج الدّفء أكثر.

بسـبب «كـيرا»؛ انغمسـت في اسـتعمال الموسـيقى والشّـعر والذّكـر كطريـقٍ مضمونةٍ للوصـولِ إلى الله، لا أكاد أحاضر في مدرسـة أو تكيّة،

إلّا وازدحم المكان بالمريدين، وكنتُ أحثّ مريديّ على التحصّن بالموسيقى، فالموسيقى الرّوحية تساعد المريد على عشق الله والتعلق به وحده، درجة أنّ المريد قد يفنى ثم يعود إلى الواقع بشكلٍ مختلف، ومن هذا المنطلق طوّرت فكرة الرّقص الدّائري التي وصلت إلى درجة الطقوس، وقد شجّعت على الإصغاء للموسيقى وأسميت هذه الطّريقة «الصوفية السّماع»، إذ يقوم الشّخص بالدّوران حول نفسه في نزهة روحية تأخذ الإنسان في رحلة تصاعدية من خلال النّفس والمحبّة للوصول إلى الكمال، والرّحلة تبدأ من الدّوران الذي يُكبّر المحبّة في الإنسان فتخفت أنانيته، ليجد الحقّ الطّريق للوصول إلى الكمال.

وحين يعود المريد إلى الواقع، يعود بنضوجٍ أكبر، ممتلئًا بالمحبّة، ليكون خادمًا لغيره من البشر دون تمييز أو مصلحة ذاتية.

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٦ هـ

جـدران البيـوت في «خـوي» تكـبّ حيّـات، الفـزع فـوق الوجـوه، الأفئـدة مضطربـة، والملامح متوتّـرة، لا يُمكـن لأحدٍ منهـم أن يفطن لـردّ فعـل الحيّـات، بين يومٍ وليلـة تمتلئ المدينـة بها! في سـابقة لم تحدث مـن قبل!

كلّ الـذي كانـوا يفكّـرون فيـه هـو النّجاة، كيـف يُمكـن أن يطردوا هـذه الحيّـات من داخل شـقوق ومكامن الجـدران والأبنية، فـإن قتلوا حيّـة أو اثنتـين أو عـشر، هـل سـتنتهي المسـالة عنـد هـذا الحـد! الحيّة طبيعتهـا الثـأر، لكن مـمَ تثأر؟

يسـتدعي الرّجـال كلّ قساوسـة المدينـة، طالمـا البخـور والقـرآن لم يشـفع، يـأتي القساوسـة، ويبـدؤون في التـلاوات.

يتمتم أحد القساوسة وهو يرفع صليبًا أمام وجهه:

- أضـع عـداوة بينك وبين المرأة، وبين نسـلِك ونسـلها، هو يسـحق رأسـك وأنت تسـحقين عقبه.

يضيف آخر:

- والله معطي السّلام سيسحق الشّيطان تحت أقدامكم عن قريب.

وثالث:

- ورأيت ملاكًا نازلًا من السّـماء ومعه في يده مفتاح المهواة وسلسـلة عظيمـة، فقبض على التّنين؛ الحيـة الأولى، الذي هو إبليس والشّـيطان، وقيّـده ألـف سـنة، وطرحـه في المهـواة وأغلقهـا وختمها عليـه، لكيلا يضـلّ الأمـم بعد حتّى تنتهي الألف سـنة، وبعـد ذلك لابدّ لـه أن يُحَل

زمنًا يسيرًا.

وتتواتـر التّـلاوات والتّعاويـذ، كأنّما هـي دقّات القلـوب المضطربة، الأعـين تتابع في فـزع زحـف الحيّات خارج شـقوق الجـدران، وتنتقل من جدار لجـدار، والحيّات كطوفـانٍ هادر، تخرج بالعـشرات، بالمئات، تنتـشر أمامهـم، وحولهـم، في كلّ المدينـة، تحاصرهـم، والأعـين تلمـع بالفـزع، بعـض الحيّـات تـشرأب وتحدجهـم، يُفزعـون، يتراجعـون يلتصقـون ببعضهـم البعـض، الرّعـب يتجـلّى، والملامـح ترتعـش، والعـرق ينهمـر، والألسـنة التي تتلـو تبـدأ في التقطّع.

يُشـعل أحدهـم نارًا، إنّـما الحيّـات ثابتة، ثابتـة في انتشـارها الذي بدا محسـوبًا، وثابتـة في التدفّـق مـن بـين شـقوق الجـدران، لم تشـفع معها النّـار، ولم تشـفع لا التّـلاوات ولا التّعاويذ ولا حتّى آيـات كلّ الكتب المقدّسـة، الحيّـات اجتاحت مدينـة «خوي».

بعـد يوم أو اثنين، سـتمتلئ المدينة عـن بكرة أبيها بالحيّـات، ومعلومٌ أنّ الإنـس والحيّـة بينهما نفورٌ وثـأر، الحيّة حليف «إبليـس»، و"إبليس» عـدو ابـن «آدم»، والـرّب حـوّط ابـن «آدم» بالرّعايـة والرّحمـة وعـوّذه ضـدّ الشّـيطان، خصوصًا ابـن «آدم» المؤمن، فما بالهم بابـن «آدم» الذي وهـب نفسـه وحياته لله! هـم رجـال الله المتصوّفة في نهايـة الأمر!

بعـد يـوم أو اثنـين، كلّ الذي سـيفعلونه مجـرّد الدّعاء والاسـتغفار، ثـم سـيهاجرون جميعًـا من هنـاك، في الغالـب، سـيتركون المدينة ترعى فيـه الحيّـات، أو يقـضي الله أمرًا آخـر، المهمّ أن ينجوا بأنفسـهم، بالطبع سـيتركون رجلًا وحيدًا، رجلًا لا يخشـى الحيّـات، فالحيّة دليله في عوالم

العتمة وعـوالم التّيه.

سـأظلّ معتكفًا في المدينة، كلّ الذي يعنيني الآن أن أسـتطلع الأسرار التـي طواها الضّريـح بين أحشـائه، وأُوصد عليها.

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول -٦٤٢ هـ

(بأيِّ ماءٍ يمكن تطهير أدران النفس؟! اللّهم إلا بماءِ المدامع).

الثّلوج تكسـو هامـات الجبـال البعيدةِ، وتسـبح كهوامِ قطـنٍ بيضاء بـدوران البـصر، أسـند العصـا عـلى خشـب السّـور المُتهالـك، وأقف شـاخصًا بعينـيّ وجهـةَ السّـماء، وأراقـب أسرابِ الطّيـور الهاربـة من قسـوةِ الصّقيـع، أرى بعضَهـا يهـوي من السّـماء وقـد تراخـى جناحاه في استسـلام، بينـما يمضي بقيّـة الـسّرب لا يلتفت للسّـاقطين، أحتوي عنـاصر الاتّصـال مـع الطبيعـة أسـفل بـصري، كلّهـا عنـاصر تصلح للاتّصـال أيضًـا مـع الله، الرّيـح والشّـجر والجبـل والتّربـة والبـشر، يُمكـن أن تسـتخرج منهم حقول اتّصـال لا نهائية، إنّما عليـك أن توجّه رُوحـك لهذا.

مـن بـين سـحابات الثّلـج المتناثـرة في الأفق تتسـلّل حِزمٌ مـن ضوء الشّـمس على اسـتحياء، تـضرب قلـب الأرض في تكاسـلٍ، وأسـاءل نفـسي: هـل خفتت حِـزم الضّـوء المنبعثة من قلبـي أنا أيضًـاً؟ بالأمس كانـت أشـدّ توهّجًا وحماسًـا، ما الـذي أصابها اليـوم؟ هل لتشـابه أيّام هـذه المدينـة دورٌ في هـذا؟ رغم أنّ حالـة الاتّزان الرّوحـي فيها أكبر من كلّ المُـدن التـي ارتحلـت عبرهـا، ورغـم أنّ أنفاسي تهدّجـت هُنا، لكنّ شـيئًا مـا يجعل الصّبـاح يمـضي في بـطء، واللّيل يطـول، يجعل السّـماء تبدو منخفضة وشـائهة.

أعـود ببصري إلى الغرفة، كان «شـاهين» نائمًا على ظهره يشـخّر، وإن زيّنـت وجهه أمارات النّـور، أدبّه بالعصا، فيصحو مبتسـمًا، يقول:

- هل تأخّر الوقت يا مولاي؟

- إنّما تأخّر بنا التأمّل يا درويش، تعال ننزل إلى الشّوارع.

سند راحته على كتفي ونحن نهبط الدّرج الخشبي الذي تئزّ أخشابه، كان الخان مليئًا بالسّكارى، وبدوت أقرأ همّ كلّ واحد، معظم هؤلاء أسكرهم العِشق قبل أن تُسكرهم الخمر، وكان يتنطّط في منتصف الخان بهلونٌ من بلاد إفريقية، وكان السّكارى يصفّقون له في انتشاء، له قردٌ كان يقلّد حركاتهم، يرفع يده كأنّه يجرع قنّينة نبيذٍ، فيتضاحكون، أو كان يكشّر بملامحه ويتجشّأ، فبدا الخان زاخمًا ومزدحمًا رغم أنّنا لم نزل بساعاتِ الصّباح الأولى، قلت: لعلّهم سُكارى الأمس.

أزيح بعصاي بعض الأجساد في رفقٍ لأتحرّك، نخرج إلى مُحيط الشّارع الغارق في الثّلج، وهواءٌ خفيف يحزّ وجهينا، رفعت عينيّ إلى أعلى، بضعُ نساءٍ واقفات في الشّرفات يسرين عن أنفسهنّ بمراقبة حركة الطّريق، وغيمٌ يزحف بتؤدة ليعبر رؤوس البنايات فيختفي، ورائحة مسكٍ تلتقينا، آتية من بعض محال العِطارة القريبة.

تحت شجرةٍ باسقةٍ عند آخر الطّريق جلست، فجلس «شاهين» جواري، وهو يقول:

- لم تُجهَد أجسادُنا بعد كي نسترح يا مولاي.

- عيبُك أنّك لا تتبع إلّا منشأ حواسك، ولا تتبع منتهاها، يا «شاهين» يُمكن أن تُجهَد الرّوح من مجرّد تأمّلٍ عابرٍ، بل يُمكن أن تُجهِدها ذكرى مارقة، هذه الشّجرة استدعتني للجلوس، فلبيّتُ.

- وهل تُقارن حواسي القاصرة بحواسك يا مولاي؟

- لأنّك تحبسها رغمًا عنها، أطلقها، أفرج عنها، اترك لها العنان

لتستقم، سوف تمنحك حواسك ما هو أكبر من الخيال والتصوّر.

- ليتني بلغت مبلغك من العِشق يا مولاي.

- ما كشف العشِق إلّا لحظة، ستجدك متبرّئًا من أصل هذا العالم، لكنّك لا تصبر، فضيلة الانتظار أعظم الفضائل يا «شاهين».

وأمسكت يده، قلت:

- ضع يدك فوق الثّلج.

وضع يده، في لحظة تحوّلت يدُه لمسبارٍ ينخر في عمق الثّلج، ثمّ انفجرت عينُ ماءٍ، ففُزع، قلت:

- هذا عشقٌ.

ثم قطفت غصنًا من الشّجرة، تحسّست به على وجهه، وفي لحظة تحوّل الغصن لأصابع تمسّد شعر رأسه ورقبته، انتفض، وصاح:

- ما هذا يا مولاي؟

- هذا عشقٌ أيضًا.

ثم أضفت:

- العشق هو الذي يبدّل ماهية الأشياء بين يديك، كلّ الأشياء يُمكن أن تتخلّص من ماديتها إن أمرتها من دافعِ العِشق، الخلاصة في العِشق يا «شاهين».

انقضى النّهار وأنا أستمع لحكايات الشّجرة، كم ذبيحًا نُحر تحتها وكم عاشقًا تضرّع إليها، كم مجنونًا طاف في رحابها، وكم من الأزمنة حطّ عليها وفنَى!

قطفت وردةً قبل أن أغادر، وعرّجت على الخان، جلست قليلًا على إحدى المناضد، وخاطبت صاحب الخان:

- كأس فارغة فقط.

هزّ كتفيه وأحضر الكأس، وضعها أمامي ووقف يراقبني، غمست الوردة في فراغ الكأس، وتركتها، كانت الوردة تتحوّل بالتدريج إلى نبيذٍ، فغر صاحب الخان فاه، امتلأت الكأس بالشّراب، فوضعته على فمي ورحت أرشف، صاح الرّجل:

- يا لجنونِ الدّراويش!

فقلت:

- إنّما هذا هو العِشق الخالص، أن تأمر كُن، فيكون.

- وما أنت إلّا بساحر يا مجهول النّسب.

- نسبي إليه وبه، نسبي لغير ابن «آدم».

- زد من تجديفك ومجونك، والله سترى أيّامًا غبراء في السّماء.

- تُرى، كيف يُمكن أن نحكم على البشر من مظهرهم؟ السرّ في الباطن وليس الظّاهر يا رجل.

- وكأنّك أحطت بالأسرار!

- بل أحاطت بي.

وحملت الكأسِ وصعدت بها، قلت بسرّي: اللّيلة ستأتي رؤيا عظيمة .

* * *

في المنامِ نهرٌ مهجورٌ، وببّغاء.

قبيـل ضحـى الحلـمِ، أجلـس وببغائـي عـلى ضفّـة النّهـر المهجـور نتصفّـح وجهينـا عـلى مرآتـه، فنبـدوان متشـابهين تمامًـا، ثـم أبتسـم، يرفـع الببغـاء عينيه نحـوي فـيرى ذات الإطلالة، بدوره يبتسـم، لكنّي أنظـر ثانيـة للمـرآة فلا أجـد سـوى وجـه الببغـاء، ولأنّ حقيقـة المرآة أنّهـا قـد تخـدع، وقد تصـوّر ما هـو دون الواقـع، لم يبـد عـليّ أنّي أهتم، بـل أشـحت بوجهي بعيـدًا عن سـطح الماء واسـتقمتُ واقفًـا والببغاء يداعـب لحـم كتفي، ثم مضيـت عن النّهـر محدّثًـا نفسي أنّ السـبب في كونـه هجرته الوجوه، ليـس المقابر التي تعيش على ضفتـه، وليس لون مياهـه الأسـود، على قـدر ما يرجع السـبب لطبيعته الكاذبـة التي تلفّق انعكاسـات الوجوه.

والمقابـر التـي تتناثر قريبة مـن النّهر مقابـر يتناقص عددهـا يومًا بعد يـوم، رغـم ذلـك فـإن اخـضرار شـواهدها يتكاثّـف كذلك يومًـا يليه يـوم، الشـواهد تمتـصّ مـن ضفّـة النهر لـون الحيـاة الأخـضر فتتركها يابسـة، وتبدو - وهي تسـتضيف هذا اللّون الأخضر فوقها- كحديقةٍ مبهجـة، لابـد أن يزورها النّـاس، أن ينعموا بجمال منظرهـا، إنّما النّاس - نـاس المدينـة- لا يعرفـون عـن جمـال الطبيعـة سـوى بنايات تعِسـة يـدورون بداخلهـا، وأسـوار متينـة تحميهم من سـطوة العالم.

آخـذ نفسًـا عميقًـا، وببـطء أرفـع عـن أرض الحديقة قدمـي، لويتُ رقبتـه ناحيـة الببغـاء، كان الملل قد أجهـز على ملامحه، قلـت في نفسي: أنـت ثرثار بطبيعتك، لتقل لي شـيئًا. غـير أنّ الببغاء -عـلى غير عادته-

كان صامتًا، وكان ينظر بشيءٍ من اهتمام وتحفّزٍ أمامه، وبشيءٍ من ترقب وكثير من خوف، استدرتُ أنا الآخر، فتسمّرتُ قليلًا، إذ أنّ الأرض كانت تنبلج، وتخرج منها ذراع عظمية، تخمش أصابعها الطّين وتتحامل عليه لتخرج، شيئًا فشيئًا تخرج، شيئًا فشيئًا تظهر رأسٌ صلعاءُ تمامًا إلّا من بضعة شعيرات جافة يغطّيها ترابٌ أزرق اللّون -لعلّه نفس التّراب الذي اختلس زرقة مياه النّهر وتركه معتمًا- ثم يكون تجويف العين، المعتم الخاوي العميق، فالأنف الصّلبة، فالأسنان المتآكلة، بعدها يشبّ الجسد النحيل أمامنا فنتراجع قليلًا إلى الوراء، لا لخوفنا من منظر المومياء المغبّر البالي، لكن من ابتسامتها المريبة التي قابلتنا بها.

عن عظام صدرها نفضت الغبار، وبخطوات أشبه بخطوات راقصة كانت تدنو، فيزداد بالأرض تحجّرنا، وبصوتٍ ناعم قالت:

- موعدي مع المرآة.

لم يكن هناك بديلٌ عن الرّجوع إلى مرآة النهر -كان هناك الحافز الأشبه بأمر نفسي، لا يجوز مخالفته ولا تقوى الإرادة على هذا، لم يكن هناك بديلٌ عن الرّجوع لمياهِه السّوداء الرّاكدة بلا حراك، وأكاذيبه السّخيفة، لم يكن الفرار طرحًا، كما لم يكن التسمّر حلًا، فاستدرنا، ومعنا المومياء، وانكفأنا نطالع على صفحة المرآة وجوهنا، مثلما أخذت تطالع المرآة أيضًا وجوهنا، وكم يكون الكذب منجاة هذا الوقت؟ فالحقيقة تعني -بشكل مفاجئ- أن يبدو في المرآة وجهان، المومياء والببغاء، ووجهي، ثالث الوجوه، يختفي، فيعتريني توجّس،

وأنهـض، محـاولًا بقليلٍ من أمـلٍ وكثيرٍ من يـأس، أن أحتفظ بالببغاء عـلى كتفي، غـير أنّ الببغاء بسرعة ينـصرف عنّي، ويربـض فوق كتف المومياء، مهلّلًا:

- إلى المدينة.

فتلتفـت إليـه المومـيـاء مبتسـمة، وتمضي داخـل النهـر، وببغاؤها على كتفهـا، وأُدرك أنّي لم أعُـد رهـين هـذه الحديقة، فالنّهـر إذ ينفرج، وتبين فجـوة غائـرة، أدرك أنّي لا بـدّ أن أتبـع الموميـاء إلى المدينـة التـي تعيـش داخـل النّهر.

وكذلك حتمًا ستتناقص القبور قبرًا.

❋ ❋ ❋

تصطخـب الرؤى يومًا بعـد يومٍ، أشـعر أنّي أقترب مـن الوصولِ إلى الـسرّ الأعظم الكامن في قلب العِشـق.

❋ ❋ ❋

الله، وملائكـة، نـور وبخـور، السّـماء خـضراء اللّـون، الأرض كلّها تتحـوّل إلى شـجرةٍ وارفـةٍ، الشّـجرة تتراقـص، تفرد أغصانهـا فتسرح نحـو فراغات الكون، تنفجر جميع الشّـموس وتصبح عينًـا كُبرى تُطلّ عـليّ وتدعوني، أقفز، أسـير على سـحابةٍ فأخرى، وحولي كـروان يغرّد، وسـمكةٌ تسـبح في الهـواء، وأنظـر إليّ فلا أجدني، أسـمع صـوتي ينادي عليّ مـن هنـاك: اقترب.

عباءة هائلة، بحجم الخيال، تنفرد وتحتويني، أسمع صوتًا:

- ألم أخبرك؟

أحاول العثور على منبع الصّوت، دون جدوى، وفي سديم العباءة أتحرّك، كرُوح كونية كُبرى سيُخلق منها عالمٌ آخر، وفجأة، يظهر أمامي، يهمس في خلايا عشقي:

- ألم أخبرك؟ لقد التقت طريقانا.

* * *

أصحو على جلبةٍ بالطّابق السّفلي في الحانة، أكبّ ماءً فوق وجهي، وأنتبه للّغط الدّائر في الأسفل، ثرثرة، وصياح، وعراك، أهزّ «شاهين» بقدمي، فيستفيق بدورِه، أسحب عصاي، وأهبط، وثمّة بنتٍ محشورة بين صاحب الخان وأحد الجُند، وصفّ من الجنود يقفون يسدّون باب الخان، البنت بدت مذعورة، ترتجف، والدّمع ملء وجهها، وكانت جوقة الغجر اللذين يعزفون الأراغيل قد توقّفت، والخان عامرٌ هذه السّاعة بالمسافرين الرّحل، والحجّاج «الزرادشت»، والجواري والنّخاسين.

سوطٌ في يد الجُندي، يهبط به على جسد البنت، ولم يكن أحدٌ يزود عنها، فُزعت، فقفزت ووقفت بينهما، حدّق فيّ صاحب الخان ثمّ سحبني، وهتف:

- مال الدّراويش ومال هذا الحديث؟

- من فضائل الإنسان الرّفق بأخيه الإنسان.

- دع تجديفك وجنونك يمضيان عنّا، الأمر لا يعنيك.

- الله أمرنـا أن نعمـر قلوبنـا بالرّحمة، كيـف يُمكن أن يفـتري القوي عـلى الضّعيـف في عـالمٍ لا قوّة فيـه ولا بـأس إلّا لله؟

مال على أذني يهمس:

- إنّها جارية، هربت من بيت الحاكم، ولكنّها هربت بمصيبة.

وانتظر قليلًا يستشفّ وقع الأمر عليّ، فأكمل:

- إنّها حُبلى من ابن الحاكم.

ولكنّهـم في سرعـةٍ بـدؤوا يجرّونهـا، حاولـت الصـدّ عنهـا، وإنّـما الزّحـام أعاقنـي، هرولت وراءهم، وفي الشّـارع، في منتصـف الطّريق، تجمّـع المـارّة الغربـاء، وتجمّـع أصحـاب الحوانيـت والمحال، وقـد بدأ الجنـود يربطـون البنت بين غصنين بالحبال، تدّخلـت، فدفعني أحدهم بقدمـه، ورفـع سـوطه وهبط عـلى البنـت، ارتميت عليهـا، فصرخ:

- ابعدوا هذا الدّرويش الملووث وإلّا جلدته..!

لكـنّ أحـدًا لم يقـترب، غـير بعـض الجُنـدِ، فاسـتمتّ فـوق جسـد البنـت، والسّـوط يسـقط عـلى رقبتهـا، صحـت في ألمٍ:

- ماذا تفعل؟

ولم يسـمعني، اسـتأنف ضربـه بالسّـوط، فحرّكـت جسـدي للأعلى قليلًا، واسـتقبلت لسـعات السّـوط نيابة عن البنت، ورحـت أصرخ:

- ليس للإنسان أن يبغي.

واحتضنتها، فحاوطني الجنود وحاولوا أن يُبعدوني، لكنّ رُوحي

كانت مكلبشةً على جسد البنت المسكينة، وهي تئن، ورأسها مرتخية فوق كتفها، والسّوط يضرب بلا هوادة، والنّاس تهمهم، وتثرثر، و»شاهين» فقد التركيز، فراح يبحث عنّي بيدين عاجزتين وسط الهرج والمرج، إذ لم يُرشده اختلاط الأصوات لمكاني.

وعمّمت بصري على الأجواء، بدت مُستهلكة، احتويتها في نظرةٍ كُبرى، في لحظة، والسّوط يهبط على ظهري، ولا يصعد عنه إلّا بدمٍ.

بدت ملامحُ شمسِ النّهار العفيّة في وجه السّماء المليحِ كجدائلَ مِن ذهبٍ مغزولةٍ في أَنَاةٍ وفي صَبرٍ لا يَعرف الكَلَل، ورغم ذلك تُصِرّ أن تُضفي على المشهد سَقْفًا مِن الألغاز.

بانت بشائرُ النّور، عند أن راحت الأشجارُ تتثاءب، وتنفض عن كواهِلِها غطيطَ العصافير المتدثّرة بأوراقها، رَيْثَما تَجيء مركبُ الشّمسِ في أوجّ طلّتها، وبدا مَجرَى النّهر المتغضّن، الموحِي بالتهالكِ الآزف، الآخذ في السرسبة ببطءٍ وخمول مِن تحت الأقدام، كأنّه يجري نحو نهايةٍ مقدّرة سلفًا؛ طالما بدا كذلك كلّما استيقَظَ صباحُ المدينة وأحيى قلوبَ الناعسين.

«إنّما لا المَجرى ينتهي ولا الزّمن أيضًا».

قلتُ في سرّي وأنا أتلقّى ضربات السّوط بعزمٍ.

في الأفقِ الذي هناك عند مَرمَى البصرِ القريبِ تتشكّل سُحُبٌ مِن غبار، وحلقاتٌ مِن بَشَر، مِن صوبِ الأفقِ تأتي أصواتٌ متخالطة لا تميّزها أُذُن، حافّةُ ضفّة النّهر متعرّجةٌ تملأها تكتّلاتُ الحَلْفَاءِ المسنونة، والطريقُ مليئةٌ بالحَصَى والطين، تخبُّ فرسٌ قادمةٌ من غيبة

الأفـق، تحـاول نـزْعَ حوافرِها مِن فخّ الطّـين اللّزج، فتتقافـز كُتَلُ الطينِ لأعـلى، ثُـم سرعان مـا تحطّ أسـفلَ أقـدام النّاس.

هديـلُ حَمَـامٍ خافتٌ يَجيء من سـطح بيتٍ واطئ، يتخلّلـه صياح ربّة بيتٍ.

ومـن أول الطّريـق، يُقبِـلُ جمعٌ، يدلـف إلى حلقة الجنود، وفي وسـطِه هالةٌ، ينقسـم الجنـود، تنفرج الحلقة رويـدًا، وعلى فرسٍ صهبـاءٍ يدخلُ نحونـا كنبـيٍّ مـن زمـنٍ غرائبـيّ، حولـه مريـدوه، فتتلجّـم الأفـواه، ويرتخـي السّـوط أرضًـا، يهبـط من فـوق الفـرس، يسـتطرد في غضبٍ بصـوتٍ رخيمٍ:

- حتّى الدراويش يُجلدون في هذا البلد يا جُند الحاكم؟

ألتفـتّ إليـه، يغمرني نـورُه، وبعدما أحطت جسـد البنت بجسـدي، أنفلت، أصرخ في نشـوةٍ وعشـقٍ وجنون:

- مولانا، ها قد التقت طريقانا.

وبذراعيّ؛ وفي شوقٍ عظيم، طوّقته.

ثـمّ يمتـزج جسـدانا، ولا أعـرف، هـل ركع الزّمـن تحت قدميـه، أم صـار الكون خاتمًـا طـوع إصبعه؟

مولانا شمس الدّين الرّومي

العدم –&

ذُب، لا تهمّـك الأسـماء، في هـذه اللّحظـة؛ في هذه اللّحظـة بالذّات، نحـن خـارج حـدود الوعـي، إنّ التوحّـد هو سرّ العِشـق الإلهـي، هو الحقيقـة المُطلقة، الحقيقـة التي ليس قبلها ولا بعدها حقائـق، أنا وأنت، «شـمس» و«جـلال»، أو «جلال» و«شـمس»، أو روح العِشـق، أو كلّ الأسـماء مُدمجـة، لا يهمّك، في حلمٍ قديم رأيتنا نحـرق كلّ شيء، نحرق أنفسـنا، اليـوم علينا أن نُعيد الزّمن قليلًا، كـي لا يحترق جوهر الحقيقة، هـل تراك؟ لا تندهـش، عدد غير محدود من النّسـخ يحـوّم حولك، إنّها ليسـت أطيافًا، إنّهـا أنت، بتفاصيلـك، كأنّ العالم بأسرِه تحـوّل إلى دائرة مـن المرايـا، واجـه انعكاسـاتك، كي نسـتطيع ضبط ميـزان العـالم من جديد، امسـك الشـعلة، احرق كلّ الكتـب أولًا، ودع الحروف تتطاير، كلّـما اشـتعلت الكتب، تطايـرت الحـروف، الحقيقـة الوحيـدة الأزلية سـوف تتبقّـى في كتـابٍ أوحد، هو الذي سـينجو مـن النّار.

اطـو الأرض، سـتنطوي بسـهولة بـين يديـك، الأرض لم تكـن يومًا كرويـة، هـذا عبـث، الأرض يـا درويـش الدراوشـة مسـطّحة، ولكن بامتـداد اليقـين، اسرح بيقينـك سـتسرح معـك الأرض، يُمكنـك أن تُعيـد تشـكيل أجزائها المفكّكة كيفما شـئت، إنّما إيّـاك والعبث بالزّمن، خصوصًـا المـاضي، بقاء الإلوهية مرهونٌ بالزّمن، أعلم أنّ باسـتطاعتك طيّ الزّمن أيضًا، ولكنّنا سـنفعلها لمرّة اسـتثنائية، لأجل أن نحافظ على روح الحقيقـة بلا مسـاس، ثمّ سـنلبس هيئاتنا البشريـة ثانيةً.

ابسـط يـدك، اسـتدع قـوى الـبرق بـين يديـك، سـتهبط الأضـواء والأصـوات والنّجـوم والكواكـب والمـدارات والأفـلاك والأجـرام

والشّـموس كلّهـا بـين يديـك، وأُنظـر لهـا وهـي تتضـاءل وتمنحك سرّهـا، فأنـت واضـع الـسرّ، وأنـت صاحبـه، انتـشر فوق ألـف فكرة عدميـة، وامنـح البـشر إحسـاس اليقـين، اجعلهـم يشـعرون بمعنـى الحياة.

أجـل أعـرف أنّـك مِتّ، ولـولا موتك مـا كان خلـودك، افتح فجوة تحت قدميك، واجعلها تتّسـع، لتسـحب كلّ ما هو مادي وتسـتخلص الأرواح، النّـواة أصـل المـادة، وعقلـك هو نـواة الكـون، وروحك هي الأثـير الـذي يـسري لكي ينغّـم الإيقاع، فـإذا أمـرت كان كلّ شيء بين يديـك، وكان إلهم طـوع بنانك.

حـرّك الجبـال، حـرّك الأنهار، البّحور سـتفيض، سـيملأ المـاء حِجر السّـماء، وسـتصبح الأرض كُتلـة مـن صلصـال بـين يديك، شـكّلها، ابتـدع تقويـمًا جديـدًا للإنسـان، أو اصنع كائنًـا آخر، لا يتمـرّد عليك.

عُـد بالزّمـن لحظـة بلحظـة، امـح ما اسـتطعت مـن مخلوقـات، عُد أكثـر، فأكثـر، هـذا نبـيٌّ قديـم، اجعلـه فراشـةً واشـطبه مـن سـجّل التّاريـخ، بالطبـع لم ينفع هذا النبيّ مسـار البشريـة في شيء، لقد راهنت عـلى مُلهـم خاسرٍ، عُد، سـتجد أرضًا بـلا حضارات، سـتجد بشرًا بلا مـأوى، عُد، سـتجد الدّمـاء تجـري في الأنهار، سـتجد ولدًا يقتُـل ولدًا آخـر، تمثّـل في هيئـة غـراب، وشـقّ بطـن الجبـل، علّمـه كيف يـواري سـوأة أخيـه، عُـد وعُـد، سـتجد ضـوءًا منتـشرًا بفوضويـة في أنحـاء الكـون، أغمض عينيـك فقط، واجل الضّوء، وقد تجد عرشًـا منبسـطًا في انتظارك.

هيّا اجلس عليه..

اجلس على عرشك.

تلك قواعد العِشق الأربعون؛ مجرّد حروف، إن أحرقتها، تطايرت هي الأخرى، وسيتبقّى كتابٌ أوحد، صدّقني، كتابٌ أوحد يا رفيقي.

هل تعرف اسمه؟

المراجع:

١- الذّهبي –تاريخ الإسلام.

٢- ابن الأثير –الكامل في التّاريخ.

٣- بديع الزّمان فروزا نفر –حياة مولانا جلال الدين محمد– المشهور بـ(مولوي).

٤- قواعد العشق الأربعون– شمس الدّين التبريزي.

٥- المثنوي –مولانا جلال الدّين الرّومي.

٦- رباعيات مولانا جلال الدّين الرّومي.

٧- موسوعة ويكيبيديا.

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm